وزارة الثقافة

مطالعات في اللغة والأدب

تأليف: خليل السكاكيني

رقمنة

وزارة الثقافة
Ministry of Culture

مطالعات في اللغة والأدب

تأليف: خليل السَّكاكيني

صدرت الطَّبعة الأولى عام ١٩٢٥
عن مطبعة مدرسة الأيتام الإسلامية في القدس

وزارة الثقافة الفلسطينية
سلسلة الموروث الثقافي
اسم المؤلف: خليل السكاكيني
اسم الكتاب: مطالعات في اللغة والأدب
الطبعة الأولى: ١٩٢٥ عن مطبعة مدرسة الأيتام الإسلامية في القدس

مراجعة وتدقيق: رشيد عِناية - نور عرفات
تصميم الغلاف: فاطمة حسين
صورة الغلاف: صورة شخصية لخليل السكاكيني صوّرها ووقع عليها المصور الفلسطيني خليل رعد

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذنٍ مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of the publisher.

فلسطين
www.moc.pna.ps

مطالعات
في اللُّغة والأدب

تقديم

سيادة الرَّئيس محمود عبَّاس «أبو مازن»

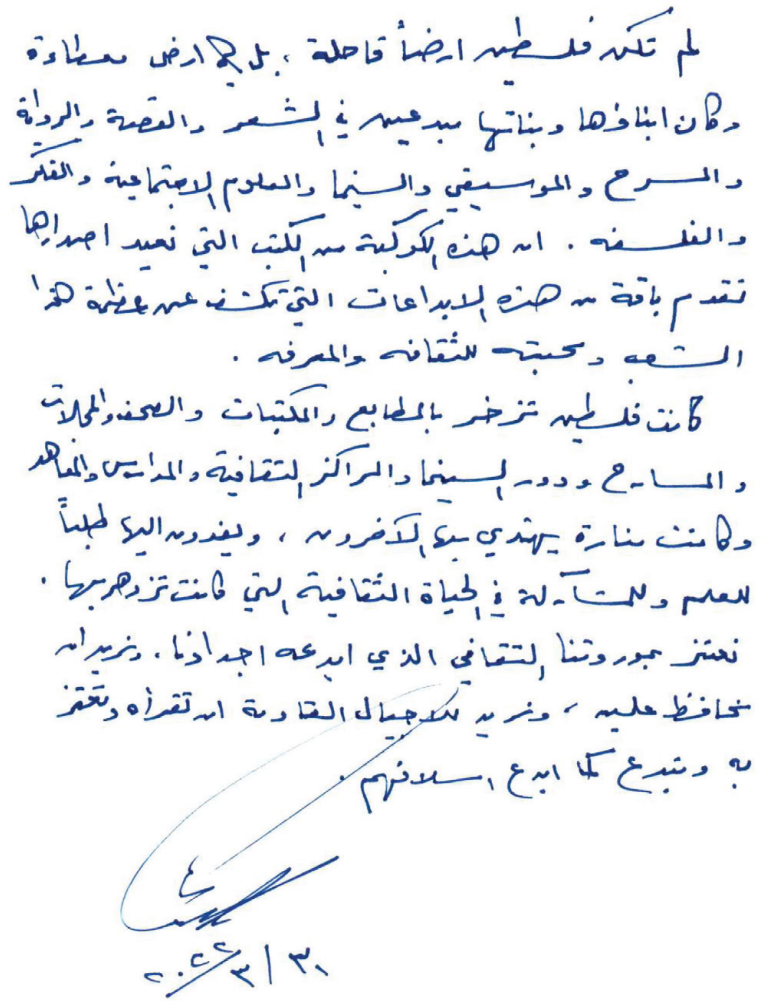
لم تكن فلسطين ارضاً قاحلة ، بل كانت ارض عطاء
وكان ابناؤها وبناتها سبّاقين في الشعر والقصة والرواية
والمسرح والموسيقى والسينما والعلوم الاجتماعية والفكر
والفلسفة . انه لهذا الكوكبة من الكتب التي نعيد اصدارها
تقدم باقة من هذه الابداعات التي تكشف عن عظمة هذا
الشعب وحبه للثقافة والمعرفة .

كانت فلسطين تزخر بالمطابع والمكتبات والصحف والمجلات
والمسارح ودور السينما والمراكز الثقافية والمدارس والمعاهد
وكانت منارة يهتدي بها الكثيرون ، ويفدون اليها طلباً
للعلم والمعرفة في الحياة الثقافية التي كانت تزدهر بها .
نعتز بجذورنا الثقافي الذي ابدعه اجدادنا . ونريد ان
نحافظ عليه ، ونريد لاجيالنا القادمة ان تقرأه وتعتز
به وتبدع كما ابدع اسلافهم .

٢٠٠٤/٣/٣٠

أدلـةُ البيانِ في اللُّغَة العربية

مَـنْ تدبـر العلـومَ اللسـانية في اللُّغَـة العربيـة؛ كالـصرف والنحـو، رأى أنـه قـد مـرَّ بهـا حتـى الآن ثلاثـة أدوار: الأول دور الاسـتقراء والتطبيـق، اسـتخرج النحـاةُ الأولـون فيـه الجزئيـات مـن الكليـات ثـم طبقـوا الكليـات عـلى الجزئيـات طـردًا وعكسًـا؛ مثـال ذلـك: اسـتقرى النحـاةُ الفاعـل في جمـلٍ كثـيرةٍ، فقالـوا الفاعـل مرفـوع، ثـم قالـوا إن لفظـة «رجـل» في قولنـا «جـاء الرجـلُ» مثـلًا مرفـوع؛ لأنـه فاعـل. الـدور الثـاني: دور التبويـب والترتيـب، كان هَـمُّ كلِّ مؤلـفٍ في هـذا الـدور تتبـع الأحـكام الكليـة في مظانِّهـا، وترتيبهـا في فصـولٍ وأبـوابٍ أشـبه بالفهـارس، ضمـوا فيـه النظـير إلى نظـيره والفـرع إلى أصلـه، ولكـن لم يجـئ أحـدٌ منهـم بـشيء جديـد مـن عِنْـدِهِ؛ بـل اقتـصروا عـلى مذاهـب البصريـين والكوفيـين، وذِكْـرِ الراجـح والمرجـوح منهـا بـلا بحـث ولا نكـير. الـدور الثالـث: دور الاجتهـاد، حـاول بعـضُ المؤلفـين فيـه أنْ يخرجـوا مـن عهـدة ذلـك التقليـد بـأن يذكـروا هنـا وهنـاك بعـضَ آراءٍ لم يسـبقهم إليهـا أحـدٌ، ففتحـوا بذلـك بـاب الاجتهـاد.

ولا شـك أننـا أصبحنـا اليـوم في زمـان لا بـد فيـه مـن إعـادة النظـر في كل مـا وضعـه الأولـون وتسـلمناه منهـم قضايـا مقـررة لا تقبـل الاعـتراض، وبنـاء ذلـك عـلى مبـادئ جديـدة علميـة، فـإن عندنـا مـن الوسـائل مـا لم يكـن عندهـم. كان علـماء اللُّغَـة في قديـم الزمـان لا يعرفـون غـير اللُّغَـة العربيـة، ولم يكونـوا يعرفـون مـا يسـمى اليـوم بعلـم مقابلـة اللغـات بعضهـا ببعـض، أو مـا يسـمى علـم تحليـل اللغـات أو فلسـفتها؛ بـلى حـاول بعضهـم التعـرض لهـذه الأبحـاث، منهـم أبـو الفتـح عثـمان بـن جنـي الموصـلي في

كتابيه «الخصائص في اللغة» و«سر الصناعة في النحو»، ولكن أبحاثهم كانت في عهد طفوليتها، وأما اليوم فقد ارتقت هذه العلوم وصارت خصائص اللُّغَة وأسرارها علمًا بأصول، وأصبح عالِم اللُّغَة لا غنى له عن تعلم أخوات تلك اللغة؛ بل لغات أخرى عديدة قديمة وجديدة. وقد عرفت في بلاد الإنكليز وأميركا أساتذة كثيرين من علماء اللغات الشرقية يعرف الواحد منهم إلى اللُّغَةِ العربيةِ، العبريةَ والسريانية والحبشية والتركية والفارسية والسنسكريتية، فضلًا عن اللغات الأوروبية الحديثة والقديمة إلى ما يجاوز العشر لغات. وقد لقيتُ في كمبردج شيخًا مصريًّا وهو أستاذ في إحدى المدارس العالية في القطر المصري، رأى سعة معرفة أولئك الأساتذة وتبحرهم في علم اللغات، فقال في قصيدة أرسلها إلى أحد العلماء في مصر:

أنا في بلاد الإنكليز

أسير كالطفل الصغير

في كمبردج مدينة العرفان

ليس لها نظير

فيها الأساتذة الفخام

ومن يعادل شكسبير

لا علـم لي حتى أجادلهم

ولا عقل كبير

لكنني مسترشدٌ

شأن الضرير مع البصير

ولقد ذكرتك قائلًا

في مصرنا البدر المنير

كل بأطراف البنان

إليه إجلالًا يشير

ولأولئـك العلـماء الأعـلام مؤلفـات غزيـرة المـادة مشـبعة الفصـول في تاريـخ اللغـات وفلسـفتها ومقابلتهـا بعضهـا ببعـض. اسـتبطنوا اللغـات واسـتخرجوا منهـا حقائـق بُنيـت عليهـا العلـوم اللسـانية في لغاتهـم، وأول مَـن طـرق هـذه الأبحـاث الجديـدة في اللُّغَـة العربيـة — عـلى مـا أذكـر — أحمـد فـارس الشـدياق، والشـيخ إبرهيـم اليازجـي، وجورجـي زيـدان، وروحـي الخالـدي المقـدسي، وجـبر ضومـط، وبنـدلي الجـوزي المقـدسي، وأنسـتاس الكرمـلي، ثـم انقطـع العهـد بتلـك الأبحـاث ولم تترتـب عليهـا فائـدة عمليـة، ولعـل لذلـك سـببين: الأول؛ تراجـع النهضـة وقلـة المشـتغلين بهـا، والثـاني؛ عـدم الجـرأة عـلى إبـداء رأي جديـد، وقـد خطـر لي أثنـاء معالجتـي هـذه المواضيـع مـن النظـرات والخواطـر مـا أتجـرأ عـلى عرضـه عليكـم شـيئًا

بعـد شيء، وأنـا لا أجهـل أن رأس مـالي نـزر، وسـأقتصر في حديثـي هنـا عـلى الـكلام عـن أدلـة البيـان التـي تتميـز بهـا وظيفـة الكلمـة في الجملـة، فأقـول: تُعـرف وظيفـة الكلمـة في الجملـة إمـا بالقرينـة المعنويـة، نحـو: «فهـم مـوسى المعنـى»، أو «فهـم المعنـى مـوسى»، فـإن الفاهـم هـو مـوسى والمفهـوم هـو المعنـى؛ إذ لا يصـح غـير ذلـك. وإمـا بالترتيـب، نحـو: «سـبق أخـي غلامـي»، ولمـا كان كل منهـما يصـح أن يكـون سـابقًا أو مسـبوقًا ذكرنـا السـابق أولًا والمسـبوق ثانيًـا؛ لأن علاقـة الفعـل بالفاعـل سـابقة لعلاقتـه بالمفعـول. وإمـا بالإعـراب، نحـو: «ضرب زيـدٌ عمـرًا» أو «ضرب عمـرًا زيـدٌ»، فالضـارب هـو زيـد والمـضروب هـو عمـرو في الجملتـين، وقـد عرفنـا ذلـك ليـس مـن المعنـى لأنـه يصـح أن يكـون كلاهـما ضاربًـا أو مضروبًـا، ولا مـن الترتيـب لأن كلمـة زيـد جـاءت قبـل كلمـة عمـرو في الجملـة الأولى وبعدهـا في الجملـة الثانيـة، وإنمـا عرفنـا أن زيـدًا هـو الضـارب لأنـه مرفـوع، وأن عمـرًا هـو المـضروب لأنـه منصـوب، فأدلـة البيـان ثلاثـة: القرينـة والترتيـب والإعـراب، وهـذا آخـر مـا وصلـت إليـه اللُّغَـة العربيـة، ولا بـد أن تكـون هـذه الأدلـة قـد مـرت عـلى أدوار مختلفـة قبـل أن وصلـت إلى صورتهـا الحـاضرة التـي ورثناهـا مـن عهـد التدويـن جريًـا عـلى نامـوس النشـوء والارتقـاء كـما سـنبينه فيـما يـلي.

القرينة

لا شك أن القرينة هي أقدم هذه الأدلة، وقد مرَّ زمانٌ طويل على اللُّغَة كان الاعتماد في بيان المعنى فيها على القرينة وحدها، وذلك قبل أن يكون في اللُّغَة ترتيب معلوم أو إعراب بياني، فكانوا يقدمون أو يؤخرون، وكانوا يرفعون أو ينصبون أو يخفضون أو يجزمون أو يبنون كما يجيء معهم اتفاقًا لغير قصد. وإذ كان اعتمادهم في هذا الدور على القرينة وحدها فلا بد أنه كانت هناك قرائن كثيرة تختلف وضوحًا أو خفاءً يستدلون بها على المعنى، ولاعتيادهم الاعتماد على القرينة فلا بد أنهم كانوا يتنبهون لأدق القرائن وأخفاها، ومع ذلك فإن التفاهم كان صعبًا لما يقع فيه من اللبس أو الغموض أحيانًا، أو أن مواضيع الكلام كانت بسيطة يُدرَك المعنى منها بأقل لمحة، من تلك القرائن طبقة الصوت وهيئة إطلاقه بين أن يكون لينًا أو خشنًا، عاليًا أو سافلًا مما هو بالصوت الموسيقي أشبه منه بالصوت المنطقي كما قال اليازجي، ولا تزال آثار ذلك في اللُّغَة إلى اليوم كاختلاف اللهجة في الاستفهام أو التعجب عنها في الخبر؛ بل لولا اختلاف اللهجة لأصبح كثير من الكلام لغوًا. نكرر الألفاظ للتأكيد، مثل: «جاء الأميرُ الأمير»، ولكنْ إذا لم نرفع الصوت قليلًا في اللفظة الثانية فلا تأكيد فيها ولو كررناها عشر مرات، نتبع اللفظة بأخرى لبيانها، مثل: «جاء أخوك زيد»، لكن إذا لم تكن الثانية أعلى نغمة من الأولى فلا تفيد بيانًا. نستعمل «إن» للتأكيد ولكن إذا لم نجعل النبرة شديدة على النون فلا تفيد تأكيدًا، إلى غير ذلك مما لا يتسع المجال للإفاضة فيه؛ بل إن

اللهجة قد تقلب المعنى إلى ضده، يقال إنه حُكِمَ مَرَّةً على رجلٍ أنْ يقف أمام الناس ويقول «أيها الناس أنا لص»، فلما وقف قال «أيها الناس أنا لص؟» بلهجة استفهام، فانقلب المعنى من إقرار إلى إنكار.

ومن القرائن الإشارات وحركات الوجه، يقال إن بعض زنوج أفريقيا إذا غابت الشمس سكنت جلبتهم؛ لأنهم لا يستطيعون أن يتفاهموا بالكلام وحده، وبسبب ظلمة الليل لا يستطيعون أن يستعينوا بالإشارات وحركات الوجه؛ بل إنك اليوم لا تجد أحدًا يتكلم بدون أن يستعين بالإشارات وحركات الوجه على تقوية معناه أو إيضاحه أو استدعاء الانتباه إليه، مما يدل على أن اللغات على ارتقائها واتساعها لا تزال ناقصة، وأنها دون التصوير والموسيقى، فإن المصوِّرَ قد يصوِّرُ بريشته ما تعجز أرقى اللغات عن الغناء فيه، والموسيقي قد يترجم بنغماته عمَّا لا يؤديه كلامٌ، هذا على ارتقاء اللغات في هذا العصر فكيف يوم كانت في أول عهدها. من هذا تعلم أن ألفاظ اللُّغَة ليست هي اللُّغَة كلها؛ بل هي جزء منها تتممه الإشاراتُ وحركاتُ الوجهِ وطبقةُ الصوتِ وقرائنُ أخرى، وهذا سرُّ أن التشبيه أبلغ من الحقيقة. إذا أردت أن تصور شخصًا غريبًا لغيرك فمهما دققت في وصف تقاطيعه وأعضائه وبيان لونه وطوله وعرضه فإنك لا تستطيع أن تعطي الصورة الحقيقية عنه، ولكن يكفي أن تذكر شخصًا يعرفه ثم تقول إنه يشبهه شبهًا تامًّا، فإنه يستطيع حينئذٍ أن يتصور ذلك الشخص في ذهنه، فلو كانت اللُّغَة كافية لما كانت هناك حاجة إلى التشبيه.

ومَن تدبر اللُّغَة العربية وجد فيها شيئًا كثيرًا من لغة الإشارات

وحـركات الوجـه ولونـه؛ مثـل قولهـم في الخـوف: «امتقـع لـونُ فـلان، واقشـعر جلـدُه، واصطكـت ركبتـاه، وارتعـدت فرائِصُـه، وأرعشـت مفاصِلُـه»، ومثـل قولهـم في الغضـب: «قطـب وجهـه، وزوى مـا بـين عينيـه، وانتفخـت أوداجُـه، وتزبـد فُـوهُ، واحمـرت عينـاه»، إلى غـير ذلـك مـما يصـور المعنـى تصويـرًا، ولا شـك أن هـذا مـن آثـار ذلـك العهـد الـذي كانـت فيـه حـركات الوجـه والإشـارات قرائـن عـلى المعنـى، وهـو أيضًـا سرٌّ أن الخطابـة والإنشـاد والتمثيـل والغنـاء أوقـع في النفـس مـن القـراءة الفكريـة.

الترتيب

مـرَّ عـلى اللُّغَـة زمـانٌ طويـلٌ والترتيـب فيهـا مشـوش لغـير سـبب؛ اعتـمادًا عـلى القرائـن التـي تقـدم ذكرهـا، ولا يـزال في اللُّغَـة آثـار هـذا التشـويش؛ إذ لا نـزال نقـدم تـارة الموصـوفَ عـلى الصفـةِ؛ فنقـول: «ليـس في المسـألة أمـرٌ كبـير»، وتـارة الصفـةَ عـلى الموصـوفِ؛ فنقـول: «ليـس في المسـألة كبـير أمـر.» ثـم دخلـت اللُّغَـة في دورٍ ثـانٍ لـزم الترتيـب فيـه صـورة معلومـة؛ كذكـر الفاعـل قبـل المفعـول، وذكـر المسـند إليـه قبـل المسـند لاعتبـارات خصوصيـة عندهـم ليـس هـذا محـل بسـطها، ولا نـزال نراعـي هـذا الترتيـب إذا لم تكـن هنـاك قرينـة معنويـة أو قرينـة إعرابيـة. وبعـد أن تولَّـدَ الإعـرابُ في اللُّغَـة دخلنـا في دور ثالـث تحررنـا فيـه مـن قيـود الترتيـب وعدنـا إلى التشـويش، والفـرق بـين هـذا الـدور والـدور الأول أن التشـويش كان في الـدور الأول اعتباطيًّـا فصـار في الـدور الثالـث لأغـراض بيانيـة مقصـودة، وهـذا أرقـى مـا وصلـت إليـه اللغـات في البيـان حتـى الآن، وقـد سـاعدنا عـلى ذلـك أمـران: القرينـة والإعـراب، ولـولا الإعـراب للـزم الترتيـب صـورة

معلومة لا يتعداها على ما نراه في اللغات الأخرى، فإن الفاعل في اللُّغَة الإنكليزية مثلًا لا يجيء إلا قبل المفعول به سواء دلت عليه القرينة أم لا؛ بسبب أنها ليست لغة إعرابية، وكما نراه في اللُّغَة العربية نفسها إذا كانت الكلمات لا تقبل إعرابًا أو لم تكن هناك قرينة معنوية، فإننا نلزم الترتيب فنذكر الفاعل قبل المفعول به، مثل: «سبق أخي غلامي»، ونذكر المسند إليه قبل المسند إذا استويا في التعريف والتنكير ولم تكن هناك قرينة للتمييز بينهما، مثل: «أخي رفيقي» و«أفضل منك أفضل مني.» فالأدوار التي مرَّت على الترتيب ثلاثة: الأول؛ الدور المشوش لغير قصد اعتمادًا على القرينة، والثاني؛ الدور المرتب لاعتبارات خصوصية، والثالث؛ الدور المشوش لأغراض بيانية اعتمادًا على الإعراب والقرينة.

الإعراب

مَن تتبع الدرجات التي مرَّت عليها اللغاتُ في انتقالها من الدور التقليدي إلى الدور النطقي — أي من تقليد الأصوات تقليدًا بسيطًا إلى ألفاظ مستقلة يدل بها على المعاني دلالةً صمَّاء لا تظهر فيها صبغة التقليد كما قال المرحوم جورجي زيدان — يَرَ أن الإعراب هو آخر ما وصلت إليه اللغاتُ حتى الآن، فهو عنوان رقيها، وهذا يَحتمل كلامًا طويلًا ليس من غرضنا في هذه العجالة التعرض له، وإنما غرضنا هنا هو أن نشير إلى الأدوار التي مرَّت على الإعراب إلى أن وصل إلى حالته الحاضرة، ثم نتبع ذلك بكلمةٍ في الإعراب نفسه نجعلها خاتمةَ هذا البحث.

كان الإعـراب في دوره الأول مشوشًـا، فكانـوا يرفعـون أو ينصبـون أو يخفضون أو يجزمـون اعتباطًـا لغـير قصـد بيـاني؛ اعتـمادًا عـلى القرينـة والترتيـب، ولعـل الغـرض مـن الإعـراب في هـذا الـدور كان تزيـين الـكلام وزخرفتـه، فقولـك: «جـاء الضـاربُ» بضـم البـاء آنَـقُ مـن قولـك: «جـاء الضـارب» بإسـكانها، ولعلهـم اسـتعملوه في أول الأمـر في الشـعر لمـا يتوخونـه فيـه مـن الزخرفـة والتأنـق، وَلَـمَّا ألفـوه اسـتعملوه في النـثر أيضًـا.

ومَـن تدبـر الشـعرَ في اللُّغَـة المحكيـة ليومنـا هـذا رأى أنهـم قـد يحركـون مـن أواخـر الكلـم فيـه مـا لا يحركونـه في كلامهـم العـادي، وتلـك حالـة في اللُّغَـة — أي الإعـراب المشـوش بـدون ضابـط — لا بـد أن يَئُـول أمرهـا إمـا إلى الإلغـاء بتاتًـا، وإمـا إلى الدخـول في دور ثـانٍ يسـتخدم فيـه الإعـراب لغـرضٍ آخـر لا لمجـرد الزينـة أو الـضرورة الشـعرية، والواقـع أن الإلغـاء ابتـدأ في اللُّغَـة — ولكـن في الوقـف — ولـولا القليـل لسـقط في كل المواطـن، والواقـع أن اللُّغَـة دخلـت في دور ثـانٍ اسـتُخدم فيـه الإعـراب لبيـان وظيفـة الكلمـة في الجملـة، ولكـن وقفـت اللُّغَـة في أول هـذا الـدور قبـل أن ينضـج الإعـراب ويتـم إحكامـه في كل مواطنـه كـما سـترى، ففـي دوره الأول كان شـيئًا خارجًـا عـن اللغـة، فـإذا ألغـي لم تتأثـر؛ لأن الاعتـماد في بيـان المعنـى كان عـلى القرينـة والترتيـب؛ ولذلـك نرجـح أن إلغـاءه في الوقـف ابتـدأ في هـذا الـدور.

وأمـا في دوره الثـاني — وهـو الـدور الـذي تشـوش فيـه الترتيـب لأغـراض بيانيـة نـص النحـاة والبيانيـون عـلى مواطنهـا — فقـد صـار مـن مقومـات اللُّغَـة وخصائصهـا؛ لأن هنـاك مواطـن كثـيرة في الـكلام لا دليـل عـلى المعنـى

فيها غير الإعراب، فإذا ألغي رجعت اللُّغَة إلى اللبس والغموض، فأنت ترى أن الإعراب قد ساعد العرب على أن يستفيدوا من الترتيب المشوش في الدلالة على معانٍ تعجز اللغات الأخرى عن أدائها، إلا أن اللُّغَة وقفت قبل أن يتم نضجه، أي وصل إلينا وفيه آثار التشويش، وهذا التشويش نوعان: نوع استعمل قديمًا ثم أهمل، ومَن تفقَّدَ كُتب النحو وقع على شيء كثير من هذا، فقد أجازوا نصب الاسم عند أمن اللبس، نحو: «خرق الثوب المسمار» و«كسر الزجاج الحجر» بنصب المسمار والحجر، ومنه قول الشاعر:

مثل القنافذ هداجون قد بلغت

نجران أو بلغت سوءاتهم هجر

برفع «نجران وهجر» ونصب «سوءات»، وقاسه ابن الطراورة عملًا بقراءة: فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ بنصب «آدم» ورفع «كلمات»، ومنه أن بعض العرب كان ينصب بأن أو إحدى أخواتها المبتدأ والخبر، نحو:

إذا اسود جنح الليل فلتأت ولتكن

خطاك خفافًا إن حراسنا أسدا

ونحو قوله:

كأن أذنيه إذا تشوفا

قادمة أو قلمًا محرفا

وقولـه: «يـا ليـت أيـام الصبـا رواجعًـا»، ونحـو قولهـم: «لعـل أبـاك قادمًـا»، ومثلـه جـزم الفعـل بعـد «لـن» مـع أنهـا مـن النواصـب، كقـول الشـاعر:

لـن يخب الآن من رجائك من

حـرك من دون بابك الحلقه

ومثلـه جـزم الفعل بأن الناصبة، نحو قوله:

إذا مـا غدونا قال ولدان أهلنا

تعالـوا إلى أن يأتنا الصيد نحطب

ومثلـه إهمال «لم» الجازمة، نحو قوله:

لـولا الفوارس من نعم وأسرتهم

يـوم الصليفاء لم يوفون بالجار

وقوله:

وتضحك مني شيخة عبشمية

كأن لم ترى قبلي أسيرًا يمانيَا

وقال ابن مالك: إنها لغة، وزعم اللحياني أن بعض العرب ينصب بها كقراءة بعضهم: أَلَمْ نَشْرَحْ بفتح الحاء.

وقوله:

في أي يومي من الموت أفر

أيوم لم يقدر أو يوم قدر

بفتح الراء في «يقدر»، ومثله إهمال «لا» الناهية، نحو:

لا تهين الفقير علك أن

تركع يومًا والدهر قد رفعه

وإن أَوَّلَها النحاة بتقدير نون التوكيد الخفيفة، ومثله إعمال «إذا» الشرطية في الشعر وإهمالها في النثر، ومثله جزم الفعل المرفوع في قوله:

أبيت أسري وتبيتي تدلكي

وجهك بالعنبر والمسك الذكي

ومثله قوله:

يـا لك من قنبرة بمعمر

خـلا لك الجو فبيضي واصفري

قـد رفع الفخ فماذا تحذري

ومثله قوله:

فاليوم أشرب غير مسـتحقب

إثمًـا من الله ولا واغل

بإسـكان البـاء في «أشرب» إلى غـير ذلـك ... ومنـه نـوع لا يـزال مسـتعملًا في اللُّغَـة إلى اليـوم، وإليـك البيـان: يقـول النحـاةُ: إن المُسـنَد إليـه والمُسـنَد يُرفعـان؛ لأنهـما عُمـدة، ولكننـا نراهـم ينصبـون الأول بعـد «إن» أو إحـدى أخواتهـا، وينصبـون الثـاني بعـد «كان» أو إحـدى أخواتهـا، فلـماذا نُصبـا إذا كانـا عُمـدة؟ لا شـك أن ذلـك أثـرٌ مـن آثـارِ التشـويش في الإعـراب. ومثلـه بنـاء «أي» عـلى الضـمِّ في مثـل قولهـم: «سـلم عـلى أيهـم أفضـل»، وبنـاء الظـروف المنقطعـة عـن الإضافـة في مثـل قولهـم: «الحمـد للـه مـن قبـل ومـن بعـد»، ومثـل بنـاء بعـض الألفـاظ المبنيـة. فـإذا كانـت اللُّغَـة إعرابيـة فـما معنـى بنـاء بعـض ألفاظهـا؟ ومثـل إعـمال «مـا» عـلى لغـة أهـل الحجاز وإهمالهـا عـلى لغـة أهـل تميـم؛ بـل إعمالهـا عـلى لغـة أهـل الحجـاز بـشرط أن تكـون متصلـة ولم ينتقـض نفـي خبرهـا بـإلا، نحـو: «مـا زيـد شـاعرًا»، وإهمالهـا إذا لم تكـن كذلـك، نحـو: «مـا قائـم زيـد»، و«مـا غلامـك عمـرو

ضارب»، و«ما زيد إلا شاعر»، و«ما إن عمرو كريم»، بخلاف «ليس» في ذلك كله مع أنها نافية مثلها، ومثل نصب جمع المؤنث السالم بالكسر، ومثل إعراب الفعل المضارع — ولا سيما في حالتي الرفع والنصب — فقد حار النحاةُ في سبب إعرابه، وغير ذلك مما ليس من غرضنا تعداده وإحصاؤه. وهذا النوع الثاني من التشويش أصبح قياسيًّا في اللغة، وأكبر لذة في درس اللغات تكون في هذا المزيج من المعقول وغير المعقول، والقياسي والشاذ، وقد قال أحدُ علماءِ اللُّغَة: إن اللُّغَة مثل صديقٍ هفواته تعززه لدينا وتزيدنا حبًّا له.

تكلمنا عن الأدوار التي تدرج فيها الإعراب، وبقيت لنا كلمة في الإعراب نفسه، هل دلالة العلامات الإعرابية كالضَّمَّةِ والفتحةِ والكسرةِ والسكونِ على الحالات الإعرابية كالفاعليةِ والمفعوليةِ والإضافيةِ والطلبيةِ اعتباطية أو وضعية؟ أي هل رفع الفاعل ونصب المفعول وخفض المضاف إليه وسكن الفعل الطلبي اتفاقًا، أو هل هناك أسباب طبيعية لذلك؟

هذا بحثٌ دقيق يحتمل كلامًا طويلًا نوافق في بعضه النحاة فنثني عليهم، ونخالفهم في البعض الآخر فنستميحهم العفو.

يقول النحاةُ: إن علاماتِ الإعراب حركاتٌ وحروف، وهم يعتبرون الألف والواو والياء حروفًا، والصحيح أن الألف حركة طويلة بالنسبة إلى الفتحة مثل الألف في «كتاب»، وممدودة مثل الألف في «سماء» و«مادة» فهي حركة لا حرف. وأما الواو والياء؛ فقد تكونان حركتين

طويلتين بالنسبة إلى الضمة والكسرة، مثل: الواو والياء في «عود» و«عيد»، وحركتين ممدودتين مثل الواو في «وضوء» والياء في «مسيء»، وقد تكونان حرفين مثل الواو في «ثوب» والياء في «بيت»، فهما من الأشكال المشتركة بين الحروف والحركات، وهما تستعملان كعلامتي إعراب تارة باعتبار أنهما حركتان، وتارة باعتبار أنهما حرفان، وعلى ذلك فالأسماء الخمسة من المعربات بالحركات لا بالحروف، وجمع المذكر السالم والمثنى من المعربات بالحركات إلا جمع المذكر السالم من المنقوص، فإنه يعرب بالحروف، نحو: «جاء المصطفَون»، و«رأيت المصطفَين»، و«مررت بالمصطفَين»، وإلا المثنى في حالتي النصب والخفض، نحو: «رأيت الرجلين»، و«مررت بالرجلين»، وعليه فجمع المذكر السالم والمثنى من المعربات بالحركات والحروف معًا لا بالحروف وحدها كما يقول النحاة، ومما يعرب بالحروف — غير المثنى وجمع المذكر السالم المنقوص — الأفعال الخمسة من الفعل المضارع؛ فإثبات النون فيها يدل على حالة، وحذفها يدل على حالة أخرى. ولا يعرب بالحركات القصيرة — أي الضمة والفتحة والكسرة — من الأسماء غير الاسم المفرد وجمع التكسير وجمع المؤنث السالم، ويستثنى من ذلك الأسماء الخمسة في حالة الإضافة إلى غير ياء المتكلم؛ فإنها تعرب بالحركات الطويلة بدلًا من الحركات القصيرة؛ ولعل السبب في ذلك أن اللُّغَة العربية القديمة كانت تعرب بالواو والألف والياء، مثل: اللُّغَة النبطية، ثم استبدلت الحركات الطويلة بحركات قصيرة للتخفيف في كل الأسماء إلا في الأسماء الخمسة فكان ذلك فيها أثرًا باقيًا من ذلك العهد.

وأما الفعل فلا نتعرض له الآن بل نترك الكلام عنه إلى محاضرة أخرى. إذا عرفنا علامات الإعراب يبقى علينا أن نعرف صفة كل منها، فالضمُّ سواء كان بالضمةِ أم بالواوِ أقوى الحركاتِ وأفخمها، والفتحُ سواء كان بالفتحةِ أم بالألفِ أخفُّ الحركاتِ لسهولة إخراج الصوت والفم مفتوح، والخفض سواء كان بالكسرةِ أم بالياءِ أثقل الحركات؛ لما يقع من التعاند بين إخراج الصوت وخفضه، وقد تنبَّه النحاةُ إلى شيء مثل هذا في مواضع مختلفة. واللغات التي يكثر فيها الضمُّ تكون فخمة جزلة، والتي يكثر فيها الفتح تكون خفيفة رشيقة، والتي يكثر فيها الخفض تكون ثقيلة مستبشعة ولا تناسب الغناء؛ لأن رفع الصوت مع الضمِّ أو الفتح أسهل منه مع الخفض، ويكثر هذا الصوت في لغةٍ دون ذاك لأسباب عديدة أهمها الإقليم، فالذين يَسكنون الأماكن الباردة يميلون في ألفاظهم إلى الضمِّ والخفض، وبعبارة أخرى لا يفتحون أفواههم خوف البرد، والذين يسكنون الأماكن الحارة يميلون في ألفاظهم إلى الفتح استبرادًا، ولما كان العرب سكان قفر حارٍّ يعيشون في الهواء الطلق كَثُرَ الفتحُ في لغتهم سواء كان حركة بنائية أم حركة إعرابية، وفي كل ذلك كلام لا يتسع له المقام. وأما إذا كانت علاماتُ الإعراب بالحروف، فالواو في جمع الذكور السالم من المنقوص، والألف في المثنى أفخم من الياء فيهما، فعلامات الإعراب في الاسم تُقَسَّمُ بحسبِ ما تقدم إلى ثلاثة أقسامٍ: قوية، وخفيفة، وثقيلة.

لنأتِ الآن إلى البحث في الحالات الإعرابية، يقول النحاةُ: إن حالات الاسم الإعرابية ثلاث: رفع، ونصب، وخفض؛ لأن الاسم لا يخلو أن يكون

— على رأيهم — إما عُمدة، وإما فضلة، وإما مشتركًا بينهما، فحالة العمدة الرفع، وحالة الفضلة النصب، وحالة المشترك بينهما الخفض. وما هي العمدة؟ قالوا: هي ما لا ينعقد الكلام بدونه؛ كالفاعل في نحو: قام زيدٌ. وما هي الفضلة؟ قالوا: هي ما زاد عن القدر المطلوب لانعقاد الكلام؛ كالمفعول به في نحو: ضرب زيدٌ عمرًا، وإن لم يكن فضلة في المعنى لاحتياج العبارة إليه في إتمام المراد منها. وما هو المشترك بينهما؟ قالوا: هو ما يكون تارة مكملًا للعُمدة، نحو: جاء غلامُ زيدٍ، وتارة مكملًا للفضلة، نحو: رأيتُ غلامَ زيدٍ، ويقع تارة في موضع العُمدة، نحو: سرَّني قدومُ زيدٍ، وتارة في موضع الفضلة، نحو: هذا ضاربُ زيدٍ، وقد ألحقوا من العُمد بالفضلات المنصوب في باب النواسخ، وبالمضاف إليه المجرور بالحرف، هذا ما يقوله النحاةُ. ولكن إذا كانت العُمدة ما لا ينعقد الكلام بدونه؛ فكل جزءٍ من الكلام عُمدة لا يستغنى عنه، سواء في ذلك الأسماء والأفعال والحروف، وسواء كان الاسم فاعلًا أم مفعولًا به، أم مضافًا إليه، أم ظرفًا، أم حالًا، أم غير ذلك؛ لاحتياج العبارة إلى كل جزء من أجزائها في إتمام المراد منها، وإذا كانت الفضلة ما زاد عن القدر المطلوب لانعقاد الكلام فأحرى بذلك الزائد أن يصبح لَغْوًا يجب حذفه لاستغناء العبارة عنه، وإذا كان المشترك بينهما ما كان مكملًا للعُمدة أو للفضلة فهل التكميل حالة إعرابية؟ وإذ كان حالة إعرابية، أَمَا كان يجبُ أن تكون للاسم المكمل للعُمدةِ علامةٌ خصوصيةٌ غير علامتِهِ إذا كان مكملًا للفضلة ليتميز الواحد عن الآخر؟! ثم إذا كان يقع تارة في موضع العُمدة وتارة

في موضع الفضلة، فلماذا لا يكون عُمدةً في الأول وفضلةً في الثاني؟! وهنا ليسمحْ لنا النحاةُ أن نبدي رأيًا آخر.

الاسم في الجملة قد يكون عُمدة؛ ليس لأنه لا ينعقد الكلامُ بدونه؛ بل لأحد سببين آخرين: إما لأهميته، نحو: «الولد مجتهد»، الأول مُسنَد إليه والثاني مُسنَد، وكلاهما عُمدة لا يستغني الواحد عن الآخر؛ إذ لا يكون مُسنَد إليه بدون مُسنَدٍ، ولا مُسنَد بدون مُسنَد إليه ولو تقديرًا، وإما لقوته بالنسبة إلى غيره في الجملة، نحو: «ضرب زيدٌ عمرًا»، لزيدٍ وظيفتان: عمل الفعل والدلالة عليه، ولعمرو وظيفتان: قبول أثر الفعل والدلالة عليه؛ فلأنهما يشتركان في الدلالة على الفعل لخروجه من الأول ووقوعه على الثاني، فهما مهمان لا يستغني الواحدُ عن الآخر؛ إذ لا يكون ضاربٌ بدون مضروبٍ، ولكن لأن الأول عمل الفعل فهو قوي؛ ولأن الثاني وقع عليه الفعل فهو ضعيف، فهما يتساويان في الأهمية ولو لم يكن غير هذا الاعتبار لكان كلاهما عُمدة، ولكن لأنهما يختلفان في القوة والضعف وَجَبَ أنْ يُنظر إليهما باعتبار هذا الاختلاف؛ فالقوي منهما نعتبره عُمدة لقوته وليس لأهميته، وإذا حذف الضاربُ وبقي المضروبُ لم يبق دليلٌ آخر على وقوع الفعل غيره، ولأنه الدليل الوحيد فإنه يكتسب أهمية فينظر إليه باعتبارها ونعده عُمدة، ويسقط عنه اعتبار الضعف؛ لأننا إنما نظرنا إليه باعتبار الضعف لوجود قويٍّ بإزائه، فإذا ذهب القويُّ لم تبقَ حاجة إلى هذا الاعتبار، وسُمي نائبُ فاعلٍ لأنه ناب عنه في الدلالة على الفعل وليس في عمله. وقد يكون فضلة إما لضعفه بالنسبة إلى غيره كـ «عمرًا» في

قولنا: «ضرب زيدٌ عمرًا» وإن كان مثل «زيد» في الأهمية كما قدمنا، وإما لكثرة دورانه في الكلام كالحال، نحو: «جاء زيدٌ راكبًا»، والظرف نحو: «جاء زيدٌ صباحًا»، وغير ذلك من المنصوبات، فإذا كان الاسم عُمدة أخذ العلامة القوية الإعرابية للتناسب بين أهمية الكلمة في الجملة أو قوتها وبين قوة العلامةِ الإعرابية، وإذا كان فضلة اختاروا له العلامةَ الخفيفة، ولعلهم راعوا في ذلك الخفة لكثرة دورانِ الفضلةِ في الكلام.

وأمَّا ما يُسمى في اصطلاحِ النحاةِ مُشتَرَكًا بينهما فاختاروا له العلامةَ الثقيلة؛ لِقلة دورانه على اللسان. والذي يلوح لنا أنه لم يكن للاسم في الأصل إلا حالتان: عُمدة وفضلة، أو رفع ونصب، وأن الحالة الثالثة — أي حالة الخفض — طارئة على اللغة، أو أنها ثقيلٌ مستبشعٌ، يرفع الاسم لأنه مهم أو قوي، وينصب لأنه ضعيف أو كثير الدوران على اللسان، وأما خفضه فلماذا؟!

ولنا على ذلك أدلة كثيرة:

(١)أن الفعل المضارع — الذي يشبه الاسم في الإعراب — يُرفع ويُنصب ويُجزم ولكنه لا يُخفض.

(٢)أن أكثر الأسماء ليس لها إلا علامتان إعرابيتان: الأولى الرفع والثانية النصب والخفض معًا؛ كجمع المذكر السالم، فتقول: «جاء المعلمون» و«رأيت المعلمِين» و«مررت بالمعلمِين»؛ وكالمثنى، فتقول: «جاء المعلمان» و«رأيت المعلمَين» و«مررت بالمعلمَين»؛ وكالممنوع من

الصرف، فتقول: «جاء إبرهيمُ» و«رأيت إبرهيمَ» و«مررت بإبرهيمَ»؛ وكجمع المؤنث السالم، نحو: «جاءت المؤمناتُ» و«رأيت المؤمناتِ» و«مررت بالمؤمناتِ»، فلو كان هناك فرقٌ بين النصبِ والخفضِ في الاعتبار لوجب أن يكون لكل منهما علامة خصوصية تُميز الواحد عن الآخر في هذه الأنواع من الاسم، وهي كثيرة.

(٣)أن الظروف التي تُجرُّ بحرف «في» يجوز أن يسقط حرفها فترجع إلى النصبِ، فتقول: «جئت في الصباح» و«جئت صباحًا»، فلو كان الخفض لِبيان حالةٍ إعرابيةٍ لَخُفض الظرفُ بحرفِ جرٍّ وبدونه.

(٤)أنَّ كثيرًا من الأفعال المتعدية بواسطة حرف خفضٍ قد تتعدى بنزع الخافض فيُنصب الاسمُ المخفوض بذلك الحرف على المفعولية الصريحة؛ لأن الفعل حينئذٍ قد وصل إليه بنفسه، ومنه قول الشاعر:

تمرون الديار ولم تعوجوا

كلامكم عليَّ إذن حرام

أي: تمرون على الديار، فحذف الحرف ونصب المخفوض به، ولا فرق بين نصب الاسم أو خفضه، وإذا لم يرد نزع الخافض في بعض الأفعال، مثل: «بصرتُ بزيدٍ» فقد يستبدل الفعل بآخر يتعدى رأسًا، نحو: «أبصرتُ زيدًا، أو نظرته أو رأيته»، فلو كانت الرؤية لا تتم إلا بالخفض لوجب أن يُستعمل حرف الجرِّ مع كلِّ الأفعال التي تدل على الرؤية.

(٥)المفعول لأجله المخفوض بحرف التعليل، نحو: «هربت للخوف أو من الخوف» يجوز فيه إسقاط حرف الخفض، وحينئذٍ يعود إلى النصبِ، فلو كان للخفض معنًى إعرابيٌّ للزم المفعول لأجله الخفضُ سواء جُرَّ بحرفٍ أم لا.

(٦)مُمَيَّزُ «كم» الاستفهامية يجوز فيه النصبُ على الأصل، والجرُّ بحرفِ «مِن»، نحو: «كم كتابًا قرأت؟» و«كم من كتابٍ قرأت؟» ومُمَيَّزُ «كم» الخبرية يخفض على الأصل وينصب إذا فصل بينهما، نحو: «كم صديق لي!» و«كم لي صديقًا!» فالخفض والنصب متعاقبان هنا.

(٧)أنَّ بعضَ الظروفِ تلزم البناء على الفتحِ ولو تقدمها حرفُ خفضٍ، نحو: مِن الآن، ومِن أين، ولا شك أن ذلك أثر من آثار النصب حين لم يكن الخفض مستعملًا.

(٨)أنَّ قسمًا مما يُعتبر اليوم حرف جر كان في أصله فعلًا، مثل: «على»، فإنها مأخوذة من «علا، يعلو»، وكذلك «خلا، وعدا، وحاشا»، وهذه الثلاثة الأخيرة لا تزال إلى اليوم تنصب وتخفض.

(٩)ضمائرُ النصبِ والجرِّ واحدةٌ، إلا للشخصِ المتكلم المفرد، فتقول: كتابك، ورأيتك، وكتابه، ورأيته.

الخلاصة أن الاسم لا يكون إلا عُمدة أو فضلة، فالعُمدة أخذت الرفع لأنه أقوى الحالات أو أشرفها كما يقول النحاةُ، والفضلة كانت تُنصب

ثـم طـرأ عـلى بعضهـا الخفـض، أو كانـت تُنصـب وتُخفـض عـلى السـواء ثـم مالـت اللُّغَـة إلى النصـبِ، ولـولا القليـل لـزال الخفـضُ كـما زال مـن الفعـل المضـارع، واللـه أعلـم.

الأفعـال في اللُّغَة العربية

مَـن قابـل كُتـبَ الـصرفِ والنحـوِ في اللُّغَـة العربيـةِ — عـلى كثرتهـا بـين قديمـةٍ وحديثـةٍ — بمثلهـا في اللُّغـات الإفرنجيـة يجـد هنـاك فروقًـا كثـيرة، أهمهـا أن الإفرنـج قـد طبقـوا أحـكام لُغاتِهـم وقواعدهـا عـلى مـا وصلـوا إليـه مـن الحقائـق في علـم اللُّغَـةِ أو فلسـفتِها، وهـو العِلْـمُ الـذي يبحـث عـن تاريـخ الألفـاظ وتنوعهـا ودلالتهـا مـع مـا طـرأ عليهـا مـن التغـير كـما قـال المرحـوم جرجـي زيـدان في كتابـه «فلسـفةُ اللُّغـةِ»، بحيـث صـارت أحـكامُ لُغاتهـم وقواعدهـا لا صناعـة فقـط كـما هـي عندنـا بـل عِلـمًا أيضًـا، ولهـم في ذلـك غرضـان: الأول؛ تسـهيل تلـك الأحـكام عـلى الطالـب وتقريـب مَنالِهـا منـه؛ لأن الأحـكامَ المعقولـةَ أسـهلُ فهـمًا وأقـرب تنـاولًا مِـن الأحـكامِ غـير المعقولـةِ. الثـاني؛ جعـلُ الفائـدةِ مِـن تِلـكَ الأحـكامِ أتَـمَّ.

***

لِـكلِّ موضـوعٍ مـن موضوعـات التعليـم؛ كالقـراءة، والكتابـة، والحسـاب، والـصرف، والنحـو، وغـير ذلـك فائدتـان: الأولى؛ ذاتيـة، أي: يتعلمـه الطالـب لأنـه سـيحتاج إليـه في الحيـاة. والثانيـة؛ عرضيـة، أي أن درس ذلـك الموضـوع يسـاعد عـلى توسـيع إدراك الطالـب وترويـض قـواه العقليـة، وتعويـده التفكـير والملاحظـة والاسـتنتاج، ولا تتـم هاتـان الفائدتـان إلا إذا كانـت حقائـق كل موضـوع معقولـة صحيحـة تُربـط فيهـا الأسـباب بنتائجهـا ويُرجـع في النتائـج إلى أسـبابها مـما خلـت منـه كُتبُنـا الصرفيـةِ والنحويـةِ، بـلى قـد حـاول الصرفيـون والنحويـون أن يُعللـوا أحكامَهـم ويربطوهـا

بأسبابها، إلا أن أكثر الأسبابِ التي ذكروها واهيةٌ حتى ضُرِبَ المثلُ بضعفِ حُجَّةِ النحويِّ، والطالبُ الذي يتعلم على هذا الأسلوب السطحي الشاق، ويقتنع بتلك الأسباب والعلل الواهية، ويتعود أن يتلقاها بدون نكير ولا تفكير، تُظلم مع الأيام بصيرتُهُ، ويأفن رأيُه، وتضعف فيه أداةُ الحُكمِ بحيث يسهل استدراجه إلى تصديق كل خرافةٍ واعتقاد كل سخافة، فضلًا عمَّا يستغرقه الدرسُ على ذلك الأسلوب من الوقت الطويل عبثًا، فما أجرأنا والحالة هذه أن نتدارك الأمر فنجري على الطريقة الإفرنجية في بِناءِ أحكامِ لُغتِنا وقواعِدِهَا على مبادئ عِلميةٍ جديدةٍ؛ تسهيلًا على الطالب واقتصادًا في وقته وترويضًا لعقله، وهذا ما أحاول بسطه لديكم راجيًا أن تغتفروا خروجي عن المألوف المتعارف، وسأقتصرُ على الكلامِ عن الفعل في اللُّغَة العربية؛ لأن البحث في الفعل أهمُّ الأبحاثِ الصرفيةِ في كلِّ لُغةٍ.

***

تعرفون أن الفعلَ لا يمكن أن يحدث من تلقاء نفسه؛ بل لا بد له من فاعلٍ يفعله، فالجلوس لا بُدَّ له مِن جَالسٍ، والخروج لا بُدَّ له من خَارجٍ، وكذلك لا بُدَّ له من وقتٍ، فإذا وجد الفاعل ولم يكن وقت، أو وجد الوقت ولم يكن فاعل فلا يقع فعل. فإذا أردنا تصريف الفعل احتجنا إلى ثلاثةِ أشياءَ: صيغةٌ للفعلِ، وعلامةٌ للفاعِلِ، وعلامةٌ للزمانِ.

الصِّيغةُ

صِيغةُ الفعلِ مأخوذةٌ مِن المصدرِ، ومعنى ذلك أن العربَ كانوا يُصرفون المصدرَ مع الضمائر، ولا تزال آثار ذلك في اللُّغَة إلى اليوم؛ إذ لا نزال نستعمل المصدرَ أمرًا فنقول: صبرًا، مهلًا، رفقًا، ولم يكن في الأصلِ فرقٌ بين صِوَرِ المصدرِ وصِيغِ الفِعلِ، ولا تزال بعضُ الأفعالِ تُشبه المصدر، مثل: «طلب، والطلب» من الصحيح و«جر والجر» من المضاعف. وكانت صِوَرُ المصدرِ قليلةٌ على عد صيغ الفعل، فكان المصدرُ من الصحيح يجيء على وزن «طرق» بإسكان الأول والآخر؛ لأن أول ما وُضِعَ مِن أسماءِ الأحداثِ كان البعضُ مِنه مَحكيًّا عن الأصواتِ المسموعةِ من الحيوانِ أو الجمادِ، فإذا حاكينا الأصوات الخارجية في ذي ثلاثة أحرفٍ جِئنا به ساكن الأول والآخر. ولا يزال المصدرُ في السريانية كذلك على حكايته الأصلية، ثم حركنا الحرف الأول فيه في الماضي تفاديًا من خشيبة اللفظ وتعسر الابتداء بالساكن كما قال جبرُ ضومط في كتابه «خواطر في اللُّغةِ». وكانت حركته الفتح؛ لأن الفتحَ أخفُّ الحركاتِ، ورددناه إلى السكونِ في المضارع على ما كان عليه في الأصلِ؛ لانتفاء الابتداء بالساكن لوقوع حرفِ المضارعةِ قَبله. وكان المصدرُ من الناقص على وزن «رمى»، وأصل حِكايته من بابِ حكايةِ الصحيحِ، أي: الأصل فيه أن يكون ساكن الأول كما هو في اللُّغَة السريانية.

وكان المصدرُ من المضاعفِ على وزن «جر»، وهو إما أن تقصد به حِكاية الصوت، نحو: «فَحَّتِ الأفعى» و«أنَّ المريضُ» و«خرَّ الماءُ» و«شَقَّ الثوبَ» و«جَرَّ الحبلَ» و«مَصَّ الشرابَ» و«شمَّ الطِّيبَ»، وإما

أن تراعى فيه حِكاية الحركةِ، مثل: «هَبَّ النائمُ» و«حَلَّ العُقدةَ» و«شَبَّتِ النارُ»، أو حِكاية صفةِ الشيءِ بما توهم في مقاطِعِ الحروفِ من الصِّفاتِ وما في اقترانها من الهيئاتِ، نحو: «رَثَّ الثوبُ» و«كَلَّ السيفُ» و«خفَّ الحِمْلُ» و«جَفَّ الغُصْنُ»، ومِن ذلك في لُغةِ الأطفالِ «دح» للشيءِ الحسن، و«كخ» للشيءِ القبيحِ؛ لما توهَّمُوا في اقتران الدَّالِ والحَاءِ مِن الحُسن واقتران الكَافِ والخَاءِ مِن القُبْحِ.

وكان المصدرُ من الأجوف على وزن «قام» وأكثر ما يُقصد به حِكاية الحركةِ؛ نحو: «سَالَ الماءُ» و«ذَابَ الجَامِدُ» و«مَاعَ السَّائِلُ» و«فَاحَ الطِّيبُ» و«حَامَ الطَّائِرُ» و«غَاصَ الحُوتُ» لِما بين المدِّ فِيه وحركةِ المَحكِي مِن المطابقة.

وعلى ذلك فصورُ المصدرِ الأصلية أربع على عددِ صِيغ الفعلِ، ثم مع كرورِ الزمانِ وتلاعبِ اللسانِ خرج المصدرُ عن الحِكايةِ الأصليةِ وتفرع إلى صِوَرٍ عديدةٍ كثيرةِ الأشكالِ مختلفةِ الحركاتِ بين مشبعةٍ وقصيرةٍ، مثل: كِتابة، ورجوع، وعلانية، وندامة، وعِرفان، وجولان، ورحيل، وقيام ... إلى نحو اثنين وأربعين شكلًا كما هو مذكور في كُتبِ الصَّرفِ المطولة؛ ولذلك تكون «الكتابة» مثلًا صورة جديدة عن «كَتَبَ»، و«الجلوس» صورة جديدة عن «جَلَسَ».

ويظهر أن هذا التفرع نشأ بعد أن تولدت في اللُّغَة صيغُ الفعلِ، وإلا فكان يجب أن تكون صيغُ الفعلِ على قَدْرِ صيغِ المصدرِ الجديدةِ. وقد لَزِمَنا في التصريفِ حِكايةُ المصدرِ الأصليةِ لِخِفَّتِها وحُسن وَقْعِهَا؛

لأننا لو صرفنا أشكالَ المصدرِ على اختلافِ صورها وكثرة مقاطعها مع الضمائر لجاءت ثقيلة طويلة. إذن ليست صيغ الفعل إلا صور المصدر القديمة. وإذا قلنا إن المصدرَ هو أصلُ الفعلِ عنينا بذلك صوره القديمة لا صوره الجديدة التي تفرعت عنها، وهذه الصور القديمة لا تزال محفوظة في صيغ الفعل كما تحفظ «الأحافير» في طبقاتِ الأرضِ مِمَّا قد يُوهم أن الفعلَ هو الأصل وأن المصدرَ هو الفرع.

الفَاعِلُ

المهم في بيان الفاعلِ معرفةُ جِنْسِه؛ أي: هل هو مذكرٌ أم مؤنثٌ؟ وعوده؛ أي: هل هو مفردٌ أم مثنى أم جمع؟ وشخصه؛ أي: هل هو متكلمٌ أم مخاطب أم غائب؟ وقد استعملنا الضميرَ المتصل لبيان ذلك في الماضي والمضارع والأمر، فمن أين أتينا بهذه الضمائر؟! لم يكن في الأصل إلا ضمائر منفصلة كما نرى في اللُّغات الإفرنجية، ولا بُدَّ أنه مرَّ زمانٌ طويلٌ على العربِ كانوا يستعملون فيه الضمائرَ المنفصلة في التصريف، فكانوا يقولون في تصريف الماضي: «ضرب هو»، «ضرب هما»، «ضرب هم»، «ضرب هي»، «ضرب هما»، «ضرب هن» ... إلخ، وفي تصريف المضارع: «هو ضرب»، «وأنا ضرب»، و«نحن ضرب»، و«أنت ضرب» ... إلخ، وفي تصريف الأمر: «اضرب أنت»، «اضرب أنتما»، «اضرب أنتم» ... إلخ، ثم مع كرورِ الزمانِ وتلاعبِ اللسانِ نحتنا منها الضمائر المتصلة، وسنعود إلى هذا البحث عند كلامِنا عن صيغِ الفعلِ الماضي والمضارعِ والأمر.

الزَّمَانُ

الزَّمَانُ ثلاثةُ أنواعٍ: ماض، وحاضر، ومستقبل، وفي اللُّغَة العربيةِ ثلاث صيغ للفعل: صيغةُ الماضي: وهي موضوعة للماضي، وصيغة المضارع: وهي مشتركة بين الحال والاستقبال، وصيغة الأمر: وهي مختصة بالاستقبال، فما هي علامة الزَّمانِ في هذه كانوا يستعملون فيه الصيغةَ الواحدةَ بدلًا من الأخرى أحيانًا، ونرى مثل ذلك في اللُّغَة العربية، فإنهم مع وجود صِيغِ الماضي والمضارعِ والأمرِ في لُغَتِهم قد يستعملون الصيغة الواحدة بدلًا من الأخرى، فهم يقولون مثلًا: «اذهب» و«قلت لهذا الشعب» كما هو وارد في الماضي للحاضر، نحو:

فلِلهِ يَوْمٌ أنت فيه مسلم

وهبت له جرم الزمانِ الذي خلا

أي: أهب؛ ونحو كما «يقول الشاعر» أي: كما قال، وك «بعتك الدار» في الإنشاء الإيقاعي، أي: أبيعك. وقد نستعمل الماضي للمستقبل في الإنشاء الطلبي، نحو: «رحمك الله»، أي: يرحمك، وفي الشرط، نحو: «إن قمتَ قمتُ»، أي: إن تقم أقم، ونستعمل المضارعَ للماضي مع «لم» في النفي المنقطع، نحو: «لم أذهب» ومع «لما» في النفي المتصل بالحاضر، نحو: «جئت ولما تطلع الشمس»، وللمستقبل القريب مع السين في حالة الإثبات، نحو: «سأذهب»، ومع «لا» في حالة النفي، نحو: «لا أذهب»، وللمستقبل البعيد مع «سوف» في حالة الإثبات، نحو: «سوف أذهب»، ومع «لن» في حالة النفي، نحو: «لن أذهب».

ونستعمل الماضي والمضارع للأزمنة كلها؛ نحو: إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ أي: مَن يُؤمِن دائمًا، وَاللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ أي: يُحيي ويُميت دائمًا، إلا أن استعمالَ الصيغةِ الواحدةِ لغير الزَّمانِ الموضوعة له محصورٌ في مَواطن مخصوصة لا يتعداها، فصار استعمالها كذلك قياسًا، وفيما عدا ذلك لا يجوز استعمال الصيغة الواحدة إلا فيما وضعت له، فكيف تدل الصيغة على الزَّمانِ؟ إذا اعتبرنا الضمائر المتصلة علامات للفاعل فليس هناك إلا صيغة الفعل وعلامة للفاعل، وأما الزَّمان فليس له علامة.

وقد اختلف الصرفيون في دلالةِ الفعلِ على الزَّمان؛ فمنهم من قال إن الفعلَ يدل على الحدث والزَّمان معًا بالمطابقة؛ كدلالةِ الإنسانِ على الحيوانِ الناطق، فإنَّه تمام المعنى الموضوع له اللفظ، وهذا مذهبُ الجمهورِ، وقال آخرون؛ كالسيد: إنَّ دلالةَ الفعلِ على الحدث والزَّمان تضمن كدلالةِ الإنسانِ على الحيوانِ فقط أو الناطقِ فقط لِدخولِ الجزءِ ضِمن المعنى الموضوع له اللفظ، وقد اختار ذلكَ الصَّبَّانُ، وقال الشاطبيُّ: إنَّ الفِعلَ يدلُ على الحدثِ بالمادة، وعلى الزَّمانِ بالصيغةِ، نحو: «ضرب» فالضاد والراء والباء تدل على الحدثِ في المصدرِ، والفِعلُ واسمُ الفاعِلِ وسائر المشتقاتِ من هذه المادة، وبناؤها على وزن «فَعَلَ» يدل على الزَّمان؛ بل قالوا إن الفِعلَ يدل على الفاعل والمكان التزامًا كدلالةِ الإنسانِ على الضاحك، فالضاحك خارج عن الإنسان ليس كلًّا له ولا بعضًا منه، ولكنه لازم للمعنى الموضوع له اللفظ، هذا ما يقوله الصرفيون، ولكن إذا كان الفِعلُ يدلُ على الحدث والزَّمان

بالمطابقة أو التضمن، وعلى الفاعِلِ والمكان بالالتزام كما يقولون، فلماذا لا يكون للمصدر وسائر المشتقات كل هذه الدلالات؟ على حين نرى أن البصريين جَرَّدوا المصدرَ مِن الدلالةِ على غير الحدثِ في احتجاجهم على الكوفيين؛ إذ قالوا إن مدلولَ المصدرِ واحدٌ وهو الحدث، ومدلول الفعل متعدد؛ لأنه يدل على الحدث والزَّمان بالمطابقةِ وعلى الفاعل والمكان بالالتزام، والواحد قبل المتعدد، وإذا كانت الصيغة تدل على الزَّمان كما قال الشاطبيُّ، فكيف نعرف الزَّمان إذا تساوت صورة الماضي والمضارع، مثل: «مسَّ يَمِسُّ»، و«خَافَ يَخَافُ»، لا بُدَّ إذن أن تكون هناك قرينة أخرى على الزَّمان، كان يجب أن تكون علامة خصوصية للزمان كما أن هناك علامة خصوصية للفاعل على ما نرى في بعض الأفعال في اللُّغَة الإنكليزية، مثل: he-wolk-ed فلفظة he علامة للفاعل، ولفظة wolk صيغة الفعل، ولفظة ed علامة للزمان، ولكنَّ العرب استخدموا علامة الفاعل للدلالة على الفاعل بلفظها، وعلى الزَّمان بموضعها، فإذا أرادوا الماضي وضعوا علامة الفاعل في الآخر.

فكانت صيغة الماضي، نحو: ضَربتُ وضَربْنا، وإذا أرادوا الحاضر وضعوا علامة الفاعل في الأولُ نحو: أضرِبُ ونضرِبُ، وإذا أرادوا المستقبل استخدموا صورة الحاضر مع قرائن أخرى كالسين وسوف وغيرهما، كما يفعل الأخرس؛ فإنه إذا أراد الإشارة إلى فِعلٍ فَعَلَهُ في الزَّمان الماضي فإنه يشير أولًا إلى الفِعلِ ثم إلى نفسه، وإذا أراد الإشارة إلى فِعلٍ يفعله في الحاضر أو المستقبل أشار أولًا إلى نفسه ثم إلى الفِعل. فالزَّمان إذن ليس له علامة خاصة به كالفاعِل ولكن له موضعًا، وعلامةُ الفاعِلِ

تُستخدم لأمرين: للدلالة على الفاعِلِ بلفظها، وعلى الزَّمان بموضعها. ولنشرع الآن في الكلام على كلِّ صِيغة بمفردها.

المَاضِي

يَتميَّز المَاضي عن المضارعِ والأمرِ في الأصل بوضع علامةِ الفاعلِ في آخره، وسترى أن علاماتِ الفاعِلِ في آخِر المضارعِ والأمرِ ليست أصلية فيهما أولًا، وهي غير علاماتِ الفاعِلِ في آخر الماضي ثانيًا. وقد قلنا إن الضمائر المتصلة منحوتة من الضمائر المنفصلة، وإليك تصريف «ضَرَبَ» مثلًا مع الضمائر:

هُوَ ضَرَبَ ـَ

هُمَا ضَرَبَ ا.

هُمْ ضَرَبَ و.

هِيَ ضَرَبَ ت.

هُمَا ضَرَبَ تا.

هنَّ ضَرَب ن ... إلخ.

فالفتحة في «هُوَ ضَرَبَ» مأخوذة من «هُوَ»، والألف من «هُمَا» والواو من «هُمُو» التي لا نزال نستعملها أحيانًا في الشعر؛ مثل قولِه: «هُمُو رحلوا عنا لأمر لهم عنا»، والتاء في «هِي ضَرَبَتْ» أصلها هاء، أي إن العرب مرَّ عليهم زمانٌ طويلٌ كانوا يقولون في: «هِي ضَرَبَتْ»: «هِي

ضَرَبَـه»، ثـم قلبـوا الهـاء تـاء؛ لأن الهـاء خفيـة، فصـاروا تـارة يقولـون: «هِـي ضَرَبَـه» وتـارة: «هِـي ضَرَبَـتْ»، ثـم اسـتقرت عـلى التـاء. ولا تـزال اللُّغَـة العبريـة تسـتعمل تـارة الهـاء وتـارة التـاء، وقلـب الهـاء تـاء مألـوفٌ في اللُّغَـة العربيـة؛ فـإن الهـاء في نحـو «المدرسـة» إذا تحركـت تحولـت تـاءً، وإذا وقـف عليهـا تحولـت هـاءً، و«تـا» في: «هُـمَا ضَرَبَتَـا» مأخوذتـان مـن «هُـمَا» بعـد حـذف الميـم وقلـب الهـاء تـاءً، والنـون في «هـنَّ ضَرَبْـنَ» مأخـوذة مـن «هُـنَّ»، والتـاء مـن «ضَرَبـت» مأخـوذة مـن «أَنْـت»، و«تُمَـا» مـن «ضَرَبْتُـما» مأخـوذة مـن «أَنْتُـمَا»، و«تُـمْ» مـن «ضَرَبْتُـمْ» مأخـوذة مـن «أنتـمْ»، والتـاء في «ضَرَبـت» مأخـوذة مـن «أَنْـت»، و«تُمَـا» في «ضَرَبْتُـمَا» مأخـوذة مـن «أَنْتُـمَا»، و«تُـنَّ» في «ضَرَبْـتُنَّ» مأخـوذة مـن «أَنْـتُنَّ»، و«نَـا» في «ضَرَبْنَـا» مأخـوذة مـن «نَحْـنُ»، وأمـا التـاء في «أَنَـا ضَرَبْـتُ» فإنهـا ترجـع إلى أصـلٍ قديـمٍ لا محـل لبيانـه هنـا، فالفتحـة في «هُـوَ ضَرَبَ» ليسـت حركـة بِنائيـة، والتـاء في «هِـي ضَرَبَـتْ» ليسـت علامـة للتأنيـث كـما تَوهَّـم الصرفيـون، وإنمـا هـما ضمـيران، وعليـه يكـون الضمـيران في «هُـوَ ضَرَبَ» و«هِـي ضَرَبَـتْ» ظاهريـن لا مسـتترين. وكان هـذا النحـت في الضمائـر؛ لأنهـا طويلـة، بعضهـا مـن مقطعـين وبعضهـا مـن ثلاثـة، بخـلاف الضمائـر في اللُّغـات الإفرنجيـة، فإنهـا قصـيرة، فليـس في اسـتعمالها مـع الفِعْـلِ ثِقَـلٌ عـلى اللسـانِ ولا طـول ... بقـي هنـاك كلامٌ كثـيرٌ عـن تصريـف المـاضي مـع الضمائـر أضربنـا عنـه خـوف الإطالـة.

المُضَارِعُ

أهـمُّ صيـغِ الأفعـالِ في اللُّغَـة العربيـة صِيغـةُ الفِعْـلِ المضـارعِ؛ لأنـه يسـتعمل للحـالِ المثبـت والمنفـي، والاسـتقبال المثبـت والمنفـي، والقريـب والبعيـد، وقـد يسـتعمل خـبرًا وطلبًـا، نهيًـا وأمـرًا، ويسـتعمل للـماضي المنفـي المنقطـع عـن الحـاضر بـ «لم»، والمنفـي المتصـل بالحـاضر بـ «لمـا»، فلـو دَلَّ عـلى المـاضي المثبـت لأغنـى عـن صيغتـي المـاضي والأمـر، وصيغـة المضـارع هـي صيغـة المـاضي؛ فهـي مأخـوذةٌ مـن المصـدرِ مثلـه، فـكان يجـب ألَّا يكـون اختـلافٌ في الصيغـةِ بـين المـاضي والمضـارع، لكـن مـع كـرور الزمـانِ وتلاعـبِ اللسـانِ، وقـع الاختـلافُ في الصيغتـين في أفعـالٍ كثـيرة، فكانـت أبـوابُ الفِعْـلِ الصحيـح سِـتَّة، وهـي:

ضَرَبَ يَضْرِبُ.

نَصَرَ يَنْصُرُ.

عَلِمَ يَعْلَمُ ... إلخ.

ويدلـك عـلى أن تلاعـب اللسـان هـو سـببُ هـذا الاختـلاف أنَّ الأبـوابَ الثلاثـةَ الأولى أكـثر اسـتعمالًا، وقـد وقـع هـذا الاختـلافُ في عـين الفِعْـلِ لأنهـا متحركـة في أصـل وضعهـا، فهـي عُرضـة لتلاعـب اللسـان، فجـاءت تـارة مفتوحـة وتـارة مكسـورة وتـارة مضمومـة، ثـم قـد تتفـق عـينُ المـاضي وقـد تختلـف، أمـا اتفاقهـا فـلأن الصيغتـين مـن أصـلٍ واحـد، وأمـا اختلافهـا فـلا سَـبَبَ لـه غـير تلاعـب اللسـان، ويدلـك عـلى ذلـك أن الفعـلَ الواحـد

قد يجيء على بابين أو أكثر من هذه الأبواب، فلو كان هناك سببٌ طبيعي، أو قصدٌ اعتباري، لما جاز ذلك؛ بل إذا أخذنا فعلًا من الأفعال الثلاثية ولم نكن نعرف أصله فلا نستطيع أن نحكم أنه من هذا الباب أو ذاك؛ إذ ليس لدينا قياس نعتمد عليه، وهذه حالة في اللُّغَةِ لا تنطبق على مذهب النشوء والارتقاء، أي لو بقيت اللُّغَةُ مُطْلَقةٌ لصار لكلِّ بابٍ من هذه الأبوابِ معنى خاص لا تجيء عليه إلا أفعال خاصة كما وقع ذلك في البعض من هذه الأبواب قبل عهد التدوين، فإن الأفعال التي تدل على عيب في الخلقة لا تجيء إلا من باب «عَلِمَ يَعْلَم» مثل: «خَرِسَ يَخْرَس» و«طَرِشَ يَطْرَش»، وإن كان غيرها يجيء عليه أيضًا وعلى غيره، والأفعال التي تدل على الغرائز يجيء أكثرها على باب «كَرُمَ يَكْرُمُ»، مثل: «شَرُفَ يَشْرُفُ» و«حَسُنَ يَحْسُنُ»، والأفعال التي عينها أو لامها حرف حلق يجيء أكثرها على وزن «فَعَلَ يَفْعَلُ» بفتح العين في الماضي والمضارع لسهولة لفظ الحرف الحلقي مع الفتح، وباب «حَسِبَ يَحْسِبُ» أغلب ما يجيء عليه الأفعال المبدوءة بواو، مثل: «وَرِثَ يَرِثُ» و«وَلِيَ يَلِي» ...

فأنت ترى أن الأفعال الثلاثية في اللُّغَة العربية مرَّت على دورين ووقفت عند الدور الثالث. أما الدور الأول فهو الذي كانت فيه صيغتا الماضي والمضارع متشابهتين، وأما الدور الثاني فهو الدور الذي وقع فيه الاختلاف بينهما، وأما الدور الثالث فهو أن يختص كل باب بمعنى أو معنيين أو أكثر، ولكن جاء التدوين فوقف في وجه الدور الثالث، وإن كانت قد ظهرت طلائعه حينئذٍ كما تقدم.

وتتميز صيغةُ المضارع عن صيغةِ الماضي بموضع علامة الفاعل؛ فإن كانت في آخر الفِعْلِ فالفِعْلُ ماضٍ، وإن كانت في أوله فالفِعْلُ مضارعٌ، ولا نستطيع أن نعتمد في التمييز بينهما على ما وقع في الصيغتين من الاختلاف؛ لأنهما قد تتشابهان كما تقدم.

***

العلامات التي نضعها في أول المضارع أربع، فكيف تكفي لأربعة عشر شخصًا، كان يجب أن يكون لكل شخص علامة خاصة تميزه عن غيره كما رأينا في الماضي، وربما كان الفعل المضارع لأول عهده يصرف بالعلامات الأربع، وهي: الهمزة والنون والتاء والياء. أما الهمزة فمأخوذة من «أنا»، وأما النون فمن «نحن»، وأما التاء فمن «أنت»، أو الهاء من «هي» بعد أن قلبت تاءً، وأما الياء فمأخوذة من الهاء في «هو» بعد أن مرَّت على أدوار مختلفة مجهولة. ولما وقع الاشتراك بين عِدة أشخاصٍ في الياء؛ لأنه يشترك فيها أربعة أشخاص، وفي التاء؛ لأنه يشترك فيها ثمانية، لم يكن بُدٌّ من مُمَيِّزٍ آخر؛ لئلا يقع الالتباس، فوضعوا هذه المميزات في آخره، فجعلوا للمثنى ألفًا ونونًا، ولجمع المذكر العاقل واوًا ونونًا، ولجمع المؤنث نونًا، وللمخاطبة ياءً ونونًا، وكلها مأخوذة من أصول قديمة للضمائر المنفصلة لا تزال محفوظة في اللغتين العبرية والسريانية.

***

عرفنا أن علامة الفاعل تستعمل لغرضين: للفَاعِلِ والزَّمانِ، والمقصود من

بيـان الفاعـل معرفـة جنسـه وشـخصه وعـدده؛ فـإذا كان المضـارع بعلامـة واحـدة، مثـل: اذهـب، ونذهـب، ويذهـب، وتذهـب، فـكلُّ علامـةٍ تـدلُّ عـلى أربعـةِ أشـياءَ: الزَّمـان، وجِنـس الفاعِـل، وعـدده، وشـخصه؛ مثـل: اليـاء في «يذهـب»، والتـاء في «تذهـب»، فاليـاء تـدل عـلى أن الزَّمـان حـاضر، وأن الفاعِـل مُذَكَّـر، وأنـه مفـرد، وأنـه غائـب. والتـاء في «أنـتَ تذْهَـب» تـدل عـلى أن الزمـان حـاضر، وأن الفاعـل مُذَكَّـر، وأنـه مفـرد، وأنـه مُخَاطَـب. إلا الهمـزة والنـون فإنهـما تـدلان عـلى أن الزمـان حـاضر، وعـلى عـددِ الفَاعِـل وشَـخْصِهِ، ولا تـدلان عـلى جنسـه؛ لأنهـما تُسـتعملان للمذكـر والمؤنـث عـلى السـواء.

وإذا كان المضـارع بعلامتـين في أولـه وآخـره فـما ينقـص في الأولى تُكملـه الثانيـةُ، وعليـه فالياء في «هُـوَ يَذْهَـبُ» و«هُـمَا يَذْهَبَـان» و«هُـنَّ يَذْهَـبن» ليسـت متسـاوية في الدلالـة، فاليـاء في «يَذْهَـبُ» تـدل عـلى أربعـة أشـياء: عـلى الزَّمـانِ، وجِنـسِ الفَاعِـل، وعـدَدِهِ، وشَـخْصِهِ. وفي «يَذْهَبَـان» تـدلُ عـلى الزَّمـان، وجِنـسِ الفَاعِـل، وشَـخْصِهِ، ولكنهـا لا تـدل عـلى عـدَدِهِ؛ لأنهـا موضوعـة للمفـرد، وهـي هنـا للمثنـى، والياء في «يذهـبن» تـدل عـلى شيء واحـد وهـو الزَّمـان، ولا تـدل عـلى جنـس الفاعـل؛ لأنهـا موضوعـة للمذكـر، وهـي هنـا للمؤنـث، ولا تـدل عـلى عـدده؛ لأنهـا موضوعـة للمفـرد، وهـي هنـا للجمـع، ولا تـدل عـلى شـخصه؛ لأنهـا موضوعـة للغائـب، وهـي هنـا للغائبـات، فأغنـت عنهـا في ذلـك كلـه النـون في الآخـر. وأمـا النـون في «أنـتن تذهـبن» فـلا تـدل عـلى مـا تـدل عليـه النـون في «هـن يذهـبن»؛ لأن التـاء في «أنـتن تذهـبن» تـدل عـلى أن جنـس الفاعـل مؤنـث؛ لأن التـاء تسـتعمل

للمذكـر والمؤنـث، وأن شـخصه مخاطبـه؛ لأن التـاء تسـتعمل للمخاطـب والمخاطبـة، فـلا يبقـى إلا العـدد فتـدل عليـه النـون، فالنـون في «هـن يذهـبن» تـدل عـلى جنـس الفاعـل وعـدده وشـخصه، والنـون في «أنـتن تذهـبن» لا تـدل إلا عـلى العـدد. ومـع وجـود العلامتـين في أول المضـارع وآخـره فـإن بعـض صـوره تتشـابه، مثـل: «أنتـما تضربـان» للمخاطبَـيْن، و«أنتـما تضربـان» للمخاطبتـين، و«هـما تضربـان» للغائبتـين؛ لذلـك لا بـد مـن الاعتـماد عـلى القرينـة في التمييـز بـين الصـورة الواحـدة والأخـرى.

***

وعلامـة الفاعـل في أول المضـارع كانـت في الأصـل تحـرك بالفتـح، أو الكـسر، أو الضـم، بـدون ضابـط. ثـم اسـتقرت عـلى الفتـح؛ لأنـه أخـف الحـركات، وإنمـا تُضـم في الأفعـال الرباعيـة؛ لتتميـز عـن الفعـل الثـلاثي، ولا يقـع التبـاس في مضـارع الثـلاثي والرباعـي إلا في وزن «أفعـل»، فـإن مضـارع «رجـع» «يرجِـع»، ومضـارع «أرجـعَ» «يُرجـع»، ولـولا ضمـة اليـاء في مضـارع «أرجـعَ» لالتبـس بمضـارع «رجـع»، ثـم ضمـت مـع بقيـة الأفعـال الرباعيـة طـردًا للبـاب.

وقـد ورد في بعـض لغـات العـرب كـسر حـرف المضارعـة في بـاب «علـم» ومـا افتتـح بهمـزة الوصـل، وعليـه يـروى قـول الراجـز:

قُلْتُ لِبَوَّابٍ لَدَيْهِ دارُها

تِئْـذَنْ فإني حَمَهَا وجارُها

وقـرئ يَـوْمَ تَبْيَـضُّ وُجُـوهٌ وَتَسْـوَدُّ وُجُـوهٌ، وَإِيَّـاكَ نَسْـتَعِينُ بكـسر حـرف المضارعـة في الجميـع، ولا يـزال حـرف المضارعـة يُكـسر في «إِخَـال» عـلى لغـة طَيِّـئ.

***

ويُقسَّـمُ الفِعْـلُ المضـارع باعتبـار آخـره إلى ثلاثـةِ أقسـام: الأفعـال الأربعـة: وهـي الأفعـال المجـردة عـن علامـة في الآخـر؛ وهـي «يفعـل، وتفعـل، وأفعـل، ونفعـل»، والأفعـال الخمسـة: وهـي الأفعـال التـي تلحقهـا الألـف والـواو واليـاء مـع نـون الإعـراب؛ وهـي: «يفعـلان، تفعـلان، يفعلـون، تفعلـون، تفعلـين»، والفعـلان وهـما اللـذان تلحقهـما نـون الإنـاث، وهـما: «يفعلـن، وتفعلـن»، وكلهـا معربـة إلا الفعلـين، وقـد اختلـف في أسـباب إعرابهـا مـما لا حاجـة إلى ذكـره، والحقيقـة أن الإعـراب لم يقـع في الفعـل المضـارع إلا عـن تلاعـب اللسـان، فـكان العـرب يرفعونـه وينصبونـه ويجزمونـه اتفاقًـا، ثـم جعلـوا يرفعونـه في مواضـع مخصوصـة، وينصبونـه أو يجزمونـه في مواضـع أخـرى، والفـرق بينـه وبـين الاسـم في الإعـراب أن الاسـم يخفـض وأمـا الفعـل فيجـزم، فلـماذا جُـزم بـدلًا مـن الخفـض؟! جُـزم بقصـد التأكيـد، ولذلـك جُـزم في الطلـب، نحـو: «ليذهـب، ولا تذهـب»؛ لأن الجـزم أنسـب للطلـب وأدل عـلى التأكيـد، وإنمـا جـزم في النفـي بـ«لم» و«لمـا» مـع أنـه غـير طلبـي فلتأكيـد النفـي، فـ «لم يـضرب» أدل عـلى التأكيـد مـن «مـا ضرب»؛ ولذلـك سُـمي السـكون في «ليذهـب» و«لا تذهـب» و«لم يذهـب» جزمًـا أي قطعًـا، فالسـكون عـلى الطـاء في «أطلـب» سـكون، وعـلى البـاء سـكون وجـزم، وبعبـارة أخـرى إن السـكون لفظـي — أي إبطـال الحركـة —

والجـزم معنـوي أي تأكيـد، ثـم إن الجـزم قـد يكـون بغـير سـكون كالجـزم في الأفعـال الخمسـة والأفعـال الناقصـة؛ لأن حـذف النـون مـن الأفعـال الخمسـة واسـتبدال الحركـة الطويلـة بحركـة قصـيرة في الأفعـال الناقصـة، تقصـير للكلمـة، والتقصـير يناسـب الجـزم والتأكيـد، ومـن هنـا يظهـر أن للجـزم سـببًا معقـولًا لا نجـده في الرفـع أو النصـب، واللـه أعلـم.

الأمْر

لم يكـن في اللُّغَـةِ العربيـةِ صِيغـةٌ خاصـةٌ للأمـرِ؛ بـل كنـا نسـتعمل المصـدر للأمـر، كـما لا نـزال نسـتعمله إلى الآن، مثـل: صـبرًا، رفقًـا ... والمصـدر المسـتعمل أمـرًا لا يـصرف مـع الضمائـر؛ بـل يسـتعمل للجميـع عـلى السـواء؛ لأن الفاعِـلَ يُعـرف مـن توجيـه الـكلامِ إلى المُخَاطَـب. ثـم مـع الزَّمـان تَولَّـدَتْ في اللُّغَـةِ العربيـةِ صيغـةٌ للأمـرِ، وهـي مأخـوذة مـن المضـارع. فلـماذا أخذنـا صيغـة الأمـر مـن المضـارع ولم نأخذهـا مـن المـاضي؟ لذلـك سـببان: الأول؛ أن صيغـة المضـارع مشـتركة بـين الحـال والاسـتقبال، وأمـا صيغـة المـاضي فموضوعـة للـماضي؛ ولأن الأمـرَ لا يـدل إلا عـلى الاسـتقبال، كانـت صيغـة المضـارع أنسـب لـه. الثـاني؛ للمضـارع ثـلاث حـالات إعرابيـة: «رفـع، ونصـب، وجـزم»؛ ولأن الجـزم أنسـب للأمـر أخذنـا لـه المضـارع المجـزوم، وعـلى ذلـك يكـون الأمـر مُعْرَبًـا لا مبنيًّـا، وليـس لـه إلا حالـة واحـدة وهـي الجـزم عـلى رأي الكوفيـين، وليـس جزمـه بنـاءً كـما يقـول جمهـور الصرفيـين.

ولم يكـن للأمـر في أصـل اسـتعماله علامـة للفاعـل، فـكان يُعـرف الفاعـل مـن القرينـة، وهـي توجيـه الـكلام إلى المُخاطَـب، فـإذا قُلـت لشـخصٍ واقـف

أمامي «اذهب» عُرِفَ الفاعلُ بدون علامة خاصة له؛ لأن المقصود من العلامة بيان الفاعل، فإذا كان الفاعل معروفًا من توجيه الكلام استغنينا عنها. وكما استغنينا عن علامة للفاعل استغنينا عن علامة للزَّمان؛ لأن هناك قرينة تدل عليه، وهي الطلب؛ إذ العمل الذي نطلبه لا يكون إلا في المستقبل بعد الطلب، إذن فالفاعل في الأمر يُعرف من قرينة توجيه الكلام إلى المخاطب، والزَّمان يُعرف من قرينة الطلب، فلما أخذنا صيغة المضارع المجزوم حذفنا العلامة من أوله لاستغنائنا عنها، ثم لما تولدت هذه الصيغة في اللغة، وكان العرب يميلون إلى الدقة في البيان أضافوا إلى الأمر علامات للمثنى، ولجمع المذكر العاقل، ولجمع المؤنث، وللمخاطبة، وإن كانت هناك قرينة معنوية تغني عن هذه العلامات كما تقدم. وتركوا الأمر للمخاطب بدون علامة لفظية؛ اكتفاءً بالقرينة حسب الأصل. وقد اختصت صيغة الأمر بالشخص المخاطب في حالة الإثبات، ولكن إذا أردنا توجيه الأمر إلى غير المخاطب استعملنا صيغة المضارع المجزوم مع اللام للأمر المثبت، وإن جاز استعمال هذه الصيغة للمخاطب وغيره، ومع لا الناهية للأمر المنفي، فقلنا: «ليذهب» و«لا يذهب». وقد امتاز الأمر بأنواع كثيرة أجعل الكلامَ عنها خاتمة هذا البحث:

(١)الأمر بالصيغة، نحو: «قُمْ، اذْهَبْ، اشْرَبْ».

(٢)الأمر باللام، نحو: «لِيَقُمْ، لِيَذْهَبْ، لِيَشْرَبْ».

(٣)الأمـر بـ «لا الناهيـة»، نحـو: «لا تَقُـمْ، لا تَذْهَـبْ، لا تَـشْرَبْ»، ويُقـال لـه نهـي.

(٤)الأمـر بالمصدر، نحو: «رفْقًا، صبرًا، مهلًا».

(٥)الأمـر المركب، نحو: «تعـال نذهب، قُمْ ننطلق، قِفَا نبكِ».

يقـول النحويـون: إنَّ المضـارعَ جُـزِمَ في هـذه الجملِ عـلى تقديـر شرط، أي: «إنْ تَجِـئ نذهـب، إنْ تَقـمْ ننطلـق، إنْ تقفـا نَبْـكِ» عـلى أن هـذه الجمـل لا يصـح فيهـا الـشرط؛ لأن الـشرط يقتـضي أن يكـون الثـاني نتيجـة عـن الأول، وهنـا لا يصـح هـذا التقديـر؛ لأن الذهـاب ليـس نتيجـة المجـيء؛ ولأن الانطـلاق ليـس نتيجـة القيـام؛ ولأن البـكاء ليـس نتيجـة الوقـوف. وإنمـا يصـح تقديـر الـشرط في مثـل: «ادرس تحفـظ»، «اجتهـد تنجـح»؛ فـإن الحفـظ نتيجـة الـدرس، والنجـاح نتيجـة الاجتهـاد، فالفـرق واضـح بـين التمثيلـين ... ولم نجـد في كتـب النحـو تنبيهًـا عـلى ذلـك، وإنمـا جُـزِمَ المضـارعُ في: «تعـال نذهـب» و«قـم ننطلـق» و«قفـا نبـك» وأمثالهـا لأنـه بمعنـى الأمـر؛ بدليـل أنـك تسـتطيع أن تسـتبدله بأمـر فتقـول: «لنذهـب، لننطلـق، لِنَبْـكِ»، والجـزم أنسـب للأمـر؛ لذلـك يجـب أن يجـزم المضـارع في مثـل قـول الشـاعر:

تعالـوا بنا نطوِ الحديث الذي جرى

أي: «لنطوِ»، وإن ورد هذا البيت في ديوان الشـاعر بصورة الرفع.

(٦)اسـم فعـل: مرتجـلًا كـ «صـه» أي: «اسـكت»، أو منقـولًا عـن مصـدر كـ

«رويـد» أي: «أمهـل»، أو عـن ظـرف كـ «دونـك» أي: «خـذ»، أو حـرف جـر نحـو: «عليـك» أي: «الـزم».

(٧)اسـم فعـل عـلى وزن «فعـال» بكـسر الـلام، كـ «نـزال» أي: «انـزل»، و«حـذار» أي: «احـذر» للواحـد والمثنـى والجمـع والمذكـر والمؤنـث، أي بـدون علامـة للفاعـل حسـب الأصـل كـما تقـدم. وهـو يبنـى مـن كل فعـل ثـلاثي تـام متـصرف، وشـذَّ مـن مزيـد الثـلاثي كـ «دراك» معـدولًا عـن «أدرك»، و«بـدار» معـدولًا عـن «بـادر»، وأشـذ منـه الرباعـي، نحـو: «قالـت لـه ريـح الصبـا قرقـار» أي: قالـت ريـح الصبـا للسـحاب قرقـر بالرعـد، أي: صـب مـا عنـدك مـن المـاء مقرونًـا بصـوت الرعـد.

(٨)التحضيـض، وهـو الطلـب العنيـف، نحـو: «هـلا تسـتغفر اللـه» و«ألا تسـتغفر اللـه» بالتشـديد، و«لـولا تقـري الضيـف»، و«لـو مـا تجيـب الداعـي».

(٩)العـرض، وهـو الطلـب اللـيِّن، وأداتـه «ألا» المخففـة، نحـو: «﴿أَلَا تُحِبُّـونَ أَن يَغْفِـرَ اللـهُ لَكُـمْ﴾» و«لـو» نحـو: «لـو تنـزل عندنـا».

(١٠)الأمـر بالهمـزة، نحـو: «أتـأكل» أي: «كُلْ» ... وقـد جـاء المضـارع في التحضيـض والعـرض والأمـر بالهمـزة مرفوعًـا مـع أنـه كان يجـب أن يكـون مجزومًـا قياسًـا عـلى كـون الجـزم أنسـب للأمـر، ولعـل ذلـك لأن الجـزم — أي التأكيـد — تـدل عليـه الأداة، فلـم تبـق حاجـة لجزمـه، واللـه أعلـم.

الحروف الهجائية

لا أتعرض هنا للكلام عن أساليب تعليم الحروف الهجائية؛ فإني سأتكلم عنها في كتاب «أساليب التعليم» الذي سيظهر بعد حين، وسيكون الكتاب الأول من كتب القراءة التي أشتغل بوضعها الآن مبنيًّا على أحدث تلك الأساليب ... ولا للكلام عن مخارج هذه الحروف وقسمتها إلى طوائف كالحروف المهموسة، والمجهورة، والشديدة، والرخوة، والمتوسطة، والمطبقة، والمنفتحة، والمستعلية، والمستفلة أو المنخفضة، وغير ذلك مما تكفَّل به علمُ الصرف والتجويد، ولا غنى لمن يتولون تدريس اللُّغَةِ العربية في الفصول الابتدائية عن معرفته ومراعاته إقامة للفظ على الوجه الصحيح ... ولا للكلام عن صور هذه الحروف وكيفية تركيبها خطًّا، مما وفاه حقه كثيرون، منهم: «القلقشندي» في كتابه «صبح الأعشى»، ولا غنى لأساتذة الخط ولمن يضعون كتبًا للقراءة عن الاستبصار به، ولكنني سأقتصر على ثلاثة أبحاث أخرى: في الأول: أتكلم عن الحروف الهجائية العربية نفسها، وفي الثاني: أقابلها بغيرها وأذكر بعض مزاياها، وفي الثالث: أتكلم عن تاريخها والأطوار التي مرَّت بها إلى أن وصلت إلى صورتها الحاضرة.

البحث الأول: الحروف الهجائية العربية

تسمى الحروف التي تتركب منها الألفاظ حروف الهجاء، أو حروف التهجي، أو حروف المبنى، أو حروف المعجم، ويسميها سيبويه والخليلُ بن أحمد حروف العربية. وقد اختلف الصرفيون بين أن تكون ثمانية

وعشريـن حرفًـا أو تسـعة وعشريـن حرفًـا، ولكنهـا في الحقيقـة تُقسَّـمُ إلى أربعـةِ أقسـام: حـروف مفـردة، وحـروف مركبـة، وحـركات، وضوابـط.

الحروف المفردة

أ. ب. ت. ث. ج. ح. خ. د. ذ. ر. ز. س. ش. ص. ض. ط. ظ. ع. غ. ف. ق. ك. ل. م. ن. هـ. ة. و. (مثـل الـواو في: ثـوب) ي. (مثـل اليـاء في: بيـت) وعددهـا تسـعة وعـشرون حرفًـا.

الحروف المركبة

الحـروف المركبة نوعان: إمـا أن تكون مركبة من حرف وحركة، وهي:

آ: أي همـزة وألف في نحـو: «مآكل»، وأصل كتابتها هكذا «أا».

لا: أي لام وألف.

وإمـا أن تكون مركبة من حركة وحرف، وهي:

تنوين ضم، وعلامته ـٌ

تنوين فتح، وعلامته ـًا بألف، أو ـً بدونها.

تنوين كسر، وعلامته ـٍ

فـالأول مركـب مـن ضمـة ونـون، والثـاني مـن فتحـة ونـون، والثالـث مـن كـسرة ونـون، ولكنهـم لم يكتبـوا النـون اسـتغناءً بمضاعفـة الحركـة عنهـا، وعـدد الحـروف المركبـة عـلى نوعيهـا خمسـة.

الحركات

وهي تقسم إلى ثلاثة أقسام: قصيرة، وطويلة، وممدودة.

القصيرة تقسم إلى: الضمة والفتحة والكسرة.

الطويلة تقسم إلى: الألف.

الواو، مثلها في «عود».

الياء، مثلها في «عيد».

الممدودة: وهي «الألف، والواو، والياء» إذا وقعت قبل همزة أو شَدَّة، فالألف في «ماء ومادة» أطول من الألف في «باب»، والواو في «وضوء وقوص مجهول قاص» أطول من الواو في «عود»، والياء في «بريء» أطول من الياء في «عيد»، وعددها على اختلاف أقسامها تسع.

الضوابط

السكنة أو السكون، وعلامته ـْ

الوصل، وعلامته ا، وهي مأخوذة من كلمة «صل».

المد، وعلامته آ، وهي مأخوذة من كلمة «مد».

التشديد، وعلامته ـّ وهي مأخوذة من كلمة «شد».

فعدد الجميع من حروف مفردة، وحروف مركبة، وحركات، وضوابط

سبعة وأربعون حرفًا، إلا أن البعض منها قد يكتب على أشكال مختلفة معروفة.

وهنا استدعي انتباه الأساتذة الكرام إلى النقاط الآتية:

(١)لا يزال الصرفيون يعتبرون الألف والواو والياء حروفًا، والحقيقة أن الألف ليست إلا حركة، وأما الواو والياء فمن الأشكال المشتركة بين الحروف والحركات؛ فالواو في «ثوب» حرف، وفي «عود» حركة، ويقابل الأول عند الإفرنج حرف W، والثاني حرف O. والياء في «بيت» حرف، وفي «عيد» حركة، ونجد مثل هذا الاشتراك في الحروف الإفرنجية؛ فحرف Y يكون تارة حرفًا؛ مثله في كلمة yes، وتارة حركة؛ مثله في كلمة truly وحرف W يكون تارة حرفًا مثله في كلمة was، وتارة حركة؛ مثله في كلمة saw.

(٢)الألف والواو والياء قد تكون حركات طويلة، مثل: الألف في «باب»، والواو في «عود»، والياء في «عيد». وقد تكون حركات ممدودة إذا وقعت بعدها همزة أو شدة؛ مثل الألف في «ماء ومادة»، والواو في «وضوء وقوص مجهول قاص»، والياء في «بريء» — كما تقدم — وقد كان يجب أن يكون للحركات الممدودة شكل خاص لها غيره للحركات الطويلة — وقد تكون كراسي للهمزة، مثل: «رأس وسؤل وبئر».

(٣)اصطلحوا على كتابة الألف الممدودة الواقعة قبل همزة بِرَسْمِ مَدةٍ فوقها، مثل: «مآء وسمآء»، وكان يجب أن توضع علامة المد على الحركات الممدودة سواءٌ كانت ألفًا أم واوًا أم ياءً، وسواءٌ وقعت قبل

همـزة أم قبـل شـدة حسـب اصطـلاح القـرآن، ولكنهـم اقتـصروا عليهـا مـع الألـف الواقعـة قبـل همـزة لكـثرة ورودهـا في الـكلام، ثـم لمـا كان موضـع الألـف الممـدودة معلومًـا جـاز إهـمال هـذه المـدة في الخـط اعتـمادًا عـلى فطنـة القـارئ، ولكـنَّ هنـاك موضعًـا آخـر لكتابـة المَـدة لا يجـوز فيـه إهمالهـا، وهـي المـدة التـي تكتـب فـوق الهمـزة التـي بصـورة الألـف، نحـو: «مـآكل»؛ لأنهـا هنـا ليسـت للمـد مثلهـا في «مـآء وسـمآء»، وإنمـا هـي ألـف طويلـة مثلهـا في «مـدارس ومكاتـب». وكان حقهـا أن تكتـب هكـذا «مـأاكل»، ولكنهـم استبشـعوا أن تتـوالى ألفـان في الكتابـة فكتبـوا الثانيـة فـوق الأخـرى، فأشـبهت المَـدة، وهـي ليسـت كذلـك. ولهـذا يكـون قولهـم إن المَـدَّةَ مقتطعـة مـن كلمـة «مُـدَّ» — لأنهـم كانـوا يكتبـون فـوق الألـف الممـدودة لفظـة «مُـدَّ»؛ إشـعارًا بأنهـا ممـدودة تمييـزًا لهـا عـن الألـف الطويلـة، ولفظـة «مُـدَّ» تشـبه «المَـدَّةَ» — لا يصـدق إلا عـلى المَـدَّةِ التـي تكتـب فـوق الألـف الممـدودة الواقعـة قبـل همـزة، مثـل: «مـآء» لا عـلى المَـدَّةِ التـي تكتـب فـوق الهمـزة التـي بصـورة الألـف، مثـل: «مـآكل». وتكـون الألـف الممـدودة مـع المَـدَّةِ فوقهـا؛ مثـل «مـآء» حرفًـا مسـتقلًا بسـيطًا، والهمـزة مـع المَـدَّةِ فوقهـا، في مثـل «مـآكل» حرفًـا مركبًـا مـن همـزة وألـف، وكان يجـب أن يذكـروا هـذا الشـكل بـين الحـروف ويسـموه: «همـزة ألـف» كـما ذكـروا شـكل كتابـة الـلام مـع الألـف وسـموه «لام ألـف».

الخلاصة أن المدة في مثل «مآء» هي مدة مقتطعة من كلمة «مدَّ» وفي مثل «مآكل» هي ألف، ولا يجوز في كتب القراءة أن يجمع بين المدتين في مكان واحد.

(٤)الألف تكتب على أربعة أشكال غير شكلها مع اللام؛ فهي تكتب قائمة مثل الألف في «عصا»، وأفقية مثل الألف في «مآكل»، وبصورة الياء بدون نقطتين، مثل الألف في «فتى»، وألفًا صغيرة فوق الحرف لا بعده في بعض الكلمات، مثل الألف في «الله» و«ذلك». وكلها تسمى الألف الهاوية، أي ذات الهواء أو الملساء أي اللينة. ولكن لا يزال كثيرون حتى بعض المؤلفين يسمون الألف في مثل «فتى» ألفًا مقصورة، وهذا خطأ؛ لأن الألف المقصورة هي الألف على كل أشكالها الأربعة السابقة. وسميت مقصورة؛ لأنها أقصر في اللفظ من الألف الممدودة في مثل «حمراء ومادة»، وإن جاز في بعض المواقف مد الألف وأختيها الواو والياء في غير مواضع المد كما تمد الألف في «لا» إذا أردت تأكيد النفي، وكما يمد المنادي صوته في أداة النداء «يا» إذا كان المنادى بعيدًا أو غير منتبه، وكما تمد الألف في لفظة واسع في قولهم «الله واسع الرحمة»، والياء في لفظة «كبير»، والواو في لفظة «غفور» في قولهم: «الله كبير غفور» للتأثير على السامعين في مواقف الوعظ وغير ذلك، ولكن هذا المد لا يكون إلا إذا اقتضاه الحال.

(٥)إذا اعتبرنا الألف التي هي أول الحروف الهجائية همزة، فقد كان يجب أن تكتب فوقها همزة هكذا «أ» وتسمى همزة لا ألفًا؛ لأن الألف ليست إلا كرسيًّا لها. وإذا اعتبرناها حركة فنكون قد أهملنا ذكر

الهمـزة بـين الحـروف، عـلى أنـه يظهـر مـن ترتيـب الحـروف الهجائيـة عـلى طريقـة نـصر بـن عاصـم الليثـي، ويحيـى بـن يعمـر العـدواني في زمـن عبـد الملـك — وهـو الترتيـب المتبـع الآن — أنهـما ابتـدآ بالألـف والبـاء؛ لأنهـما أول الحـروف في «أبجـد»، ولكـن الحـرف الأول في «أبجـد» هـو همـزة لا ألـف؛ لأن الألـف لا تقـع ابتـداءً، ولعلهـا سـميت ألفًـا لأنهـا قـد تكتـب عـلى الألـف في بعـض المواضـع كـما تكتـب عـلى الـواو والياء في مواضـع أخـرى، فيكـون ذلـك عـلى حـد تسـمية الـكل باسـم الجـزء، وتكـون الألـف اسـم شـكلها لا اسـم حكمهـا. أمـا سـيبويه فإنـه ابتـدأ في ترتيبـه بالهمـزة بـدون كـرسي، ثـم ذكـر الألـف وحدهـا بـين الحـركات الطويلـة في آخـر الحـروف. ومـن الترتيبـين يظهـر أن الحـرف الأول مـن الحـروف الهجائيـة هـو همـزة لا ألـف، أمـا الألـف التـي هـي حركـة فقـد ذكـرت في الترتيـب الأول في لام ألـف، وفي الترتيـب الثـاني وحدهـا.

البحث الثاني: في مقابلة الحروف العربية بغيرها

للحروف العربية مزايا عديدة، أذكر منها ما يأتي:

(١)أنها تكتب وتقرأ من اليمين إلى اليسار كالسريانية والعبرية وسائر اللغات التي اقتبست الحروف العربية بخلاف الحروف الإفرنجية، فإنها تكتب من اليسار إلى اليمين، وبخلاف الحروف الهيروغلوفية فإنها — وإن بدئ بها من اليمين في أول سطر — يجوز أن يبدأ بالسطر الثاني من اليسار، وهكذا يبدأ كل سطر من حيث انتهى سابقه، وعليه قول الشاعر:

لصاحب الأحباس برذونة

بعيدة العهد من الربط

تمشي إلى خلف إذا ما مشت

كأنها تكتب بالقبطي

وبخلاف الحروف الصينية فإنها تكتب من أعلى لأسفل ...

ومن الغريب اصطلاح الإفرنج على الكتابة من الجهة اليسرى دون اليمنى، على حين نراهم في كل أمورهم وأعمالهم يجرون من اليمين إلى اليسار، فمنازل الأعداد عندهم تتدرج من اليمين إلى اليسار — وإن كانوا يقرءونها بالعكس — وعلى حين أن الرسام أو النقاش إذا أراد أن يبدأ بعمله ابتدأه من اليمين، ولا سيما إذا كانت الرسوم

متقابلة؛ بل «إذا كان أمامك درهمان على مائدة، وكلاهما على بعد متساوٍ منك، وأردت أن تتناول واحدًا منهما فإن كنت أيمن انقدت بالسليقة إلى أن تأخذ الذي إلى جهة يمينك» كما قال بعض العلماء في بحث تحت عنوان «الأعسر والأيمن». وكان ذلك كذلك؛ لأن نحو ٩٨ في المائة من الناس يعملون باليد اليمنى دون اليسرى، وقد أثبت بعض علماء منافع الأعضاء أن ذلك أمر فطري في الإنسان ناشئ عن تركيب البنية مما ليس من شأننا الخوض فيه، وإنما يهمنا هنا أن نقول إن اصطلاح العرب أقرب إلى الطبع وأسهل تناولًا، فإذا استسهل الإفرنجي الكتابة من الجهة اليسرى بحكم العادة والتربية والتعليم، استسهلناها من الجهة اليمنى بحكم العادة والتربية والتعليم وفوق ذلك بحكم الفطرة.

(٢)من مزايا الحروف العربية أنها قليلة الأشكال بالنسبة إلى الحروف الإفرنجية مع أنها أكثر عددًا. الحروف العربية تقسم إلى قسمين: كبيرة وصغيرة، فإذا تعلم التلميذ الحروف الكبيرة عرف الصغيرة؛ لأنها مقتطعة منها، إلا حروفًا قليلة ليس لها إلا صورة واحدة، وهي الألف والواو والدال والذال والراء والزاي والطاء والظاء، فكأن القسمين قسم واحد، ولا فرق في ذلك بين حروف الكتابة وحروف الطباعة. وأما الحروف الإفرنجية فتُقسَّمُ إلى قسمين: حروف طباعة وحروف كتابة، وكلٌّ منهما يُقسَّمُ إلى قسمين آخرين: حروف كبيرة وحروف صغيرة، ولا شبه بين الواحد والآخر في الجميع فتكون الحروف الإفرنجية مضاعفة أربعة أضعاف.

(٣)إذا تتابع حرفان متجانسان أو متقاربان في المخرج في كلمة واحدة وكان أولهما ساكنًا، والثاني متحركًا كتب الحرفان حرفًا واحدًا فوقه شَدة للاختصار، وأما الإفرنج فإنهم يدغمون الحروف المتجانسة أو المتقاربة ولكن بتكرار الحرف إذا كان من جنس الحرف الذي قبله أو باللفظ إذا كان قريبًا منه، وليس عندهم علامة على التشديد أو الإدغام.

(٤)العرب يكتبون الحرف الكبير من حروفهم في آخر الكلمة إيذانًا بأن الكلمة انتهت، وأما الإفرنج فيكتبون الحرف الكبير في أول الكلام، أو في أول بعض كلماتهم ولا دليل على أن الكلمة انتهت إلا فصلها عن الكلمة التي بعدها فيضطرون إلى ترك جزء من القرطاس خاليًا.

(٥)أن الكلمة في اللُّغَةِ العربية تأخذ فسحة أصغر من الفسحة التي تأخذها الكلمة الإفرنجية لأسباب:

(أ)لأن حروفنا أدق شكلًا، ولا سيما الحروف الابتدائية والوسطى.

(ب)لأننا نكتب الحرفين المتجانسين أو المتقاربين في المخرج إذا تتابعا في كلمة واحدة وكان أولهما ساكنًا والثاني متحركًا، حرفًا واحدًا فوقه شَدة كما تقدم.

(جـ)لأن حروفنا متصلة بعضها ببعض إلا حروفًا قليلة، وأما حروفهم فكلها منفصلة.

(د)لأن الحركات القصيرة عندنا — وهي الضمة والفتحة والكسرة — والضوابط — وهي السكنة والوصلة والمَدة والشَّدة — والتنوينات على

اختلاف أنواعها، تكتب كلها فوق الحرف أو تحته، لا في صلب الكلمة، وقد نستغني عنها؛ لأن لها مواضع معلومة مطردة، بخلاف اللغات الإفرنجية؛ فإنه لا بد من رسم حركاتها في صلب كلماتها؛ لأنها لا تجري على قياس مطرد.

(٦)قال ابن فارس: «انفردت العرب بالهمز في عرض الكلام، مثل: «سأل، وقرأ»، ولا يكون في شيء من اللغات إلا ابتداءً»، ولكن مع وجود الهمزة ابتداءً في اللغات الإفرنجية، لم يضعوا لها صورة بين حروفهم، فهم يقرءون همزة القطع ولا يكتبونها، ويسقطونها في درج الكلام وليس عندهم علامة للوصل، فهمزة القطع عندهم واردةٌ فيما كان من كلماتهم مبدوءًا بحركة، مثل: on أو at أو it فيلفظونها ولا يكتبونها، أي إنهم استخدموا الحركة لأمرين: للهمز، وللحركة، وكان الحق أن نقرأ هذه الكلمات بالإشمام، وهو عبارة عن الإشارة بالشفاه إلى الحركة من غير تصويت، أو بالروم، وهو عبارة عن حركة مختلسة مخفاة (راجع الإشمام والروم في القاموس)، أو كان يجب أن يضعوا قبل كلِّ حركةٍ في هذه الكلماتِ وغيرها حرفًا يدل على الهمز، كما نفعل نحن، فإننا نكتب كلَّ كلمةٍ من هذه الكلمات المتقدم ذكرها بثلاثة أحرف، وهم يكتبونها بحرفين، فالكلمة الأولى نكتبها هكذا «أُن» أي بهمزة وضمة ونون. والكلمة الثانية هكذا «أَت» أي بهمزة وفتحة وتاء، والكلمة الثالثة هكذا «إِت» أي بهمزة وكسرة وتاء ... بل هم إذا أرادوا أن يكتبوا كلمة «سأل» العربية مثلًا كتبوها هكذا sa-al، فهذا الخط الصغير بين الحركتين ناب عندهم مناب الهمزة.

وأما همزة الوصل عندهم فهي ذات همزة القطع إذا وقعت في درج الكلام، فهم يلفظون هذه الكلمات put it on موصولة معًا بدون أن تكون هناك علامة للوصل، كما كان يفعل العربُ قبل أن اصطلحوا على كتابة علامة الوصل، فتكون الحروف العربية من هذه الجهة أتم من الحروف الإفرنجية ... والشأن هنا ليس في اختصار الكتابة بل في ضبطها، وما كان أحراهم لو كانوا يتوخون الاختصار في الكتابة أن يتركوا الحروف الكثيرة التي يكتبونها ولا يقرءونها — ولا سيما في اللُّغَةِ الإنكليزية — بِحُجَّةِ أنها كانت في وقتٍ ما ملفوظة، فهي في كلماتهم كالأعضاء الأثرية في جسم الحيوان. وكانت القراءة عندهم مع هذه الزيادات على طريقة «انظر وقل» look and say أي إنهم يقرءون بدون أن يتنبهوا لكل حرف من حروف الكلمة؛ بل يرون لها صورة مجملة، كما أن من ينظر إلى أخيه لا يدقق نظره في شكل عينيه وحاجبيه وتقاطيع وجهه، بل يرى له صورة مجملة تنطبق على الصورة الكلية التي في ذهنه. ولسنا ننكر عليهم أن القارئ الحاذق في كلِّ لُغَةٍ يقرأ الكلمات ولا يتهجى الحروف، فقد تكون الكلمة مغلوطًا فيها بزيادة أو نقصان فيقرؤها على الوجه الصحيح بدون أن يتنبه إلى ما فيها من الغلط، وهذا من غرائب النظر، فقد يصور لك الأشياء بغير صورتها، يريك الصحيح خطأً، والخطأ صحيحًا، والصغير كبيرًا، والكبير صغيرًا، وهذا سرُّ أكثر ما يقع من الأغلاط المطبعية.

ولا ننكر عليهم أيضًا أن الكاتب في كل لُغَةٍ يكتب الكلمات كما اعتادت يده كتابتها لا كما يتهجاها. قد تسأل الإنكليزي كيف تتهجى الكلمة

الفلانيـة فـلا يعـرف إلا إذا أخـذ قلـمًا وكتبهـا بسرعـة وإذا تمهـل في الكتابـة فقـد يخطـئ. ولكـن ذلـك كلـه لا ينفـي أن الكتابـة المضبوطـة أسـهل تنـاولًا وأضمـن للصحـة في القـراءة والإمـلاء؛ فالكتابـة عندهـم مـن هـذه الجهـة أشـبه بالكتابـة الصينيـة التـي هـي كتابـة أشـكال ورمـوز يـدل بهـا عـلى المعـاني المختلفـة، لا كتابـة حـروف يتركـب منهـا لفـظ الكلـمات، وقـد حـاول الأمـير «كيـون» بـتر هـذه الأعضـاء الأثريـة مـن جسـم كلماتهـم، ولكنهـم لم يوفقـوا. ويسـتثنى في اللُّغَـةِ العربيـة بعـض كلـمات تُكتـب فيهـا بعـض الحـروف ولا تُقـرأ أو تُقـرأ ولا تُكتـب، وهـي قليلـة لا يعتـد بهـا.

وهنـاك فـرق آخـر، وهـو أن همـزة الوصـل عندنـا محصـورة في مواطـن معـدودة، وأمـا همـزة الوصـل عندهـم، فهـي كل همـزة وقعـت في درج الـكلام كـما رأيـت، فلغتهـم مـن هـذا القبيـل كَلُغـةِ قريـش الذيـن كانـوا يكرهـون الهمـزة، قـال عـليٌّ: «نَـزَلَ القـرآنُ بِلُغَـةِ قريـش، وليسـوا بأصحـابِ نَـبْرٍ، وَلَـوْلَا أَنَّ جِبْرِيـلَ — عَلَيْـهِ السَّـلَامُ — نَـزَلَ بالهَمْـزَةِ عَـلَى النَّبِـيِّ ﷺ مَـا هَمَزْنَـا»؛ لأنَّ للهمـزةِ نـبرةً في الحلـق تَجـري مجـرى التهـوع. وقـد كاد العـرب أنفسـهم يلغـون كلَّ همـزةٍ في درج الـكلام، أي الهمـزة الابتدائيـة إذا سـبقتها كلمـة، وكل همـزة في عرضـه، أي الهمـزة الواقعـة في وسـط الكلمـة أو آخرهـا. فقـد وصلوهـا في مواطـن الوصـل المعروفـة، وأجـازوا للشـاعر أن يصـل همـزة القطـع عنـد الـضرورة، كأَنْ يقـول في «لـو أَن»: «لـو ان». ولـولا القليـل لوصلـوا كلَّ همـزةٍ في الشـعر والنـثر، وأوجبـوا إبدالهـا إذا سـكنت بعـد همـزة فـإن كانـت حركـة الهمـزة الأولى فتحـة أبدلـت الثانيـة ألفًـا، نحـو: «آثـر»؛ فـإن أصلهـا: «أَأْثـر»، وإن كانـت ضمـة أبدلـت

واوًا، نحو: «أُوثر»؛ فإن أصلها: «أُؤْثر»، وإن كانت كسرة أبدلت ياءً، نحو: «إيثار»؛ فإن أصلها: «إِئْثار». وأجازوا فيها الإبدال والتحقيق إذا انضمت الهمزة الثانية أو انكسرت وانفتح ما قبلها، فأجازوا في مضارع «أَمَّ» أن تقول: «أَؤُمُّ أَومُّ»، وفي مضارع «أَنَّ» أن تقول: «أَئِنُّ وأَينُّ»، وفي جمع «إمام» أن تقول: «أَئِمَّة وأَيمَّة» ... بل إذا سكنت بعد غير الهمز فإن كان ما قبلها مفتوحًا أبدلت ألفًا، فتقول في «رأس»: «راس»، وإن كان مضمومًا أبدلت واوًا، فتقول في «سؤل»: «سول»، وإن كان مكسورًا أبدلت ياءً، فتقول في «بئر»: «بير» ... بل أجازوا الإبدال والتحقيق إذا تحركت بعد غير الهمزة، فقالوا في «تأمم»: «تيمم» أي: توضأ بالتراب، والثانية أَشْيَع وإن كانت الأولى هي الأصل، وقالوا في «قرأ»: «قرا»، وفي «قرئ»: «قري»، وفي «التجرؤ»: «التجري» كأنه مصدر «تجرَّى» لا «تجرَّأ»، وبسبب ذلك كانت القاعدة الغالبة لكتابة الهمزة «أن تكتب بحسب (ما تلين)» أي إذا كانت تلين بالواو كتبت على واو، أو بالألف كتبت على ألف، أو بالياء كتبت على ياء.

وكل همزة على ألف أو واو أو ياء تهمز وتلين على الغالب، فهي على أشكالها هذه مثل التاء المربوطة التي يجوز فيها أمران: إما أن تكون تاء، وأن تكون هاء. ولولا القليل لوجب إبدال الهمزة وبطل تحقيقها في كل المواطن التي ذكرناها. وقد أجازوا قصر كل ممدود، فقالوا في «سماء»: «سما»، وفي «حمراء»: «حمرا»؛ بل قد ابتدأ إلغاء الهمزة في عرض الكلام في غير المواطن السابقة، من ذلك قولهم: «سَلْ ولا تسل» بدلًا من: «اسأل ولا تسأل»، وقولهم في مضارع «رأى» وأمره: «يَرَى رَ»

بـدلًا مـن: «يـرأى إِرْأَ» عـلى الأصـل، مثـل: «نـأى ينـأى إِنْـأَ»، وقولهـم في الأمـر مـن «أكل وأخـذ وأمـر»: «كُلْ وَخُـذْ وَمُـرْ» بإسـقاط الهمزتـين معًـا: همـزة الأمـر، وهمـزة الفعـل. ومـن ذلـك أنهـم أجـازوا حـذف همـزة التسـوية فتقـول: «سـواءٌ عـليَّ أكان كـذا أم كـذا» بالهمـزة، و«سـواءٌ عـليَّ كان كـذا أم كـذا» بدونهـا ...

وقـد كانـت قريـش تنطـق بالهمـزة حرفًـا بـين الهمـزة وبـين حـرف حركتهـا ويسـمى هـذا الحـرف «بـين بـين» ... فأنـت تـرى مـن كل مـا أوردتـه لـك مـن الأمثلـة أن اللُّغَـةَ كانـت تتـدرج إلى إلغـاء الهمـز في درج الـكلام أو عرضـه، إمـا بالوصـل، وإمـا بالإبـدال، وإمـا بالحـذف، كـما وقـع في اللُّغَـةِ العربيـة العاميـة إلا قليـلًا. واندثـار بعـض الأصـوات في اللغـات مألـوف، فهـذه اللُّغَـة الآشـورية السـامية يُقـال إنهـا فقـدت حروفهـا الحلقيـة منـذ أربعـة آلاف سـنة.

(٧)أن لـكل حـرف في اللُّغَـة العربيـة صوتًـا خاصًّـا لـه لا يتغـير، كـما أن لـكل صـوت حرفًـا خاصًّـا لـه يـدل عليـه؛ إذ إن الأصـل في الخـط العـربي أن يكـون مطابقًـا للفـظ فتكتـب كل كلمـة كـما ينطـق بهـا، وينطـق بهـا كـما تكتـب، بخـلاف بعـض اللغـات الإفرنجيـة التـي تصـور الصـوت الواحـد بصـور عديـدة، فصـوت الـكاف يُصـوَّر عندهـم تـارة بحـرف k، وتـارة بحـرف q، وتـارة بحـرف c، وتـارة بحـرف x ممزوجًـا بحـرف s، أو تجعـل للحـرف الواحـد أصواتًـا عديـدة، مثـل حـرف s؛ فإنـه ينطـق بـه في بعـض الكلـمات سـينًا، وفي غيرهـا شـينًا، وفي غيرهـا زايًـا، وفي غيرهـا صـادًا.

(٨)ومـن مزايـا الحـروفِ العربيـةِ أنَّ للصـوتِ المُفَخَّـمَ فيهـا صـورةٌ خاصـةٌ لـه، وللصـوتِ الرقيـق صـورةٌ أخـرى، مثـل: السـين والصـاد، والتـاء والطـاء، والـدال والضـاد، والـذال والظـاء، والـكاف والقـاف، بخـلاف اللغـات الإفرنجيـة؛ فـإن في بعضهـا حـركات مُفَخَّمـةٌ وحـركاتٌ رقيقـةٌ توضـع بعـد الحـرف فيُفَخَّـم أو يُرقَّـقُ كـما في اللُّغَـةِ الروسـية، وأمـا في غيرهـا فـلا تجـد إلا حرفًـا واحـدًا يسـتعمل تـارة مُفَخَّـمًا وتـارة رقيقًـا بـدون ضابـط، فحـرف s في الإنكليزيـة قـد يكـون رقيقًـا؛ مثلـه في: sow، وقـد يكـون مُفخَّـمًا؛ مثلـه في saw، وحـرف d قـد يكـون رقيقًـا؛ مثلـه في do، وقـد يكـون مُفخَّـمًا؛ مثلـه في: doll، وعليـه فليـس العـرب وحدهـم هـم الناطقـين بالضـاد. وحـرف L قـد يكـون رقيقًـا؛ مثلـه في: low، وقـد يكـون مفخَّـمًا؛ مثلـه في: law. وحـرف c الـذي يكـون في بعـض الكلـمات كافًـا، قـد يكـون رقيقًـا؛ مثلـه في: cold، وقـد يكـون مُفخَّـمًا؛ مثلـه في: called. وحـرف t قـد يكـون رقيقًـا؛ مثلـه في: tell، وقـد يكـون مُفخَّـمًا؛ مثلـه في: tall.

(٩)في اللُّغَـةِ العربيـة صـورٌ معلومـةٌ للحـركاتِ الطويلـةِ وصـورٌ أخـرى للحـركاتِ القصـيرةِ، عـلى حـين لا تجـد في بعـض اللغـاتِ الأخـرى قياسًـا مُطـردًا للحـركاتِ الطويلـةِ والقصـيرةِ فيهـا، فقـد يضاعفـون الحركـة في اللُّغَـةِ الإنكليزيـة بقصـد تطويلهـا، مثـل: food، ولكنهـم قـد يقصرونهـا مـع مضاعفتهـا، مثـل: foot، فضـلًا عـن أن الحركـة الواحـدة؛ مثـل: a قـد تسـتعمل مثـل o، كـما في قولهـم: tall، وقـد تسـتعمل عـلى لفظهـا في مثـل هـذا التركيـب، كـما في shall وغـير ذلـك.

(١٠)لعـل الحـروف العربيـة أجمـل، وقـد حلَّـت في التمـدن الإسـلامي محـلَّ

التصوير والنقش من الفنون الجميلة، فَزيَّنوا بها أبنيتهم ورياشهم وآنيتهم وأسلحتهم وأعلامهم، ومن زار الحمراء في إسبانيا رأى من الزخارف الكتابية على جدرانها ما يروعه ويغترق بصره؛ لأن الحروف العربية تتألف من كلِّ الأشكال؛ ففيها الخطوط المنحنية والمستقيمة والمستديرة والبيضية والهرمية والمجوفة والمحدبة والقوسية والمستنة والطويلة والقصيرة والذاهبة صعدًا أو نزولًا، متصلة أو منفصلة، فوقها أو تحتها من النقطِ والحركاتِ والشدَّاتِ والتنويناتِ والمدَّاتِ وهمزاتِ الوصلِ والقطعِ مما لا تشبهها فيه لُغةٌ أخرى، وقد كانوا في قديم الزَّمان يلونون كتابتهم بألوان مختلفة، فالسواد للحروف، والحمرة للشكل، والصفرة للهمزات، والخضرة لألفات الوصل فيخالها الرائي قطع الرياض أو قطع الفسيفساء. يقال إنهم في بعض مُدن أوروبا في الأجيال الوسطى بنوا كنيسة على طراز شرقي، وإذ أحبوا أن يزيِّنُوا جدرانها على الطريقة الشرقية نقلوا فيما نقلوه من الزخارف أسماء الصحابة وهم يحسبونها زخارف ورسومًا، فكُنت ترى على جدران تلك الكنيسة اسم عَلِيٍّ وحمزةَ وأبي بكر وغيرهم كأنها من أسماء قديسيها؛ بل قد استخدم الشعراءُ بعضَ الحروفِ العربيةِ في غزلهم على سبيل التشبيه، فشبهوا القامة الهيفاء بالألف، وعطفة الصدغ بالهمزة، والعارض باللام، والحاجب بالنون، والطرة المصففة من الشعر بالسين الواقعة غير طرف؛ لأنها تستوي على شكلها، وغير ذلك.

(١١)من الفروق بيننا وبينهم أن الإفرنج قد يكتبون نصف الكلمة أو جزءًا منها في آخر السطر والجزء الآخر في أول السطر الذي يليه، وهذا

مكـروه في اللُّغَـةِ العربيـة، حتـى الـواو فإنهـم يحسـبونها جـزءًا مـن الكلمـة فـلا يفصلونهـا؛ بـل كرهـوا فصـل المضـاف عـن المضـاف إليـه.

البحث الثالث: تاريـخ الحروف الهجائية وتطورها

لم يصـل الخـط إلى مـا هو عليه الآن إلا بعد أن قطع أربعة أدوار:

(١)دور التصويـر الـذاتي: كانـت تصـور فيـه الحـوادث والأشـياء التـي تقبـل التصويـر، فكانـوا إذا أرادوا أن يكتبـوا مثـلًا كلمـة «أسـد» صـوروا أسـدًا، أو كلمـة «وردة» صـوروا وردة.

(٢)دور التصويـر الرمـزي: اصطلحـوا فيـه عـلى اتخـاذ رمـوز للمعـاني التـي لا يمكـن تصويرهـا، كأن يرمـز عـن المحبـة بالحمامـة، وعـن البغـض بالحيـة.

(٣)الـدور المقطعـي: وتـدل فيـه الصـورة عـلى أول مقطـع مـن اسـمها، أي إنَّ الشـكل الواحـد بعـد أن كان يـدل عـلى كلمـة في الـدور التصويـري الأول اسـتعمل في هـذا الـدور للدلالـة عـلى حـرف وحركـة معًـا، فصـورة الحصـان التـي كانـت تـدل عـلى حصـان اسـتعملت للدلالـة عـلى مقطـع مؤلـف مـن حـاء مكسـورة، وصـورة الغـراب التـي كانـت تـدل عـلى غـراب اسـتعملت للدلالـة عـلى مقطـع مؤلـف مـن غـين مضمومـة مثـلًا، ولعـل كتابـة الهمـزة عندنـا عـلى الألـف والـواو واليـاء — فتفتـح مـع الألـف بـدون أن تكـون هنـاك فتحـة، وتضـم مـع الـواو بـدون أن تكـون هنـاك ضمـة، وتكـسر مـع اليـاء بـدون أن تكـون هنـاك كـسرة — مـن الأشـكال المقطعيـة.

(٤)الـدور الهجـائي: اسـتعملوا فيـه المقاطـع حروفًـا مسـتقلة، فصـورة

الحصان التي كانت تدل على حاء مكسورة مثلًا في الدور المقطعي استعملت في هذا الدور للدلالة على الحاء الساكنة، وهو أقل الأدوار أشكالًا وأسهلها استعمالًا.

والفضل في وضع الحروف الهجائية راجع إلى الفينيقيين، وإذا كانت الكتابة هي الجسر الذي مرَّت عليه الإنسانيةُ من الهمجية إلى المدنية، كان الفينيقيون أهمُّ سببٍ في تمدُّنِ أكثر أُمَمِ الأرض، وإذا صحَّ رأيُ فريقٍ من المؤرخين أنهم من العرب أبناء إسماعيل بن إبرهيم كان للعرب اليد البيضاء — التي لا تُؤدى — على الإنسانية جمعاء.

***

لا شك أن الكتابة في أدوارها الأولى كانت مقروءة من تلقاء نفسها، حتى في أول الدور الهجائي؛ لأن العلاقة بين الأصوات والنقوش الموضوعة لها كانت معقولة واضحة، فكان كلُّ الناس قُرَّاءً، ولكنَّ تلك العلاقة لم تلبث في الدور الهجائي أن أخذت تخفى شيئًا فشيئًا إلى أن أصبحت دلالة النقشِ على الصوتِ اعتباطية، وعادت الحروفُ الهجائيةُ لا تُؤخذ إلا بالدرسِ، فانقسم الناسُ بسبب ذلك إلى أُمِّيِّين ومتعلمين.

***

الحروف المعروفة اليوم، أصلها فينيقي بدليلين: الأول؛ أنَّ أسماءَها لا تزال إلى اليوم فينيقية، بعضها بلفظه الأصلي، وبعضها بتصرف قليل، والثاني؛ أنَّ أكثرَ أشكالها تكاد تشبه الأشكال الفينيقية. ولا شك أننا

استعملنا الحروف الفينيقية بعينها لأول عهدنا بالكتابة، ثم مع توالي الأيام تغيرت حروفنا شيئًا فشيئًا حتى بعد الشبه بينها وبين الحروف الفينيقية، وليس من السهل تتبع هذا التغير؛ فنكتفي بالإشارة إلى شيءٍ منه على قدر ما تيسَّر لنا من الأشكال عند الطبع.

من ذلك الألف والواو والياء؛ فقد كانت الألف في الأصل تكتب على شكل يشبه رأس ثور حسب أصل كتابتها في القلم الهيروغليفي، وكانت الواو والياء تكتبان على شكلين آخرين لم نوفق إلى صورة لكل منهما عند الطبع، فاستبدلوا أشكالها هذه بأشكالها المعروفة، والذي يخطر لنا أنهم راعوا في هذا الإبدال شكل الفم عند التلفظ بها، فجعلوا الألف خطًّا عموديًّا هكذا «ا»؛ لتكون فتحة الفم عمودية، وجعلوا الواو على شكل دائرة؛ ليكون الفم عند قراءتها مضمومًا، وهي تشبه حرف o الإفرنجية في الخط، إلا أننا زدنا لها ذنبًا، ولعله كان قصيرًا في أول عهده ثم طولناه حسب عادتنا من مشق الحروف ومطها في أواخرها عند الإسراع في كتابتها؛ بل إن الإفرنج أنفسهم يضعون مثل هذا الذنب لحرف o، ولكن الفرق بيننا وبينهم أنَّ الذنب عندنا في ذيلِ حرفنا والذنب عندهم في رأس حرفهم، وجعلوا الياء على صورة دائرة مستطيلة عرضًا لتكون على شكل الفم عند قراءتها، ثم فتحوها قليلًا من الأعلى وجعلوا لها منقارًا، ووضعوا نقطتين تحتها للتزيين أو ليميزوها عن غيرها. فإذا صح استنتاجنا كانت الألف والواو والياء من أدل الحروف على شكل الفم؛ بل كانت مقروءة من تلقاء نفسها.

ثم إن هناك أحرفًا أخرى نقلوها عن شكلها الفينيقي إلى شكل آخر،

صوَّرُوا بـه شـكلَ الفـم، وهـي: البـاء والتـاء والثـاء والنـون، فـإن البـاء والتـاء والثـاء تشـبه الفـم المطبـق، وهـو يـكاد يكـون كذلـك عنـد التلفـظ بهـا، إلا أنـه ينفـرج قليـلًا جـدًّا عنـد خـروج الصـوت، وقـد كانـوا يعتمـدون في التمييـز بينهـا عـلى مـا يقتضيـه المعنـى، ثـم ميَّـزوا بينهـا بالنقـط، ولعلهـم اختـاروا أن تكـون نقطـة البـاء مـن تحتهـا؛ إشـارةً إلى حركـة الشـفة السـفلى عنـد التلفـظ بهـا، ووضعـوا للتـاء نقطتـين فوقهـا إمـا لمجـرد التمييـز وإمـا إشـارةً إلى إظهـار سـنَّين عنـد التلفـظ بهـا، والنقـط تشـبه الأسـنان. وميَّـزوا الثـاء بثـلاث نقـط؛ إشـارةً إلى إظهـار طـرف اللسـان بـين الأسـنان العليـا والسـفلى. وأمـا النـون فهـي تشـبه غـار الفـم، وقـد جعلـوا في وسـطها نقطـة؛ إشـارةً إلى التصـاقِ طـرف اللسـان بأعـلى الحنـك عنـد التلفـظ بهـا، وهـي تشـبه النـون السـامرية إلا أنهـم يكتبونهـا بالطـول عـلى شـكل الفـم عنـد التلفـظ بهـا، ونحـن نكتبهـا بالعـرض. وأصـل كتابـة حـرف «نـون» في اللُّغَـةِ الفينيقيـةِ واللغـةِ اليونانيـةِ القديمـةِ عـلى شـكل أشـبه بالحـرف نفسـه في اللغـات الإفرنجيـة إذا كان مكتوبًـا لا مطبوعًـا. ومـن الاتفـاق الغريـب أن الاصطـلاح الأخـير في كتابتهـا ردَّهـا إلى أصلهـا؛ إذ يكتبونهـا اليـوم هكـذا ن.

وهنـاك حـروف نقلناهـا عـن اللُّغَـةِ الفينيقيـةِ بعـد أن جعلنـا أعلاهـا أسـفلها، مثـل الـكاف؛ فهـي في اللُّغَـةِ الفينيقيـةِ فقلبناهـا وكتبناهـا هكـذا «ك»، وأمـا الإفرنـج فقـد غـيروا هـذا الحـرف مـن جهتـين؛ أولًا: جعلـوا أعـلاه أسـفله، ثـم جعلـوا يمينـه يسـاره، فجـاء هكـذا: k.

ومـن الحـروف مـا غيرنـا جهـة كتابتـه مـن اليسـار إلى اليمـين؛ مثـل الـلام، فهـي في اللُّغَـة الفينيقيـة واليونانيـة القديمـة هكـذا L عـلى صورتهـا في

اللغـات الإفرنجيـة اليـوم فغيرنـا جهتهـا وكتبناهـا هكـذا «ل».

ومـن الحـروف مـا غيرنـاه مـن الوضـع العمـودي إلى الوضـع الأفقـي؛ مثـل اليـاء، فإنهـا تـكاد تشـبه اليـاء في اللُّغَـةِ اليونانيـة القديمـة، فقلبناهـا وكتبناهـا هكـذا «ي»، وأمـا الإفرنـج فجعلوهـا عموديـة.

وأمـا حـرفُ العـين فقـد كان في أصلِـه دائـرةٌ تُشـبه حَاسـة البـصرِ، ولا نـزال نكتبـه كذلـك إلا أنـه إذا وقـع طرفًـا زِدنـا لـه نصـف دائـرة مسـتطيلة عـلى شـكل نصـف دائـرة الوجـه لتكـون قرينـة عـلى أننـا نقصـد بـه العـين التـي هـي حاسـة البـصر، وهـو مـن الحـروف التصويريـة الواضحـة في لغتنـا.

وقـد كان هـذا التغيـير مـن أعـلى لأسـفل أو مـن اليسـار إلى اليمـين أو مـن العموديـة إلى الأفقيـة تسـهيلًا للكتابـة؛ لأننـا نبتـدئ مـن الجهـةِ اليمنـى.

***

كانـت حروفنـا في أصـلِ وضعهـا مُنفصلـة فجعلناهـا مـع الأيـام مُتصلـة إلا «الألـف، والـواو، والـدال، والـذال، والـراء، والـزاي»؛ فإنهـا لا تـزال إلى اليـوم تُكتـب مُنفصلـة عـمَّا بعدهـا. وكانـت مُهملـة — أي بـدون تنقيـط — فأعجمناهـا — أي نقطناهـا — والهمـزة في «أعجـم» للسـلبِ — أي أزلنـا عجمتهـا وإبهامهـا — فـإذا كان التنقيـط حادثًـا في العربيـةِ، فالحـروفُ التـي وضعـت في الأصـلِ لَـمْ تكـنْ تسـعةً وعشريـن أو ثمانيـةً وعشريـن، ولكنَّهـا كانـت تسـعةَ عـشرَ أو ثمانيـةَ عـشرَ شـكلًا عـلى عـددِ أشـكالها بـدون

تنقيـط، فكيـف تكفـي هـذه الأشـكال القليلـة لكتابـةِ اللُّغـةِ؟ اسـتخدموا الشـكلَ الواحـدَ لِعِـدَّةِ أغـراض.

اسـتخدموا الألـف همـزة وحركـة طويلـة وحركـة ممـدودة، واسـتخدموا الـواو واليـاء حركتـين طويلتـين وحركتـين ممدودتـين وحرفـين.

واسـتخدموا الألـف والـواو واليـاء حـركات قصـيرة — أي بـدلًا مـن الضمـة، والفتحـة، والكـسرة — ولعـل الـواو في «أولئـك» وفي «عمـرو» مـن آثـار ذلـك العهـد. ومـن العجيـب أنهـم عـادوا فاسـتعملوا الحـركات القصـيرة بـدلًا مـن الطويلـة في مثـل: «إسـحق»، و«إبرهيـم»، و«الرحمـن»، و«سـليمن»، و«السـموات»، و«الملئكـة»، و«رؤس»، و«أنبـؤني»، و«إيـاي فارهبـون» — أي فارهبـوني — وغـير ذلـك.

واسـتخدموا شـكل البـاءِ لـ «البـاء، والتـاء، والثـاء»، ولليـاء إذا وقعـت أولًا أو وسـطًا.

وشـكل الجيم لـ «الجيم، والحاء، والخاء».

وشـكل السين لـ «السين، والشين».

وشـكل الصاد لـ «الصاد، والضاد».

وشـكل الطاء لـ «الطاء، والظاء».

وشـكل العين لـ «العين، والغين».

وشـكل الفاء لـ «الفاء، والقاف».

ومـع مـا في ذلـك مـن الصعوبـة فإنهـم كانـوا يقـرءون ويكتبـون، فـما أشـبه كتابتهـم في أول عهدهـا بكتابـةِ هـذا العـصرِ التـي يُسـمُّونَها بالخـطِّ المختـزل، والتاريـخ يعيـد نفسـه.

النحو

نَقَلَ الشَّيخُ بدرُ الدين الزركشيُّ في قواعِدِه عن بعضِ المشايخِ أنَّه كان يقول: العلومُ ثلاثةٌ: «علمٌ نَضَجَ وَمَا احتَرَقَ، وهُو عِلْمُ الأصُول والنَّحْوِ، وعِلْمٌ لا نَضَجَ ولا احتَرَقَ، وهُو عِلْمُ البَيَانِ والتَّفْسِيْرِ، وعِلْمٌ نَضَجَ واحتَرَقَ، وهُو عِلْمُ الفِقْهِ والحَدِيثِ.» فعِلْمُ النحو هو من العلوم التي نضجت وما احترقت، فإذا استقريت كلام العرب فلا تجد أداةً أو حرفًا أو حالةً من حالات الكلمة في الجملة إلا استنبط لها النحاةُ حُكمًا ترجع إليه، فإذا كان الاسم مرفوعًا أو منصوبًا أو مخفوضًا مثلًا فلا يخرج عن حُكم المرفوعات أو المنصوبات أو المخفوضات التي نصُّوا عليها.

وما هو النحو؟ هو فَنٌّ الإعرابِ والبناءِ، قال القدماءُ: «النَّحْوُ فِي الاصْطِلَاحِ هُو العِلْمُ المُسْتَخْرَجُ بِالمَقَايِيسِ المُسْتَنْبَطَةِ مِن اسْتِقْرَاءِ كَلَامِ العَرَبِ المُوصلَة إلى معرفةِ أَحْكَامِ أَجْزَائِهِ التِي ائتَلَفَ مِنْهَا.»

وقال المتأخرون: «هُو عِلْمٌ يُبْحَثُ فِيْهِ عَن أَحْوَالِ أَوَاخِرِ الكَلِمِ إِعْرَابًا وَبِنَاءً.»

وما هي فائدته؟ قال النحاةُ: إن فائدته التحرز من الخطأ، وقال ابن الوردي:

جمل المنطق بالنحو فمن يحرم الإعراب بالنطق اختبل

أي إن فائدته ليست في نفسه؛ بل في تجميل المنطق والتحرز من الخطأ، وبعبارة أخرى في إقامة الملكة العربية. ولكنهم تدرجوا فيه من

العنايـة بـه إلى الإخصـاء فيـه إلى اعتبـاره غَايـةً يُطْلَـب لِنَفْسِـهِ، فخَصَّصُـوا لـه مَـدَارس لا يُعَلَّـم فِيهَـا غَـيْرُهُ، منهـا المدرسـة النحويـة في جـوار المسـجد الأقـصى في القـدس؛ بـل كان هـو الغايـة مـن كلِّ دُرُوسِ اللُّغَـةِ والأدبِ، ومـا مـن كِتـابٍ أو شـعرٍ أو قَـولٍ أو مَثَـلٍ أو حديـثٍ شرحـوه إلا عنُـوا بإعرابـه وتطبيقـه عـلى قوانـين النحـو؛ بـل مـا مـن كتـابٍ في اللُّغَـةِ أو الشـعرِ أو الأدبِ أو الأخبـارِ أو التفسـيرِ أو غـير ذلـك حتـى مِـمَّا لا علاقـة لـه باللغـةِ إلا وفيـه نحـو؛ بـل قـد تجـد مـن دقائـق النحـو في غـير كُتـب النحـوِ مـا لا تجـده في أُمَّهَـاتِ كتبـه. ومـا مـن عِلْـمٍ شـاعت اصطلاحاتُـه وأمثالُـه ولُغَتُـه عـلى ألسـنةِ النـاس حتـى الأُمِّيـين منهـم مِثـل عِلْـمِ النحـوِ، مـن ذلـك أنهـم إذا أرادوا أن يقولـوا: «ليـس إلى هـذا الـشيء حاجـة» قالـوا: «لا محـل لـه مـن الإعـراب»، وإذا أرادوا أن يقولـوا: «فـات الـشيءُ» قالـوا: «أصبـح في خـبر كان»، وإذا أرادوا أن يقولـوا: «وغـير ذلـك»، قالـوا: «وهلـم جـرًّا» أو «وقِـسْ عليـه مـا ورد».

وقوانـين النحـو كانـت في أصلهـا قليلـة عـلى قـدر مـا دعـت إليـه الحاجـة لأول عهـد الملكـة بالفسـاد، ثـم توسـعوا في الاسـتنباط إلى مـا تقتضيـه الصناعـة لا الحاجـة، ثـم خرجـوا بهـا إلى مماحـكات لا طائـل تحتهـا، مـما أوشـك بـه عِلْـمُ النحـو بعـد نُضجِـه أن يحـترق.

إذن كان النحـو آلـة فأصبـح غايـة، وكانـت قوانينـه عـلى قـدر مـا تقتضيـه الحاجـة فتوسـعوا فيهـا إلى مـا لا تقتضيـه، وقـد كان الغـرض منـه عـلى اعتبـاره آلـة، وعـلى الوقـوف بـه عنـد حـدِّ الحاجـة — إقامـة الملكـة كـما تقـدم، وكان ذلـك لأن اللُّغَـةَ بملكتهـا تبقـى ببقائهـا وتفسـد بفسـادها

وتذهب بذهابها، ولا يغني اللُّغَة إذا ذهبت ملكتها أن يكون لها ألفاظ ومعاجم ألفاظ؛ فإن الألفاظ تقل وتكثر وتتطور، يندثر منها ما يندثر، ويتولد فيها ما تقتضيه الحاجة ويتحول عن معناه منها ما يتحول، فإذا بقيت الملكة فاللُّغةُ باقية قلت ألفاظها أم كثرت، وتحولت عن معانيها أم لم تتحول. ألا ترى أنَّ مَلَكَةَ الطِّفْلِ فِي اللُّغَةِ العَامية مِثل مَلَكَةِ الرَّجُلِ فِيها على اختلافٍ في مِقدَار ألفاظهما؟! ولما كان العرب حريصين على مَلَكَتِهم — وحقهم أن يكونوا حريصين عليها — استنبطوا قوانينها ومقاييسها ووضعوا حدودَها إلى ما لم يجارهم فيه أحدٌ، حتى إذا تَحيَّفَتها الركاكةُ وطغتْ عليها العجمةُ توصلوا بتلك القوانين إلى إصلاح ما فسد منها وإرجاعها إلى أصلها.

ولكن ما هو أثر هذه القوانين في تلك المَلَكَةِ؟ هذا ما يجب أن نستدعي الانتباه إليه.

قال ابن خلدون: «إن العِلم بقواعدِ الإعْرَابِ إنَّمَا هُو عِلْمٌ بكيفيةِ العملِ وليس هُو نَفْسُ العَمَلِ؛ ولذلك نجد كثيرًا مِن جَهَابِذَةِ النحاةِ والمهرةِ فِي صِنَاعةِ العربيةِ المُحِيطِين بِتلك القوانين إِذَا سُئِلَ فِي كِتَابَةِ سَطرين إِلى أخِيهِ أو ذِي مَوَدَّتِهِ، أو شَكْوَى ظلامة، أو قَصْدٍ مِن قُصُودِه، أخطأ فيها عن الصَّوَابِ، وأَكثرَ مِن اللَّحْنِ، ولمْ يَجِد تأليفَ الكلامِ لِذَلك والعبارة عن المقصود على أساليبِ اللِّسَانِ العربي. وَكذا نَجِدُ مَن يُحْسِنُ هَذه المَلَكَةَ وَيُجِيدُ الفنَّينِ فِي المنظوم والمنثور وهو لا يُحسن إعرابَ الفَاعِلِ مِن المَفعُولِ، ولا المرفوع من المجرور، ولا شيئًا من قوانين صِنَاعَةِ العربيةِ، فَمِنْ هَذا تَعْلَم أنَّ تِلك المَلَكَة هِي غير صِناعةِ

العربيةِ، وأنها مستغنيةٌ عنها بالجملةِ. وقد تجد بعضَ المهرةِ في صِناعةِ الإعرابِ بصيرًا بحالِ هذه المَلَكَةِ وهو قليلٌ واتفاقي.»

هذا ما قاله ابن خلدون، فالأنواع ثلاثة: مَن يُحسِن المَلَكَةِ ولا يُحسِن الصِّناعة، ومَن يُحسِن الصِّناعة ولا يُحسِن المَلَكَة، ومَن يُحسِن المَلَكَة والصِّناعة مَعًا. وفي الحقيقة أن النوع الثالث — على كونه قليلًا واتفاقيًّا — هو من النوع الأول في إحسان المَلَكَةِ، ومن النوع الثاني في إحسان الصِّناعةِ، لا نوع قائم بنفسه ولا أثر لإحسانه الواحدة في إحسانه الأخرى، وإلا فلماذا لا يُحسِن المَلَكَةَ مَن يُحْسِن الصِّناعة؟! ولا يُحسِن الصِّناعةَ مَن يُحسِن المَلَكَةَ؟! وقد بيَّن ابنُ خلدون سببَ إحسان القليلين المَلَكَةَ والصِّناعة معًا بقوله:

أكثر ما يقع ذلك للمخالطين لكتاب سيبويه، فإنه لم يقتصر على قوانين الإعراب فقط؛ بل ملأ كتابه من أمثال العرب وشواهد أشعارهم وعباراتهم، فكان فيه جزء صالح من تعلم هذه المَلَكَة، فتجد العاكفَ عليه والمُحصِّلَ له قد حصل على حظٍّ من كلام العرب واندرج في محفوظه في أماكنه ومفاصل حاجاته وتنبه به لشأن الملكة، فاستوفى تعلمها فكان أبلغ في الإفادة.

أي إنَّه تعلم المَلَكَةَ على حدة من مخالطته لما جاء في الكتاب من كلامِ العربِ، وتعلم الصِّناعةَ على حِدةٍ ممَّا جاء في الكتاب من قوانين الإعراب، فلو خلا الكتاب من قوانين الإعراب لما أثَّر ذلك على المَلَكَةِ شيئًا، فالمَلَكَةُ إذن مستغنية عن الصِّناعة، ولا أثر للصناعة فيها.

إن العنايـة بقوانـين اللُّغَـةِ مَذهـبٌ قديـمٌ جـدًّا، أخـذه المتأخـرون عـن المتقدمـين عـلى سـبيل التقليـد أو العـدوى، فالعـربُ حـين خالطـوا السريـان في العـراق اطَّلعـوا عـلى آدابهـم، وفي جملتهـا النحـو، فأعجبهـم فنسـجوا عـلى منوالـه، يؤيـد ذلـك أن العـرب بـدءوا بوضـع عِلـم النحـو وهـم في العـراق بـين السريـان والكلـدان، وأقسـام الـكلام في العربيـة مثلهـا في السريانيـة، كـما قـال زيـدان. والإفرنـج نسـجوا عـلى منـوال اللغتـين اللاتينيـة واليونانيـة، واقتبسـوا اصطلاحاتهـما، فهـي لا تـزال غريبـة عـن لُغاتهـم إلى اليـوم، ولا يفهمهـا تلميذُهـم إلا إذا تُرجمـت إلى لُغتِـه؛ بـل لا يـزال في أحـكام اللُّغـات الإفرنجيـة الحديثـة مـا لا ينطبـق عليهـا؛ مثـل حـالات الاسـم بـين أن يكـون مُسـندًا إليـه Nominative أو مُضافًـا إليـه possessive أو مجـرورًا Dative أو مفعـولًا بـه objective أو مُنـادى Vocative، ولا علامـات إعرابيـة لتلـك الحـالات عندهـم إلا في الإضافـة، ولا يتغـير في بعـض هـذه الحـالات إلا الضمـير. ومـن العجـب أنهـم يسـمون الحالـة الأولى في الإنكليزيـة رفعًـا Upright ... خفضًـا Falling حسـب اصطـلاح العـرب؛ بـل إن مُصيبـة الإفرنـج أعظـم؛ فـإن الأديـب عندهـم لا يعـول عـلى أدبـه إلا إذا درس مـع لغتـه اللغتـين اللاتينيـة واليونانيـة، يتعلـم ثـلاث لغـات ليكـون أديبًـا في واحـدة.

***

قلنـا إن العـرب نسـجوا عـلى منـوال السريـان، وقـد مـرَّ عليهـم بعـد وضـع عِلـم النحـو دوران: في الـدور الأول جمعـوا بـين القوانـين والشـواهد مـن كلام العـرب، وعـلى هـذا الأسـلوب جـرى سـيبويه في كتابـه كـما رأيـت.

وكان هـذا أسـلوبُ أهـلِ الأندلـس، قـال ابـن خلـدون: «وأهـل صِناعـةِ العربيـةِ بالأندلـس ومُعلِّمُوهـا أقـربُ إلى تحصيـل هـذه المَلَكَـةِ وتعليمهـا مِـن سـواهم؛ لقيامهـم فيهـا عـلى شـواهدِ العـربِ وأمثالِهـم، والتفقـه في الكثـير مـن التراكيـب في مجالـس تعليمهـم، فيسـبق إلى المبتـدئ كثـيرٌ مـن المَلَكَـةِ أثنـاء التعلُّـمِ فتنقطـع النفـسُ لهـا وتسـتعدُ إلى تحصيلهـا وقبولهـا»، وقـد كان هـذا أسـلوبَ أهـلِ الـشرقِ أيضًـا لعهـدِ الدولـةِ الأُمَويَّـةِ والعباسـيةِ كـما قـال ابـنُ خلـدون في موضـع آخـر.

فالذيـن يتفقهـون في كلام العـرب في هـذا الـدور أحسـنوا المَلَكَـةَ، والذيـن انصرفـوا إلى القوانـين أحسـنوا الصِّناعـةَ، والذيـن عُنُـوا بالأمريـن أحسـنوا المَلَكَـةَ والصِّنَاعـةَ معًـا.

وفي الـدور الثـاني اقتـصروا عـلى القوانـين وجـرَّدوا كتبَهُـم مِـن أشـعارِ العـربِ وكلامِهِـم، وهُـو أسـلوبُ أهـلِ المغـرب وإفريقيـة وغيرهـم. قـال ابـنُ خلـدون: «أمَّـا مَـن سـواهم — أي سـوى أهـل الأندلـس — مـن أهـلِ المغرب وإفريقيـة وغيرهـم فأجـروا صناعـة العربيـة مجـرى العلـوم بحثًـا، وقطعـوا النظـر عـن التفقـه في تراكيـب كلام العـرب — إلا إن أعربـوا شـاهدًا أو رجحـوا مذهبًـا مـن جهـة الاقتضـاء الذهنـي لا مـن جهـة محامـل اللِّسـان وتراكيبـه — فأصبحـت صناعـة العربيـة كأنهـا مـن جملـة قوانـين المنطـق العقليـة أو الجـدل، وبعـدت عـن مناحـي اللسـان ومَلَكَتِـهِ، ومـا ذلـك إلا لِعُدُولهـم عـن البحـث في شـواهد اللِّسـان وتراكيبـه، وتمييـز أسـاليبه، وغفلتهـم عـن المـران في ذلـك للمتعلـم، فهـو أحسـن مـا تفيـده المَلَكَـةُ في

اللِّسان. وتلك القوانين إنما هي وسائل للتعليم، لكنهم أجروها على غير ما قُصِدَ بها، وأصاروها عِلمًا بحتًا، وبعدوا عن ثمرتها.»

وعن أهل المغرب وإفريقية أخذنا هذا الأسلوب الذي نتبعه اليوم فتعلقنا بالصِّناعة وأهملنا المَلَكَةَ.

***

ما كان أغنى المتأخرين من عَربٍ وإفرنج عن تقليد المتقدمين من سريان وكلدان ولاتين ويونان في التعلق بهذه القوانين على غير حاجة، وما كان أحراهم إذا أرادوا إقامة مَلَكَاتِهم أن يُفتِّشوا عن أسلوبٍ آخر؛ بل ما كان أحرانا في هذا العصر إذا لم يكن بُدٌّ من النسج على منوال المتقدمين أن نأخذ الأسلوب الأندلسي على الأقل لا الأسلوب المغربي، ثم بدلًا من أنْ نُجرِّده من أشعارِ العربِ وأمثالِهم وشواهدِ كلامِهم ونقتصر فيه على قوانين الإعراب كما فعل أهلُ المغرب، فنحصل على عِلم اللِّسان صِناعةً، نجري فيه على عكس ذلك أي نجرِّده من القوانين ونقتصر على الشواهد فنحصل على عِلْمِ اللِّسانِ مَلَكَةً ... وهذا هو الأسلوب الذي أشار به ابنُ خلدون فيلسوف العرب وأستاذهم الأكبر في مواطن كثيرة من مقدمته، وإليك ما قاله في بعض تلك المواطن:

إنَّ اللُّغاتَ لمَّا كانت مَلَكَات كان تعلمها مُمكنًا شأن سائر المَلَكَات، ووجه التعلم لمَن يبتغي هذه المَلَكَة ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم من القرآن والحديث وكلام السلف ومخاطبات فحول العرب في أسجاعهم وأشعارهم وكلمات

المولديـن أيضًـا في سـائر فنونهـم، حتـى يتنـزل — لكـثرة حفظـه لكلامهـم مـن المنظـوم والمنثـور — منزلـة مـن نشـأ بينهـم ولقـن العبـارة عـن المقاصـد منهـم، ثـم يتـصرف بعـد ذلـك في التعبـير عـمَّا في ضمـيره عـلى حسـب عباراتهـم وتأليـف كلماتهـم ومـا وعـاه وحفظـه مـن أسـاليبهم وترتيـب ألفاظهـم، فتحـل لـه المَلَكَـةُ بهـذا الحفـظِ والاسـتعمالِ، ويـزداد بكثرتهـما رسـوخًا وقـوة، ويحتـاج مـع ذلـك إلى سـلامةِ الطبـعِ والتَّفَهُّـمِ الحسـن لمنـازع العـرب وأسـاليبهم في التراكيـب ومراعـاة التطبيـق بينهـما وبـين مقتضيـات الأحـوال، والـذوق يشـهد بذلـك، وهـو ينشـأ مـا بـين هـذه المَلَكَـةِ والطبـعِ السـليم فيهـما، وعـلى قـدر المحفـوظ وكـثرة الاسـتعمال تكـون جـودة المقـول المصنـوع نظـمًا ونـثرًا، ومَـن حَصَـلَ عـلى هـذه المَلَـكَاتِ فقـد حَصَـلَ عـلى لُغـة مـضر، وهـو الناقـد البصـير بالبلاغـة فيهـا، وهكـذا ينبغـي أن يكـون تعلمهـا.

وقال في موضع آخر:

تعلـم مِـمَّا قررنـاه في هـذا البـاب أن حصـول مَلَكَـةِ اللِّسـان العـربي إنمـا هـو بكـثرة الحفـظ مـن كلام العـرب، حتـى يرتسـم في خيالِـه المنـوالُ الـذي نسـجوا عليـه تراكيبَهـم فينسـج هـو عليـه ويتنـزل بذلـك منزلـة مـن نشـأ بينهـم وخالـط عباراتهـم في كلامهـم حتـى حصلـت لـه المَلَكَـةُ المسـتقرةُ في العبـارة عـن المقاصـد عـلى نحـو كلامهـم.

هـذا رأي ابـن خلـدون، وبذلـك تكـون الأسـاليب ثلاثـة: الأسـلوب الأندلـسي، والأسـلوب المغـربي، والأسـلوب الخلـدوني، وغرضنـا في هـذا المقـال الدعـوة إلى الأسـلوب الخلـدوني.

***

إذا كان غرضنـا إقامـة المَلَكَـةِ بعـد أن فسـدت؛ بـل إحياءهـا بعـد أن فُقـدت، فأحسـن الطـرق وأقربهـا أن نخاطـب المبتدئـين باللُّغـة الصحيحـة رأسًـا، وأن نحـرص عـلى أن نجعلهـم لا يقـرءون مـن الكتـب ولا يحفظـون مـن كلام السـلف والمولديـن إلا مـا كانـت مَلَكَتُـه صحيحـة لا تتنازعهـا ركاكـة أو عجمـة، وأن نمرنهـم كثـيرًا عـلى الكتابـة، وأن نقـوِّم مـا انـآد مـن عباراتهـم في القـراءة والكتابـة والـكلام قياسًـا عـلى كلام العـرب لا عـلى قوانـين اللُّغـةِ، فنقـول: «قـال الرجـلُ» بالضـم قياسًـا عـلى «قـال النبـيُّ»، و«قـال الأحنـفُ»، و«قـال المهلـبُ». ونقـول: «النهـارُ جميـلٌ» برفـع الاثنـين قياسًـا عـلى قولهـم: «العلـمُ زيـنٌ»، و«الصـدقُ عـزٌّ والكـذبُ خضـوعٌ»، و«الخـيرُ عـادةٌ والـشرُّ لجاجـةٌ»، وإذا أخطـأ أحدُهـم أرشـدناه أو قلنـا لرفاقـه: «أرشـدوا أخاكـم فقـد ضـلَّ» ... وعـلى الجملـة أن نعلمهـم اللُّغَـةَ كـما يتعلـم الطفـلُ لُغـةِ أُمِّـه فهـو يسـمعها، ثـم يَألفهـا، ثـم يفهمهـا، ثـم يتكلمهـا بـدون أن تعلِّمـه أُمُّـه قوانـين اللُّغـة، وبـدون أن تفـسر لـه ألفاظهـا أو تترجمهـا. قـد يخـل بالأسـلوب في أول أمـره، كـما قـد يُـسيء التلفـظ ببعـض حروفـه، ولكنـه لا يلبـث أن يهتـدي إلى الصـواب بحكـم التقليـد وبـضرورة أن يكـون مفهومًـا؛ بـل كـما يتعلـم الطفـلُ ابتسـامات أُمِّـه وحركاتهـا وإشـاراتها، وكـما يتعلـم أن يلبـس وأن يمـشي وأن يغنـي، إلى غـير ذلـك مـما يأخـذه بالتقليـد والتمـرن،

وهـي نفـس الطريقـة التـي بهـا يتعلـم كلُّ أجنبـيٍّ لُغـةِ أُمِّـه، فهـو يُحسـن مَلَكَتَهـا قبـل أن يعـرف شـيئًا مـن أحكامهـا.

وفي اللغـات الأجنبيـة مـا هـو أصعـب مـن اللُّغَـةِ العربيـة كثيـرًا؛ مثـل اللُّغَـةِ الروسـية والألمانيـة؛ فـإن فيهـا مـن التصاريـف وتعـدد الحـالات عـلى الاسـم والشـذوذ مـا لا يذكـر بجانبـه مـا في اللُّغَـةِ العربيـة منـه.

وإذا تعلـم الأجنبـيُّ قوانـين لُغتِـه فليـس عـن حاجـة إليهـا، ولا لإحسـان مَلَكَتـه، ولكنـه إنمـا يتعلمهـا تبعًـا للعـادة، أو لمـا قـد يكـون في درس هـذه القوانـين مـن ترويـض للعقـل؛ ولذلـك سُـمي النحـو في اللُّغـاتِ الإفرنجيـة منطـق اللُّغَـةِ أو إقليـدس اللُّغـة. وقـد رأيـت أن ابـنَ خلـدون قـال في كلامـه عـن الأسـلوب المغـربي الـذي مـرَّ ذكـره: «إن صناعـة العربيـة أصبحـت مـن جملـة قوانـين المنطـق العقليـة أو الجـدل» ولكـن رياضـة العقـل فيـما لا تدعـو إليـه حاجـةٌ إسرافٌ في غـير محلـه. وكـم نجـد في اللغـات الأجنبيـة مـن كِبَـارِ الكُتَّـابِ والشـعراءِ والخطبـاءِ مَـن لم يتعلمـوا شـيئًا مـن قوانـين لُغاتهـم، وهـي نفـس الطريقـة التـي كان العـرب يأخـذون بهـا لُغتهـم قبـل وضـع عِلـم النحـو، فكـم نبـغ في الأمـة العربيـة في ذلـك العهـد مـن الشـعراءِ والخطبـاءِ، وبينهـم مَـن لم يكـن يعـرف القـراءة ولا الكتابـة، مثـل: المتلمـس، والفـرزدق، وذي الرُّمَّـة وغيرهـم، وهـم هـم الذيـن مـن أقوالهـم اسـتخرج النحـاةُ أحـكامَ النحـو، وبأقوالهـم لا يزالـون يحتجـون.

وعـلى هـذه الطريقـة جـرى كثـيرون بعـد وضـع عِلـم النحـو مـن قديـم الزَّمـان إلى اليـوم وبينهـم مَـن لم يكونـوا في أول نشـأتهم مـن أهـلِ العِلـمِ

والأدبِ؛ بل كانوا يتعاطون أعمالًا يدوية مثل سري الرفاء، الذي نبغ في الشعر على عهد سيف الدولة وهو يرفو ويطرز في دكانه. ومِن الذين جروا على هذه الطريقة في عصرنا هذا الذي كدنا نصبح فيه غرباء عن اللُّغَةِ العربية محمود سامي البارودي، الذي قيل فيه إنه متنبي عصره، فقد كان من أولئك الذين تعلموا على الأسلوب الخلدوني، أي تعلم اللُّغَةَ مِن اللُّغَةِ نفسها، فكان إذا وقع الاسم في كلامه بعد «أن» أو إحدى أخواتها نصبه قياسًا على نظائره من أقوال غيره من الشعراء المتقدمين لا على أحكام «أن» وأخواتها، ومثله كثيرون؛ بل لعل أكثر الذين يحسنون المَلَكَةَ مِن كُتَّابِنا وأُدبَائِنا لا يُحسنون الفاعل من المفعول، ولا المرفوع من المجرور.

وقد لُوحظ أن الذين يشتغلون بتمثيل الروايات الموضوعة باللُّغةِ العربية الصحيحة قد أصبح الإعراب فيهم مَلَكَةً مع أن أكثرهم أُمِّيُّون، فكيف اكتسب كل هؤلاء ملكة اللغة؟! اكتسبوها بالتقليد والبداهة والحفظ والاستعمال. وإذا عرف الذين نبغوا بعد وضع عِلم النحو قوانين اللُّغَة وراعوها في الاستعمال فلأنهم استخرجوها من اللُّغَةِ بالاستقراء فهم تعلموا الصِّناعةَ من المَلَكَةِ لا المَلَكَة من الصِّناعةِ، وهذه الأحكام التي استخرجوها بالاستقراء لم يكن لها أقل علاقة بإجادتهم في الفنين من المنظوم والمنثور؛ بل إن الذين درسوا النحو في مطولاته إذا قرءوا أو كتبوا أو تكلموا راعوا في ذلك وحي السليقة لا أحكام النحو على حدِّ قول الشاعر:

ولست بنحوي يلوك لسانه

ولكن سليقي أقول فأعرب

إذا رأينا أبناءنا يعجزون عن اكتساب ملكة اللُّغَة قراءةً وكتابةً وتكلمًا، فليس ذلك ناشئًا عن جهلهم قوانين اللغة، ولا عن صعوبة اللُّغَة العربية، ولا عن عجز الأساتذة عن تدريسها؛ وإنما السر في ذلك أن اللُّغَة في أكثر مدارسنا ليست اللُّغَة الحية. فسدت الملكة العربية يوم خالطنا الأعاجم فما قولك الآن وقد حلت اللغات الأجنبية محل لُغتنا في بيوتنا ومدارسنا وتعاملنا؟! يدخل أبناؤنا إلى المدارس الأجنبية فلا يلبثون أن يعرفوا اللُّغات الأجنبية أكثر مما يعرفون لُغتهم، فيحسب الوالدون ورؤساء المدارس أن ذلك ناشئ عن صعوبة اللُّغَة العربية وسهولة اللغات الأخرى، ولو تدبرنا الأمر لرأينا أن أبناءنا إنما يتقنون اللُّغات الأجنبية على صعوبة أكثرها بالقياس إلى لُغتنا، وعلى جهل أكثر أساتذتها بأساليب تدريسها؛ لأنهم يسمعونها ويستعملونها دائمًا، فهم يدرسونها في الحساب والجغرافيا والتاريخ والموسيقى والرسم واللعب وسائر الفروع، فضلًا عن دروس اللُّغَةِ من قراءة واستظهار وإنشاء ومحادثة وإملاء وخط، ويتكلمون بها في غُرفِ التدريس وفي ساحات اللعب، وفي دخولهم وخروجهم، فلا عجب إذا انطبعت على ألسنتهم واستسهلوا فيها كلَّ صعبٍ. والأمر بالعكس في لُغتهم فهم لا يستعملونها إلا قراءةً، وإذا تكلموا في المدرسة أو خارجها، فبلُغة أخرى، إما بلُغة أجنبية وإما باللُّغة المحكيةِ العاميةِ، فما أشبه لُغتنا — والحالة هذه — باللُّغتين اللاتينية واليونانية القديمة اللتين تدرسان لا لتستعملا في التخاطب والتعامل مثل سائر اللُّغات الحيَّةِ، ولكن لفهم أدبياتهما القديمة؛ بل ما أشبهها باللُغات الميتة التي يدرسها البعض لأغراض فيلولوجية أو تاريخية.

لا تحيا لُغتنا إلا إذا كانت لُغة التعليم، إلا إذا استعملناها تكلمًا وقراءةً وكتابةً، ولا بأس هنا من التفصيل ولو باختصار تتمةً للفائدة.

أمَّا التكلم فيجب على الأستاذ ألا يخاطب تلاميذه إلا باللُّغة الصحيحة وألا يستعمل اللُّغَةَ المحكية في حال، وإلا انطبعت هذه اللُّغَةُ المحكيةُ العاميةُ التي يُخاطبهم بها على ألسنتهم أكثر من اللُّغَةِ الصحيحةِ التي يُحاول أن يُعلِّمَهم إياها. وإذا كانت أحسن الطرق لاكتساب مَلَكَةِ اللُّغَةِ هي مُشافهة أهلها ومعايشتهم، وإذا لم يكن هذا العصر عصر فصاحة، فلا بُدَّ أن يمثل الأستاذُ بنفسه الأمة العربية في عهد فصاحتها؛ ولذلك يجب أن يكون الأستاذ مُهذبَ اللفظِ، جميلَ الذوقِ، بصيرًا بحال الملكة؛ لأن التلميذ يتعلم من لُغة أستاذه أكثر مِمَّا يتعلم من شواهد كلام العرب. وليس شيء أضر باللُّغة وأدعى بفساد المَلَكَةِ من الأستاذ العيِّ الذي يُعلِّم قوانينَ اللُّغَةِ وأصول الفصاحة والبلاغة وهو عامي اللفظ يرمي الكلام على عواهنه. ما أشبه أستاذ اللُّغَةِ العربية الذي يُعَلِّم اللُّغَةَ الصحيحة ولا يتكلم إلا بالعامية بمَن يُعلِّم اللُّغَةَ الإنكليزية وهو يخاطب تلاميذه بالإفرنسية أو غيرها، وما أحراه أن يفشل. إذا أردت أن تكلف تلميذك القيام أو القعود أو القراءة أو الكتابة فقل له: قم، اقعد، افتح الكتاب، اقرأ السطر الأول، اكتب، امح اللوح، أمسك القلم، فيتعلم الأمر من قام وقعد وقرأ وكتب ومحا وأمسك، ويتعلم أن ينصب المفعول به في: «افتح الكتاب» و«اقرأ السطر» و«امح اللوح» و«أمسك القلم»، من فوره وبدون عناء، ويقيس أمثالها عليها، ولا يفيده شيئًا أن يعرف قاعدة بناء الأمر من الصحيح والمضاعف والمثال

والأجوف والناقص واللفيف المفروق واللفيف المقرون والمهموز من الثلاثي والرباعي والخماسي والسداسي، ولا يفيده شيئًا أن يعرف أحكام المفعول به بحذافيرها، وإنما يفيده أن يسمع غيره يستعمل اللُّغَةَ على الوجه الصحيح فيقلده، وكذلك يجب على الأستاذ أن يكلف تلاميذه ألا يتكلموا إلا باللُّغة الصحيحة وهم إذا سمعوها فألِفُوها ففهموها هان عليهم التكلم بها.

وأمَّا القراءة فهي من أهمِّ مصادر اللُّغة. أين توجد اللغة؟ اللُّغَةُ لا توجد في كُتب النحو ولا في معاجم اللُغة، وإنما توجد في أدبياتها، في أشعارها، في أمثالها، في كُتب تاريخ الأمة وأخبارها، في كُتب علومِها؛ كالحساب والجغرافيا وسائر الفروع، وما أجدر الأستاذ أن يتناول دروسَه في القراءة كل هذه الموضوعات لا أن يقتصر على موضوع واحد، ولِيَعلم أن المقصود من دروس القراءة ليس التمرين عليها؛ فإن هذا يكفيه الكتاب الأول في الفصول الابتدائية، وإنما الغرض من دروس القراءة التعرف باللُّغة والتفقه في تراكيبها وأساليبها ومخالطة عباراتها، ولكل ذلك أصول دقيقة ليس هذا محل التبسط فيها. ليُرَغِّبَ الأستاذُ تلاميذَه في المطالعة؛ ولذلك يجب أن يكون في كلِّ مدرسةٍ مكتبة صغيرة للتلاميذ تجمع فيها الكتب النقية العبارة، الصحيحة الأسلوب، المنزهة عن العجمة والركاكة والتعقيد. وليحذر أن يجعل في أيديهم تلك الكتب التي توخى فيها أصحابُها العنايةَ بالصِّناعة اللفظية فخرجوا باللُّغةِ عن حالتها الطبيعية، فقد آن للأمة العربية أن تخلص من هذا

المرض، واحتفاظًا برغبة التلاميذ في المطالعة يجب عليه أن يُنوِّع الكتب ويُجددها من وقتٍ لآخر.

وأمَّا الكتابة فبعد أن يُمرِّن تلاميذه عليها في الفصول الابتدائية يجدر به أن ينشئ لهم جمعية يقدمون فيها الخطب والمناظرات، ويلقون فيها أجمل ما يستظهرون من القصائد على مثال الأسواق الأدبية التي كان العرب يجتمعون فيها للمفاخرة والمناشدة والمناضلة، كسوق عكاظ في الجاهلية، وسوق المربد في الإسلام، ثم لينشئ لهم جريدةً يتولون كتابتها بأنفسهم، ولكن ليحذر من أن يكثروا أبوابها، ومن أن يتقاضاهم أن يطيلوا في مقالاتهم، ومن أن يكتبوا في موضوعات لا يعرفون عنها شيئًا؛ فإن ذلك يرهقهم ويسئمهم وينفرهم من الكتابة.

***

ومِمَّا لا بد منه استدعاء الانتباه إليه أن كل دروس اللُّغَةِ من قراءةٍ ومحادثةٍ وإنشاءٍ وإملاءٍ يجب أن تُمزج معًا، لا أن يُؤخذ كل منها على حدة. فكل درس يجب أن يقرأه التلميذ، وأن يفهمه، وأن يتكلمه، وأن يُمْلِيه، وأن يتمرن على الإنشاء فيه، فإذا كان درس القراءة القصة التالية:

كان صبي مرَّةً يصيد الجراد فوجد عقربًا فظنها جرادة، فمد يده ليأخذها، ثم تباعد عنها. فقالت له: لو أنك قبضتني بيدك لتخليت عن صيد الجراد.

فبعد أن يقرأها التلاميذ ويفهموها، ليكن السؤال والجواب على الوجه الآتي:

ماذا كان الصبي مرة يصيد؟ كان الصبي مرة يصيد الجراد.

ماذا وجد الصبي؟ وجد الصبي عقربًا.

ماذا ظنَّ الصبي العقرب؟ ظن الصبي العقرب جرادة.

لماذا مد الصبي يده؟ مد الصبي يده ليأخذها.

لماذا تباعد الصبي عن العقرب؟ تباعد الصبي عن العقرب؛ لأنه عرف أنها عقرب.

ماذا قالت له؟ قالت له العقرب: لو أنك قبضتني بيدك لتخليت عن صيد الجراد.

وبعد هذه المحادثة يكلفهم أن يحكوا القصة باللغة الصحيحة، ومن أخطأ أرشده وطلب منه أن يعيد العبارة، ثم يكلفهم أن يكتبوها كما حكوها؛ ففي ذلك تمرين على الإنشاء والإملاء معًا، ثم ليكلفهم أن يحولوها للمؤنث بأن يقولوا: كانت بنت مرَّةً تصيد الجراد ... إلخ، ثم للمُتكلم بأن يقولوا: كُنت مرَّةً أصيد الجراد ... إلخ، ثم ليكلفهم أن يكتب كل منهم خمس جمل على مثال: «وجد الصبيُّ عقربًا»، مثل: «وجد التلميذُ قلمًا»، «وجد سليمٌ ريشةً»، وخمس جمل على

مثـال: «لـو أنـك قبضتنـي لتخليـت عـن صيـد الجـراد»، مثـل: «لـو أنـك أسرعـت لأدركـت القطـار»، «لـو أنـك انتبهـت لفهمـت كلام الأسـتاذ»، ومـا اسـتعصى عليهـم تحصيلـه فليكـثر مـن تمرينهـم عليـه، وليكـثر مـن التكـرار.

ويجـب أن يكـون في كل درس جديـد بعـض مـا في الـدرس الـذي سـبقه مـن ألفـاظ وتراكيـب؛ لتكـون الـدروس سلسـلة يـؤدي بعضهـا إلى بعـض. ولمـا كان العـدد في اللُّغَـةِ العربيـة كثـير التفاصيـل، وقـد قـال فيـه أحـدُ أدبـاء العـصر:

في النحو لا يقهرني

إلا تفاصيل العدد

فـالأولى أن تعلـم هـذه التفاصيـل ويُمـرن التلاميـذ عليهـا وعـلى مميـز «كـم» الاسـتفهامية في دروس الحسـاب، كـما قـد يعلـم غيرهـا ويمـرن عليـه في غـيره. وإحيـاء اللُّغَـة قـراءةً وتكلـمًا وكتابـةً يحتمـل كلامًـا طويـلًا، ولكـن بهـذا القـدر كفايـة.

هـذا هـو الأسـلوب الـذي ندعـو إليـه وللأسـاتذة الكـرام في إيثـاره الـرأي الموفـق إن شـاء اللـه.

قصيدة حافظ إبرهيم في الدستور والدكتور طه حسين

انتقد الدكتور طه حسين قصيدة حافظ في الدستور بعد أن صدَّر انتقاده بمقدمة تشف عن أدب رائع وأسلوب رشيق جميل يفتن القارئ، ويغري الكتَّاب أن يتحدوه، ولست الآن في مقام درس أسلوبه، وإنما غرضي من هذه العجالة أن أعلِّقَ كلمةً على انتقاده لقصيدة حافظ: أعرف للأستاذ طه حسين مكانته، وأعده مع طائفة من كُتاب مِصر وأساتذتها أصحاب الكفايات، من أركان هذه النهضة الجديدة في مِصر؛ بل في العالم العربي كله. وقد كنا نتطلع دائمًا إلى ما يكتبه الأستاذ ورفاقه، وكم يتمنى كثيرون لو يستطيعون أن يؤموا مِصر ليتلقوا ما يلقيه الأستاذ ورفاقه من الدروس العالية في الجامعة المصرية الزاهرة؛ بل كم كنا نتمنى لو ينشط الأستاذ ورفاقه إلى إنشاء مجلة أو جريدة يعرضون فيها ما تعمقوا فيه وأحاطوا به من علم وفلسفة وأدب وسياسة، فكانت جريدة السياسة الغراء ما نتمنى ...

الجامعة المصرية وجريدة السياسة من أهمِّ ما تحتاجه البلاد في دورها الجديد، وللأستاذ طه حسين فيهما المنزلة العالية.

وبعدُ، فليسمح لنا الأستاذُ أن نبدأ بكلِمَتِنا عن انتقاده.

يظهر لنا من أسلوبِ الأستاذ في انتقاده أو تقريظه أنه يكتفي بالإشارة إلى مواضع الإساءةِ أو الإحسانِ بدون أن يوطئ لقولِه ببيان الأصول التي يرجع إليها، مِمَّا قد يُوهِم أنه مُتحكم وليس هناك تحكم، أو أنه مُتحامل وليس هناك تحامل، ولست أحمل ذلك منه إلا على أحد

أمريـن: إمَّـا عـلى اعتقـاد منـه أن القـارئ يعـرف تلـك الأصـول؛ فـلا حاجـة إلى بسـطها، وإمَّـا عـلى أن المقـام أو الوقـت لا يتسـعان للتبسـط فيهـا، عـلى أنـه إذا كان بـين القُـرَّاءِ مَـن يعـرف بعـضَ تلـك الأصـول، فـإن أكثرهـم يجهلهـا أو ليـس بينهـم مـن يعرفهـا كلَّهـا، وإذا كان المقـام أو الوقـت لا يتسـعان لبسـط تلـك الأصـول، فـما أحـرى الأسـتاذ أن يحيلنـا عـلى مراجعهـا، أو أن يعدنـا بالتبسـط فيهـا وهمتـه عاليـة.

***

كان علَّامتنـا المرحـوم الشـيخ إبرهيـم اليازجـي صاحـب مجلـة الضيـاء يضطـر فيـما ينتقـده عـلى الأولـين والآخريـن إلى بيـان الأصـل الـذي يرجـع إليـه إذا كان معروفًـا، أو إلى بسـطه إذا كان مـن اسـتنباطه واجتهـاده، فـكان انتقـاده دروسًـا ثمينـة في اللُّغَـةِ والأدبِ. مـن ذلـك أبحاثـه الطريفـة الطويلـة في: «الشـعر» و«المجـاز» و«اللُّغـة والعـصر»، ولا يخفـى مـا في ذلـك مـن تعزيـز انتقـاده، وإنصـاف الذيـن ينتقدهـم، وإفـادة قُرَّائِـه. وللأسـتاذ في إيثـار هـذه الطريقـة رأيـه العـالي.

***

يقـول الأسـتاذ: إن حافظًـا قـد شـعر كثـيرًا فأجـاد الشـعر وأحسـنه، ولكنـه لم يذكـر شـيئًا مـن ذلـك الشـعر الـذي أجـاده وأحسـنه، ووجـه الإجـادة والإحسـان فيـه.

يقـول إنـه بحـث عـن الشـعر في هـذه القصيـدة فلـم يجـد شـيئًا، فـما هـو الشـعر؟

يقـول إن الشـاعر قـد يرتفـع وقـد يهـوي، فـما هـي الأحـوال التـي قـد يرتفـع الشـاعر وتلـك التـي قـد يهـوي فيهـا؟ أو بالأحـرى مـا هـي الأحـوال التـي علـت بحافـظ وتلـك التـي هـوت بـه؟

يقـول إن هـذا العـصر ليـس عـصرًا شـعريًّا، فهـل السـبب في ذلـك الحيـاة السريعـة العمليـة التـي صرنـا إليهـا، أم أن هنـاك أسـبابًا أخـرى تضـاف إلى هـذا السـبب؟ ثـم مـا هـو ذلـك الـشيء في حياتنـا الاجتماعيـة الـذي يضطـر الشـعراء إلى السـكوت؟ ومـاذا يُكرههـم عـلى أن يتكلمـوا؟

ثـم أخـذ بعـضَ الأبيـاتِ مـن تلـك القصيـدة واكتفـى بسـؤال القـارئ: «هـل تـرى فيهـا شـيئًا مـن جـمال الشـعرِ وروعـةِ الفـنِّ؟» كيـف يكـون الشـعر جميـلًا، وكيـف يكـون الفـنُّ رائعًـا؟ أجـل الأسـتاذ عـن أن يحيلنـا في إدراك ذلـك الجـمال وتلـك الروعـة عـلى الـذوق، فإننـا نعتقـد أن هنـاك أصـولًا للجـمال وشروطًـا لروعـة الفـنِّ، ثـم مـاذا يعنـي بالابتـذال؟ ومتـى يكـون الـكلام رصينًـا متينًـا في غـير وحشـية ولا ابتـذال؟ وهـل في قولنـا: «طلعـت الشـمسُ» و«غـابَ القمـرُ» و«جـاءَ الرجـلُ» و«ضحـكَ الغـلامُ» ابتـذال؟

ثم أخذ قول حافظ:

أيـأذن لي المليك البر أني

أهنـئ مصر بالأمر الكريم

فقال: «أترى فيه لفظًا من ألفاظ الشعر أو معنى من معاني الشعر؟» مِمَّا يستفاد منه أن الشعر قد يكون شعرًا بلفظه، وقد يكون شعرًا بمعناه، وقد يكون شعرًا بهما معًا، فما هي ألفاظ الشعر؟ وما هو جنس المعاني الذي يكون به الشعرُ شعرًا؟ إلى غير ذلك مِمَّا لا نشك أن الأستاذ من أقدر الناس على التبسط فيه، ولعل وقته يتسع له إن شاء الله.

اللغـة العربية في نهضتها الأخيرة

لم تسـتيقظ الأمـةُ العربيـة مُنـذ جيـلٍ أو أقـل مـن سُـباتها الطويـل، إلا وقـد انقطـع عهـد الألسـنة باللُّغـة الفصحـى، ولم يبـق مـن صِلـةٍ بـين الأمـةِ والسـلفِ الصالـح إلا ألفـاظٌ قليلـةٌ تبدَّلـتْ مقاطِعُهـا وتغـيَّرتْ هيئاتُهـا، وإلا تعبـيرات مشوشـة مختلـة.

ولـو أن داعيًـا دعـا في ذلـك العهـد إلى اسـتبدال اللُّغَـةِ العاميـة مـن الفصحـى، واعتمادهـا في الكتابـة لم يجـد مـن يُنكـر عليـه ذلـك؛ لأن الأمـة بأسرهـا كانـت غريبـة عـن اللُّغَـةِ الفصحـى وآدابِهـا، فكيـف تتعصـب لهـا وتـذود عنهـا وهـي لا تعرفهـا؟ وفـوق ذلـك لم يكـن التعليـم في يدهـا، بـل كان في يـد غيرهـا.

ولكـن مـن حسـن حـظ هـذه اللُّغَـةِ أن جعـل التعليـم بهـا، وكان أول مـا فعلـه أولئـك الرؤسـاء الغربـاء الكـرام أن جمعـوا مـا وصلـت إليـه أيديهـم مـن الكتـب العربيـة — وكانـت مبعـثرة هنـا وهنـاك لا يعـرف أحـدٌ قيمتهـا — وأوعـزوا إلى مـن اسـتعانوا بهـم مـن الأسـاتذة أن يتصفحوهـا ويسـتقروا ألفاظهـا، ويسـتخرجوا مخبآتهـا بحيـث كانـت النهضـة لأول عهدهـا لُغويـة.

ومَـن تصفَّـح أولَ مـا وُضِـعَ مِـن الكُتـب المدرسـية في اللُّغَـةِ والرياضيـات والجغرافيـا والهيئـة والطبيعيـات والطـب وسـائر الفـروع؛ رأى مِـن صُنـعِ أولئـك المؤلفـين أنهـم حرصـوا كل الحـرص عـلى اقتبـاس ألفـاظ القدمـاء العلميـة والفنيـة، ومـع تقصيهـم في التنقيـب والاسـتقراء لم ينزلـوا مـن اللُّغَـةِ العربيـة منزلـة أهلهـا؛ بـل كانـوا منهـا مـكان الغربـاء عنهـا، عرفـوا

الشيء الكثير من ألفاظها وتراكيبها وأحكامها، ولكنهم لم يحسنوا استعماله واستثماره، فكنت ترى كتاباتهم خليطًا من الفصيح والركيك، والجيد والرديء، فالفصيح والجيد مِمَّا ينسخونه، والركيك والرديء مِمَّا يمسخونه؛ بل ما كان أشبه اللُّغَةِ الفصحى عندهم باللُّغة اللاتينية أو اليونانية عند الغربيين اليوم؛ يأخذون منهما ألفاظهم العلمية والفنية وهم غرباء عنهما، وهما ميتتان عندهم.

لم يكن هناك عِلم لُغةٍ أو أدبٍ أو شعرٍ؛ إذ لم يكن اللُّغوي لُغويًّا إلا على قدر ما يَعِي في صَدْرِه من ألفاظ اللُّغَةِ وغَرَائِبِها وشوارِدِها، فكان أشبه بالحُفَّاظِ والرواة منه بالعلماء، ولم يكن الأديب أديبًا إلا على قدر ما يغير على ألفاظ المتقدمين فيسردها سردًا ويكيلها جزافًا، فكان أبرعهم في الأدب مَن إذا كَتب في موضوعٍ نسخ كلَّ كلمةٍ فيه من كلام متقدمي الأدباء والكتَّاب، ولو سلخ في تفقد اللفظة والتفتيش عنها في مظانِّها الأسبوع والأسبوعين، فإذا أراد أن يقول: «رجع فلان خائبًا» قال: «رَجَعَ بِخُفَّيْ حُنَيْن»، وإذا أراد أن يقول: «ليس لفلان في الأمر دخل» قال: «لا ناقة له فيه ولا جمل»، وإذا أراد أن يقول: «إن فلانًا استقصى أطراف علم كذا» قال: «ملك عنانه وقياده ورسنه» و«له فيه القدح المعلى»، و«إليه تُشد الرحالُ وتُضرب أكباد الإبل»، وإذا أراد أن يقول: «إن هذه المسألة لا يَختلف فيها اثنان» قال: «لا ينتطح فيها عنزان»، وإذا أراد أن يقول: «إن فلانًا يشبه فلانًا» قال: «حذوك التمرة بالتمرة، والقذة بالقذة، والغراب بالغراب، والنعل بالنعل»، وإذا أراد أن يقول: «إن فلانًا منقطع النظير» قال: «فلان قريع وحده» إذا مدح، و«جحيش

وحـده» إذا ذمَّ، وإذا هنـأ بـزواج قـال: «بالرفـاء والبنـين»، وإذا رثى قـال: «انقـض عـليَّ نعـيُ فـلان انقضـاض الصاعقـة» و«ثـل بموتـه عـرش المجـد ونضـب معـين الأدب»، وإذا وصـف قومًـا بالإطـراق والتفكـير، قـال: «كأن عـلى رءوسـهم الطـير»، إلى غـير ذلـك.

والكلمـة التـي لا يعـرف لهـا قائـلًا لا يتنـازل إلى اسـتعمالها ولـو وردت في كلِّ مُعجـمات اللُغـة؛ بـل كان مـن الأدبـاء ولا يـزال منهـم إلى اليـوم مَـن إذا أراد أن يسـتعمل كلمـةً بَحَـثَ عـن عمرهـا فـإذا لم يُـربِ عـلى ألفـي سـنة أو ألـف عـلى الأقـل فـلا يسـتعملها؛ بـل كان منهـم ولا يـزال كثـيرون إلى اليـوم مَـن إذا جـاء بكلمـة أتبعهـا بمرادفاتهـا عـلى غـير اقتضـاء ولا مناسـبة؛ تبجحًـا بكـثرة محفوظـه وسِـعة معرفتـه. وقـد وقـع في يـدي مـن عهـد قصـير كِتـابٌ لكاتـبٍ مِـن أمثـالِ هـؤلاء الكُتَّـاب لم تـرد فيـه كلمـةٌ إلا ومرادفاتهـا معهـا، مِـن ذلـك قولـه: «فـلان قـصيٌّ مـدى البـصر بعيـد مرمـى النظـر»، وقولـه: «لسـنا بغـاة نصفـة ولا عفـاة معدلـة»، وقولـه: «لم نـرَ إلا رجـلًا مغشـيًّا بالغـل محنيًّـا عـلى الضغينـة»، بحيـث لـو حذفـت المترادفـات منـه لم يبـق منـه إلا الربـع أو الخمـس أو أقـل، بـل كان منهـم ولا يـزال كثـيرون إلى اليـوم مـن أولـع بالغريـب، فـإذا رأى أن كلمـة «ورق» مثـلًا شـائعة معروفـة اسـتعمل كلمـة «قرطـاس»، فـإذا شـاعت اسـتعمل كلمـة «كاغـد»، فـإذا شـاعت اسـتعمل كلمـة «مهـرق»، فـإذا شـاعت ولم تبـق لديـه أو في اللُّغَـةِ كلمـة غريبـة بمعناهـا؛ تحـاشى الـكلام في موضـوع لـه علاقـة بالـورق؛ بـل قـد يهجـر الكتابـة بتاتًـا إذا كلـف أن يكتـب بلغـة النـاس ... وقـد بلـغ مـن تهافـت كاتـب في مـصر في الجيـل العشريـن عـلى الغريـب أنـه قـال في

كتاب ترجمه عن الإفرنسية: «خِرِّيت سبروت هذه الفكرة هو فولتير» أي: صاحب هذه الفكرة هو فولتير.

أعوذ بالله وأعيذ اللُّغَةَ العربية من مثل هذا، فأنت ترى أن الأديب كان أشبه بالناسخ بل بالماسخ منه بالأديب.

لم يكن الشاعر شاعرًا إلا إذا قلد المتقدمين من الشعراء في المديح والهجاء والتشبيب والرثاء وغير ذلك من أبواب الشعر في ألفاظهم وأساليبهم، فكان أشبه بالوزان منه بالشاعر؛ بل بالصدى منه بالصائت المحكيِّ.

وعلى الجملة لم يكن هناك علماء وأدباء وشعراء بل حُفَّاظ ورُواة ونُسَّاخ ووَزَّانُون، وكلهم مقلدون، والتقليد كما رأيت لا يكون في أوله إلا مشوشًا ثم يصير إلى الإجادة والإتقان، وقد رأينا مِن الكُتَّابِ في العهد الأخير ولا تزال منهم طائفة إلى اليوم مَن إذا كتبوا أحسنوا التقليد وجروا على مناحي العرب، كأنهم من سلالة صاحب الأغاني أو العقد الفريد أو الكامل، أو كأنهم الجاحظ وابن المقفع والزمخشري وبديع الزمان الهمذاني والحريري بُعِثوا في هذا العصر.

ولكن التقليد تقليد؛ سواءٌ أكان مشوشًا أم متقنًا، والمقلد مهما أجاد وأتقن فإنما هو غريب دخيل، وما زمن التقليد في حالتي التشويش والإتقان إلا زمن تعلم وتحصيل لا زمن ابتكار واستثمار.

وقد كان من فائدة هذا التقليد أن تجدد عهد الفصاحة، ولعمري إنها

لفائدة عظيمة يستحق عليها كل من اشتغلوا باللُّغة الثناء الطيب ولو كانوا مقلدين، لم تكن للأمة لغة فصارت لها لُغة، وإنها لَلُغةٌ غنيةٌ، ولم تكن لها أدبيات فصارت لها أدبيات، وإنها لأدبيات راقية، وما إحياء لُغة انقطع عهد الألسنة بها منذ أمد بعيد، وما إحياء أدبيات كاد يعفيها الزَّمان؛ بالمطلب السهل الذي يتم في زمن قصير مثل هذا الزَّمن الذي مضى منذ أول هذه النهضة إلى اليوم، لولا هِمَّةُ أولئك الأبطال زعماء النهضة، وما رزقوا من الذكاء والجلد، وهيهات أن يجود الزَّمان بمثلهم، يكفيهم فضلًا أنهم وصلوا ما انقطع من سلسلة نسبتنا إلى السلف الصالح، وأنزلونا منهم منزلة الأبناء من الآباء، بعد أنْ كُنَّا أدعياء لا أصل لنا ولا فصل. ولم يبق لنا بعد أن اجتزنا دوري التقليد — أي دور التشويش ودور الإتقان — إلا أن ننزل من اللُّغَةِ منزلة أبنائها منها.

فعَالِمُ اللُّغَةِ اليوم لا تقاس معرفته بما وعى من ألفاظِ اللُّغَةِ وشواردها وغرائبها، ولكن بما عرف من أصولها وخصائصها، والأديب ليس ذلك الذي إذا كتب استعار ألفاظ غيره؛ سواءٌ أرادها أم لم يردها، ناسبته أم لم تناسبه، ولكن هو الذي يتصرف بألفاظ اللُّغَةِ كما كان يتصرف بها أبناؤها، فكلُّ كلمةٍ يقولها هي له تُترجِم عمَّا في نفسه. والشاعر ليس ذلك المُقلِّد الوزَّان، ولكنه هو الذي يصدر فيما يقوله عن وحي طبعه وإلهام خياله، يتحكم بلفظه لا يتحكم لفظه به ... ويسرنا أن نقول إن في مِصر اليوم من أنصار هذا المذهب الجديد عددًا ليس بقليل، ونمسك القلم عند هذا القدر ولعلنا أطلنا.

كتاب الكامل وبعض كتاب هذا العصر

قال ابن خلدون: «سمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول الأدب وأركانه أربعة دواوين، وهي: كِتاب الكامل للمبرد، وأدب الكِاتب لابن قتيبة، وكِتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكِتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفرع منها.»

لست أقصد أن أُبيِّن لك ما هو الأدب في عُرف ابن خلدون وشيوخه، وإنما أقصد أن أُبيِّن لك أسلوب كِتاب الكامل ثم ما بينه وبين صحفنا وكتبنا من شبه أو اختلاف.

ترى في كِتاب الكامل صرفًا ونحوًا ولُغةً وشِعرًا وأخبارًا، وما تراه في كِتاب الكامل تراه في غيره من دواوين الأدب التي أشار إليها ابنُ خلدون مع اختلافٍ قليل فيما يروونه. ولكن كِتاب الكامل وأشباهه من الكُتبِ القديمة ليست من أُمهات الكتب في الصرف والنحو واللُّغة والشِّعر والأخبار، وإنما هي تعاليق على هذه الأبواب كلها، قد تستفيد منها ولكنك لا تكتفي بها ... وكان الأولى أن يكون كل نوع منها حواشي على كتبه الخاصة به، أي أن تضم الأبحاث الصرفية إلى كتب الصرف، والأبحاث النحوية إلى كتب النحو، والأبحاث اللُّغوية إلى كُتب اللُّغة، وأن يرد كل شِعرٍ إلى ديوان قائله، وأن تُضَم الأخبارُ إلى كُتبِ الأخبار إذا كانت في هذه الحواشي والتعاليق استدراكات مفيدة خلت منها أمهات كتبها، وإلا فإن هذه الأبحاث المقتضبة غير المستوفاة قليلة الفائدة، فإنك إذا قرأت كِتاب الكامل من أوله إلى آخره فلا تخرج منه صرفيًّا

ولا نحويًّا ولا لُغويًّا ولا يقضي حاجتك كلها ما يرويه من الشِّعر وما يقصه من الأخبار، ولا بد لك في استيفاء حاجتك من ذلك كله أن ترجع إلى كتبه الخاصة به.

ومن يقرأ صحفنا الراقية وبعض ما يظهر بين آنٍ وآخر من الكتب يَرَ أنها أشبه بكتاب الكامل من حيث الأسلوب فهي ليست إلا تعاليق في كلِّ فنٍّ وعلمٍ ومطلبٍ، قد تستفيد منها ولكنك لا تجد حاجتك كلها فيها، تبحث في الأدب والعلم والفلسفة والاقتصاد وغير ذلك ولكنها كلها أبحاث مقتضبة غير مستوفاة ولا مشبعة، وقل بين كتابنا — مهما أحاط بموضوعه — من يستطيع أن يفرغ كل ما يمكن أن يعلم عن ذلك الموضوع في مقاله ... وما رأي كتابنا وأدبائنا لو كلفوا أن يجعلوا من مقالاتهم ورسائلهم التي ينشرونها في الصحف أو يجمعونها في كتاب برأسه محاضرات وأباحوا للسائلين أن يسألوا، أفلا يضيقون ذرعًا بما يتوارد عليهم من السؤالات والاستيضاحات؟ أو لا يضطرون أن يتوسعوا في البحث بما يكون توطئةً له أو استدراكًا عليه أو تعمقًا فيه؟ مِمَّا لا تحسب معه رسائلهم المنشورة وكتبهم المجموعة إلا شيئًا يسيرًا لا يغني القارئ كثيرًا؛ بل قد يشوش عليه الأمر ويستدرجه إلى اعتياد الإلمام بكل موضوع والاكتفاء منه بنتف يتناولها بإمرار النظر ... وما قولهم لو أرادوا أن يضعوا كتابًا برأسه في كل موضوع من الموضوعات التي يتعرضون لها في الصحف، أفلا يرون أنفسهم أنهم لا يكتفون بما كتبوا؟ أو لا يجدون أن ما كتبوه ليس إلا شيئًا يسيرًا مما يجب

أن يكتب؟ وأن هذه الفصول التي يكتبونها قد لا يجدون لها محلًّا مخصوصًا في كتبهم؛ لأنها ليست فصولًا قائمةً بنفسها.

وقد رأينا من كُتَّابِنا مَن يعتذر عن اضطراره إلى الإيجاز أو الإجمال أو الاقتضاب، واكتفائه بالإلماع وسكوته عن شيء كثير مِمَّا كان يجب أن يُقال، بأن الصحف لا تحتمل التعمق والإشباع والإحاطة وإرضاء الكاتب والقارئ، وأنه حسبه مِمَّا يكتب أن يسرك ويبعث في نفسك الشوق إلى طلب المزيد ... ولكن إنما يجوز ذلك إذا كان هناك كتب يرجع إليها في اللُّغَةِ العربية.

نحن — معشر القُرَّاءِ — في احتياج إمَّا إلى كُتبٍ في هذه الأبحاث، وإمَّا إلى عنايةٍ من الكُتَّابِ في إفراغ كل ما يعلمونه في مقالة برأسها، أو في سلسلة مقالات تجمع أشتات ذلك الموضوع وتحيط بأصوله وفروعه ولا تترك حاجة في نفس الكاتب والقارئ. ولعل الفرق بين كِتاب الكامل وما نقرؤه في صحفنا وكُتبنا اليوم أن لأبحاث كِتاب الكامل أمهات يرجع إليها، فإذا شوقك إلى الاستزادة وجدت من الكُتبِ ما يقضي حاجتك، وأمَّا ما يكتبه كُتَّابُنا وأدباؤُنا فلا مرجع له في اللُّغَةِ العربية، قد تُسَرُّ بما يكتبون، وتتشوق إلى الاستزادة، فلا هُم يَزيدُونك ولا كِتَاب يحيلونك عليه.

لغة الجرائد

مع انتشار صناعة القلم، وإحسان الكثيرين من كُتَّابِنا الألبَّاء مَلَكَة اللُّغة، وإتقانهم عُلوم اللِّسان، لا نزال نرى حتى في كلامِ الراسخين في اللُّغَةِ والإنشاءِ شذوذًا عن القياس أو السماع في ألفاظ اللُّغَةِ وأحكامِها وتعلقًا بأساليب وتراكيب لا يحكمها طبعٌ، ولا يُعينها ذوقٌ، ولا تلائم الحياة، ولا تنطبق على ما تقتضيه الحالة، مِمَّا تدعو معه الحاجة إلى أن يكون هناك من الجهابذة المحققين من يتفرغ لإصلاح الخطأ، والإهابة بالكتَّاب إلى اتباع المنهج السديد ... فإن الاستمرار على ذلك والتهاون به مِمَّا يفسد اللُّغَةَ ويَذهب برونقها.

فهل لجريدة السياسة الغرَّاء أن تُعنَى بِسَدِّ هذه الحاجة ورأيها موفق وهمتها عالية.

***

ولعل القارئ الكريم يذكر أن علَّامتنا المرحوم الشيخ إبرهيم اليازجي صاحب مجلة «الضياء» كان أول مَن تصدى للتنبيه على الغلط، فأنشأ في ذلك الفصول الطوال في مجلته في لُغة الجرائد، وفصولًا أخرى في أغلاط العرب وأغلاط المولدين؛ مِمَّا يجدر بكل أديب الرجوع إليه والاستبصار به. وقد مات — رحمه الله — وفي نفسه حزازات من لُغةِ الجرائد، كما مات قبله الفرَّاء وفي نفسه شيء من «حتى». وقد حاول المَجْمَعُ العلميُّ في دمشق في المدة الأخيرة أن يخلفه فلم يزد على

تكـرار مـا قالـه، وكان الأولى بـه أن يُعيـد نـشر مقـالات شـيخنا اليازجـي ويكفـي نفسـه مئونـة هـذا العنـاء.

ومـن العجـب أن ترى الأغلاط التي نبَّه عليها لا تزال متفشـية إلى اليوم.

***

وهنـا أتطفـل عـلى القـارئ الكريـم بإيـراد شيء — عـلى سـبيل المثـال — مـن تلـك الأغـلاط التـي لا يخلـو منهـا كِتـابٌ أو جريـدةٌ، وبذكـر بعـض تلـك التراكيـب والأسـاليب التـي أرى أن الأجـدر بنـا أن نتجافاهـا، ولا سـيما ونحـن ندعـي أن اللُّغَـةَ العربيـة لُغتنـا، وأننـا نزلنـا منهـا منزلـة أبنائهـا، وأتـرك التبسـط في ذلـك كلـه إلى أربابـه.

مـن تلـك الأغـلاط قولهـم: «فـلان كفـؤٌ لهـذا الأمـر» أي: أهـل لـه أو قـوَّام بـه، وهـو مـن ذوي الكفـاءَةِ بالهمـز، وإنمـا الكفـؤ النظـير، تقـول: هـو كفـؤ لفـلان أي: معـادل لـه، والكفـاءة المصـدر مـن ذلـك، تقـول: لا كفـاءة بيننـا. وأمـا المعنـى الـذي يريدونـه فهـو مـن معـاني «كفـى» المعتـل، يقـال: اسـتكفيته أمـرَ كـذا أي: كلفتـه القيـام بـه فكفانيـه، وهـو كافٍ لهـذا الأمـر وكفـيٌّ لـه أي: قـوَّام بـه، وهـو مـن أهـل الكفايـة.

وقولهـم: «أمكـن لـه أن يفعـل كـذا، ولا يمكـن لـه أن يفعـل كـذا» يعدونـه بالـلام وهـو متعـدٍّ بنفسـه.

وقولهـم: «عودتـه عـلى الأمـر وتعـود عليـه واعتـاد عليـه»، والصـواب حـذف الجـار في الـكل.

وقولهم: «أمرٌ هامٌّ» بصيغة الثلاثي، والأفصح: «مُهِمّ» بالرباعي.

وقولهم: «هل سنفعل كذا؟ وهل سيؤدي هذا إلى كذا؟» يريدون النصَّ على الاستقبال في الفعل فيأتون بالسين بعد «هل»، وهو خطأ؛ لأن «هل» إذا دخلت على المضارع خصصته للاستقبال مثل السين، وحينئذ يجتمع حرفان لمعنى واحد، والصواب حذف السين.

وقولهم: «هل لا يجوز أن يكون الأمر كذا؟ وهل لم تزر زيدًا؟ وهل ليس عمرو في الدار؟ وهل إذا فعلت كذا كان كذا؟» فيدخلون «هل» على النفي والشرط، والصواب استعمال الهمزة في كل ذلك.

وقولهم: «حديث مستفاض»، ومنه قول أبي تمام:

صلتانٌ أعداؤه حيث كانوا

في حديث من عزمه مستفاض

والصواب: حديث مستفيض أو مستفاض فيه.

وقولهم: «سواءٌ عليه فعل كذا أو كذا»، والصواب: فعل كذا أم كذا، وقد لحن في «المغني» قول الفقهاء: سواءٌ كان كذا أو كذا.

وقولهم: «قرأت هذا في صحيفة كذا من الكتاب»، يعنون الصفحة، وهي أحد وجهي الصحيفة، وإنما الصحيفة الورقة بوجهيها، ومنه قول السياسة وغيرها «صحيفة الأدب» و«صحيفة السيدات» وليس هناك إلا

صفحة واحدة.

ومن ذلك تأنيث البلد، وأبشع منه تأنيث الرأس، والصواب التذكير فيهما، ومنه تذكير السن والصواب تأنيثها، ومنه «رجل عجوز» ولفظة «عجوز» من الصفات الخاصة بالمرأة، إلى غير ذلك مِمَّا ليس من غرضنا تتبعه وتعداده من إنزال الكلمة في غير منزلها، واستعمال صيغة في موضع صيغة أخرى، أو حرف جرٍّ في موضع حرف جرٍّ آخر، مِمَّا نراه كل يوم في جرائدنا حتى في أكبرها وأرقاها، ولا يجوز السكوت عنه.

أما التراكيب التي ورثناها عن الأجيال الماضية ولم يبق مسوغ لها في عصرنا هذا؛ إما لهجنتها، وإما لأنها لا تنطبق في شيء على حياتنا، فكثيرة.

من التراكيب المستهجنة قولهم: «رفع فلان عقيرته» أي: صوته، والعقيرة: الساق المقطوعة، وليس في هذه المادة ما يدل على الصوت، وإنما الأصل في ذلك أن رجلًا قطعت إحدى ساقيه فرفعها ووضعها على الأخرى وصرخ، فقيل بعدُ لكل رافع صوته: قد رفع عقيرته.

ومن ذلك قولهم: «كأن على رءوسهم الطير» أي: ساكنون هيبةً، وأصله فيما يزعمون أن الغراب يقع على رأس البعير فيلقط منه القراد فلا يتحرك البعير؛ لئلا ينفر عنه الغراب، وغير ذلك ... ومن التراكيب التي لا تنطبق على حياتنا قولهم: «ألقى فلان عصا التسيار» و«فلان تُشدُّ إليه الرحال، وتضرب إليه أكباد الإبل»، و«ملك عنان الأمر وقياده»، و«له فيه القدح المعلى»، وهل للعصا والرحال والإبل والأعنة والمقاود

والقـداح دخـل في حياتنـا؟

يقولـون إن اللُّغَـةَ مـرآةُ الأمَّـةِ، وسِـجِلُّ تاريخهـا، وصـورةُ أحوالِهـا في كلِّ أدوارهـا، بحيـث إن مَـن تفقـد ألفاظَهـا، وتدبَّـر معانيهـا واسـتقصى تاريخَهـا، وجـد فيهـا آثـارًا تـدلُّ عـلى مـاضي الأمَّـةِ وتطورهـا مِـن حـالٍ إلى حـال، كـما تـدلُّ الأحافـيرُ والعَادِيَـاتُ عـلى حالـةِ الأُمَـمِ الغابـرة. ولكـن مـا لنـا لا نـزال نسـتعمل لُغـة البـداوة، وقـد انفسـح بيننـا وبينهـا الأمـدُ، وانقطعـت بيننـا كل صلـة؟! وإذا تفقـد النـاس في المسـتقبل البعيـد لغـة هـذا العـصر أفـلا يقولـون إننـا كنـا في الجيـل العشريـن عـصر الحضـارة الراقيـة عصر السـيارات والترامـات والطيـارات والسـكك الحديديـة بـدوًا رحـلًا، وافقنـا الوحـش في سـكنى مراتعهـا، وخالفناهـا بتقويـض وتطنيـب كـما قـال المتنبـي؟!

لا تكـون لُغـة حَيَّـة إلا إذا انطبقـت عـلى حيـاة الأمـة التـي تسـتعملها، ومـا اسـتعمال لُغـة البـداوة في عهـد الحضـارة إلا مـن قبيـل إنـزال الـشيء إحـلال غـير محلـه.

ثـم إن هنـاك تراكيـب أخـرى لاكتهـا الأفـواه حتـى كادت تمجهـا، ومـع ذلـك لا نـزال حريصـين عـلى اسـتعمالها، لا نتحـول عنهـا يمنـة أو يـسرة، مـن ذلـك قولهـم: «نشـد فـلان ضالتـه»، و«هـذه هـي الضالـة المنشـودة»، و«فـلان يصيـد في المـاء العكـر» و«تلـك حـال تنـذر بالويـل والثبـور وعظائـم الأمـور»، و«مـزق فـلان فـروة فـلان ونحـت أثلتـه» مِـمَّا أجتـزئ منـه بهـذا القـدر.

أمَّـا الأسـاليب فيحتـاج الـكلام عنهـا إلى مقالـة برأسـها نرجئهـا إلى فرصـة أخـرى.

تطور الصحافة

إنَّ صحافةَ كل أمَّـةٍ تابعـة لهـا، لا تجـد صحافـة راقيـة في أمَّـةٍ منحطـة، ولا تجـد صحافـة منحطـة في أمَّـةٍ راقيـة. ومَـن قابـل صحافـة اليـوم بمـا كانـت عليـه إلى عهـد قريـب رأى أنهـا قـد دبـت فيهـا الحيـاة، وأخـذت تترقـى يومًـا فيومًـا تبعًـا لنهـوض الأمـة وتطورهـا.

وهـذه بعـض الوجـوه التـي تتميـز بهـا صحافـة اليـوم عـمَّا كانـت عليـه قبلـه:

(١)نـزل إلى ميـدان الصحافـة كبـار النـاس أصحـاب الجـاه العريـض والـثروة الطائلـة مـن زعـماء السياسـة، يسـتعملونها للتبشـير بمذاهبهـم، ينفقـون عليهـا عـن سـعة، فصـارت أكـثر الصحـف تعيـش عـلى أصحابهـا، بعـد أن كان أصحابهـا يعيشـون عليهـا؛ بـل يبتذلونهـا في سـبيل التعيـش والتكسـب، فأثـرى القليلـون، وأدركـت الكثيريـن حرفـة الأدب.

(٢)جعلـت الصحافـة تُعنـى بالعلـم والأدب عنايتهـا بالسياسـة، فكانـت السياسـة سـببًا لترويـج العلـم والأدب، وكان العلـم والأدب سـببًا لترويـج السياسـة، فهـي أولٌ وهـما المحـل الثـاني أو هـما أولٌ وهـي المحـل الثـاني.

وقـد كانـت جريـدة السياسـة الغـرَّاء في طليعـة هـذا الـدور، فهـي تعيـش عـلى أصحابهـا، وفيهـم أصحـاب الجـاه العريـض والـثروة الطائلـة، وهـي تبحـث في السياسـة والعلـم والأدب والاجتـماع وغـير ذلـك، وفيهـا مـن

الكُتَّـابِ مـن أصحـابِ مذهبهـا مَـن انتهـت إليهـم الرياسـةُ في صناعـة القلـم؛ مِـمَّا اضطـر غيرهـا إلى متابعتهـا فاختـارت هـذه الدكتـور منصـور فهمـي، وغيرهـا المـازني، وغيرهـا العقـاد، وخصَّصـت بعضهـا صفحـة في الأسـبوع لـلأدب، وأخـرى للألعـاب الرياضيـة، وأخـرى لغـير ذلـك. فنهضـت الصحافـة بأولئـك الزعـماء وهـؤلاء الكتَّـاب إلى مسـتوى راقٍ تتراجـع دونـه سـوابق الهمـم ... كان الكاتـب الواحـد يتـولى بنفسـه كتابـة الجريـدة مـن أولهـا إلى آخرهـا، فيضطـر إلى السرعـة ويـرضى بمـا يجـيء لا بمـا يجـب، وإذا تـولاه الفتـور أو أخـذه الإعيـاء شـغل القسـم الأكـبر مـن جريدتـه بفضـول القـول ومسـتهجن البحـث، فصـار اليـوم لأكـثر الجرائـد كتـابٌ عديـدون، قـد لا يصيـب الواحـد منهـم في الأسـبوع غـير مقالـة واحـدة يتبسـط فيهـا مـا شـاء علمـه وأدبـه.

وكانـت الجريـدة الواحـدة لا تعنـى إلا بالسياسـة عـلى غـير علـم ولا حنكـة فَتُـبْرِم قراءهـا، فأصبحـت اليـوم معرضًـا لشـتى الأغـراض مـما ينفـع النـاس ويهمهـم الاطـلاع عليـه.

كانـت أكـبر جريـدة قبـل اليـوم ذات أربـع صفحـات يشـغل القسـم الأكـبر منهـا الإعلانـات، فأصبحـت اليـوم ذات ثمـاني صفحـات كبـيرة لا تشـغل الإعلانـات منهـا قسـمًا كبـيرًا.

وأمَّـا القـراء فقـد كانـوا قبـل اليـوم يكتفـون مـن قـراءة الجريـدة بإمـرار النظـر، ولا يقـرءون شـيئًا إلا أدركهـم الضجـر، فصـاروا اليـوم يراقبـون وقتهـا مراقبـة المشـوق المسـتهام، ولا يقرءونهـا إلا بتدبـر واهتـمام، ولـو كانـت

سياستها على غير مذهبهم، ولعل الناس لا يقرءون اليوم غير الجرائد.

ولا بُدَّ أنْ يَقِلَّ عددُ المتطفلين على الكِتابة بعد اليوم، ولا بُدَّ أنْ يرتقي ذوقُ القرَّاءِ فلا تقرأ جريدة لا يشترك في كتابتها صاحب كفاية.

لن يكتب بعد اليوم في السياسة إلا الاختصاصي في السياسة، ولن يكتب في الأدب إلا الاختصاصي في الأدب، ولن يكتب في العِلم إلا الاختصاصي في فرعٍ من فروعه، ولن يكون صاحب كفاية إلا مقدورًا قدره.

ومتى كان أصحاب الكفايات وكبار السن هم أساتذة الأمة وزعماءها، سارت في طريقها على هدى إلى الأحسن والأعلى، إلا أن هناك موضعَ نظرٍ لا بُدَّ مِن الإشارةِ إليه استيفاءً للحديث.

يظهر أن الصحفَ اليومية على ارتقائها لا تحتمل متابعة البحث في موضوع واحد أو التقصي فيه، ومن تتبع آثار الأستاذ طه حسين في جريدة السياسة الغرَّاء، رأى أنه طرق أبحاثًا كثيرة طريفة لم يسبقه إليها أحدٌ في اللُّغَةِ العربية، وكلها تشفُّ عن بصيرةٍ نَيِّرَةٍ وعِلْمٍ نضيج؛ بل تدل على أنه أكتب مِمَّا يُكتب وأعلم مِمَّا تَقرأ له، لا تقرأ له شيئًا إلا تركك تشعر أن الذي قرأته ليس إلا قليلًا من كثير، على حين لا تكاد تقرأ شيئًا لكثيرين غيره إلا شعرت أن ما قرأته هو كل ما عندهم؛ بل أكثر مِمَّا عندهم؛ بل قد تشعر أنهم قد عدوا طورهم وتعرضوا لما ليس من شأنهم أو اختصاصهم، وأنه كان الأولى بهم أن لا يتعرضوا له.

ولكـن الأسـتاذ عـلى إعجـاب القـراء بـكل مـا يكتـب، وتطلعهـم إلى المزيـد منـه، لا يـكاد يتنـاول بحثًـا إلا طـواه إلى غـيره فغـيره، ولا يعـود إلى بحثـه الأول إلا بعـد أن يعتقـد القـراء أنـه لـن يعـود إليـه، وقـد يكتفـي مـن البحـث بمـا لا يرضيـه، وعـذره أنـه يكتـب في صحيفـة يوميـة، فلـو ألَّـفَ كِتابًـا أو كَتَـبَ في مجلـة علميـة لكانـت أبحاثـه أوفى، مِـمَّا يجـوز معـه أن يقـال إن العِلـمَ في الصحـف اليوميـة هـو في المحـل الثـاني، وإن السياسـة هـي في المحـل الأول. وإن الصحافـة لم تُعْـنَ بالعِلـم إلا خدمـةً للسياسـة، إغـراءً للقـراءِ عـلى اختـلاف مذاهبهـم بالإقبـال عليهـا، واسـتدراجًا لهـم مـن حيـث يشـعرون ولا يشـعرون إلى انتحـال مذهبهـا. ولم يكـن هـذا التنقـل في البحـث عـلى غـير اسـتيفاء ولا اسـتقصاء إلا لأنـه أشـوق للقـراء وأدعـى لاهتمامهـم، فيكـون مثـل الصحافـة اليـوم مثـل المبشريـن بالديـن يؤسسـون المـدارس ويقيمـون المستشـفيات ويعنـون بالألعـاب الرياضيـة، لا للتعليـم ولا للعنايـة بالمـرضى ولا لترويـج الألعـاب الرياضيـة، ولكـن تذرعًـا بذلـك كلـه إلى نـشر الدعـوة.

إن اسـتخدام العِلـم للسياسـة ينفـع السياسـة، ولكـن لا يرقـي العلـم بـل يحـط مـن شـأنه.

لِتَشْـتَغِل الصحافـةُ بالسياسـةِ، ولِيـدْعُ كُلٌّ إلى مذهبـه، ولكـن لِتعـطِ العِلْـمَ والأدبَ حَقَّهُـما، ولتُجِلَّهُـمَا عـن أن يكونـا وسـيلة في يـد السياسـة.

تطور اللُّغَةِ في ألفاظِها وأساليبِها (١)

أرجو من القارئ الكريم أن يعير هذه «المراجعات» التي دارت بيني وبين الأمير شكيب أرسلان — أحد أركان النهضة وأكبر زعماء الأدب في هذا العصر، حول المذهبين القديم والجديد في الكتابة — جانب اهتمامه.

***

تتطورُ اللُّغَةِ في ألفاظها وأساليبها تطورًا مستمرًّا في تؤدةٍ وخفاءٍ، فلكل عصر، بل لكل إقليم في كل عصر، لُغته وأسلوبه، حتى إنك لتستطيع أن تعرف القول من أي عصر أو من أي إقليم هو، وإن كنت لا تعرف قائله، وإذا كنت مِمَّن أولعوا بالأدب العربي فلا بد أن تكون قد رأيت آثار هذا التطور في كل عصر وكل إقليم.

وقد كان هذا التطور في العصور العريقة في القدم، أيام كانت الأمة الواحدة تنقسم إلى قبائل متعادية، تعيش في أقاليم مختلفة في الخصب والجدب، والاعتدال والانحراف، والشدة والرخاء، وما إلى ذلك من اختلاف المجاورات والحالات الروحية والعقلية والاجتماعية والسياسية، سببًا لتفرع اللُّغات بعضها من بعض. تنقسم به اللُّغَةُ إلى لهجات، ثم تستقل كلُّ لهجةٍ لُغةً بنفسها. كما ترى آثار هذا الاختلاف لعهدنا هذا في اللُّغتين المحكية والمكتوبة، فإن لكلِّ إقليم من الأقاليم العربية لُغَةً مَحْكِيةً ولُغَةً مَكتوبةً تخالفان ما لغيره كثيرًا أو قليلًا، واللُّغتان خاضعتان للتطور المستمر، فلُغتا مِصر المحكيةِ والمكتوبةِ اليوم غيرهما

قبله، وكلتاهما غير لغتَي سوريا، من أمثلة ذلك في اللُّغَةِ المحكية أنهم يسألون في فلسطين إذا لقي الواحدُ الآخر عن حاله، وفي دمشق عن لونه، وفي مصر عن زِيِّهِ، وفي لبنان عن خاطره. وقد كان الناس قبل هذه النهضة الأخيرة، قبل انتشار لُغة المدرسة، ولُغة الصحافة، ولُغة التمثيل، ولُغة الغناء، لو سار السوري في مصر، أو المصري في سوريا، لسار بترجمان؛ بل لو تغيب السوري أو المصري عن بلاده إلى بلاد لا يسمع فيها لُغتَه لعشرين سنة أو أقل، ثم رجع إلى بلاده لرأى من تطور اللُّغتين المحكية والمكتوبة فيها ما لم يكن له به عهد، وما يحس معه أنه أصبح غريبًا في قومه.

ومن أمثلة ذلك في اللُّغَةِ المكتوبة أن السوريين يجمعون لفظة «ميل» بمعنى «الهوى» على «أميال» ك «سيف» و«أسياف»، وقد شاع هذا الجمع في سوريا ومصر دهرًا طويلًا، ثم رأينا أن المصريين أخذوا يجمعون هذه اللفظة على «ميول» ك «سيف» و«سيوف»، وكلا الجمعين صحيح. ولعل السوريين يعدلون مع الأيام عن «أميال» إلى «ميول» بحكم التقليد.

ومن ذلك أن السوريين يقولون: «بحث عن الأمر أو في الأمر»، ولكن رأينا كثيرين من كُتَّابِ مِصر يقولون: «بحث الأمرَ» بدون حرف جرٍّ.

ومن ذلك أن السوريين يقولون: «سَمَّى فلانٌ ولدَه كذا» على وزن «فَعَّلَ» بتشديد العين، ولكن المصريين عدلوا في الزمن الأخير عن وزن

«فَعَّـلَ» إلى وزن «أَفْعَـلَ»؛ فهـم يقولـون: «أسـمى فـلانٌ ولـدَه كـذا»، وكلا الوزنـين صحيـح، وقـد اسـتعمل المتنبـي وزنَ «أَفْعَـلَ» في قولـه:

يقولـون لي مـا أنتَ في كل بلدة وما تبتغي؟ ما أبتغي جل أن يُسـمى

ولكن وزن «فَعَّلَ» أشهر.

ومـن ذلـك لفظـة «فحسـب» فإنهـا درجـت في هـذه الأيـام عـلى ألسـنة المصريـين فتابعهـم في اسـتعمالها بعـض السـوريين، وقـد كانـوا يسـتعملون لفظـة «فقـط».

ومـن ذلـك النسـبة إلى «طبيعـة وبديهـة»؛ فـإن السـوريين يقولـون فيهـما: «طبيعـي وبديهـي»؛ جريًـا عـلى الاسـتعمال دون القيـاس، وأمـا المصريـون فجعلـوا يقولـون: «طبعـيٌّ وبدهـيٌّ»؛ جريًـا عـلى القيـاس دون الاسـتعمال.

ومـن ذلـك أن السـوريين يقولـون: «تمـدَّن الرَّجُـلُ» أي: تخلَّـق بأخـلاقِ أهـلِ المـدن وانتقـل مـن حالـة الخشـونة والبربريـة والجهـل إلى حالـة الظـرف والأنـس والمعرفـة، أمـا المصريـون فيقولـون في ذلـك: «تمديـن». (راجـع القامـوس)

وهنـاك ألفـاظ وتعبـيرات كثـيرة انفـرد بهـا أحـدُ الفريقـين دون الآخـر، مِـمَّا تسـتطيع معـه أن تعـرف القـول هـل هـو سـوري أم مـصري؛ بـل قـد تعـدى هـذا الاختـلاف لُغـةَ الأدبِ والصحافـةِ إلى لُغـةِ العِلـم، فـإذا قابلـت كُتُـبَ سـوريا في الطبيعـة أو الكيميـا أو الحسـاب أو الجغرافيـا أو غـير ذلـك بِكُتُـبِ مِـصر رأيـت أنـه يـكاد يكـون هنـاك لُغتـان، ولـولا وِحْـدَةُ الأصـلِ،

واعتبارات كثيرة تربطنا بذلك الأصل فلا نخرج عنه إلا رجعنا إليه؛ لاتسعت مع الأيام شقة الاختلاف إلى أن تصبح اللُّغَةُ العربية لُغتين لا تكادان تتشابهان في شيء.

هذا في اللُّغةِ، وأمَّا الأساليب فهناك مذهبان: مذهبٌ قديمٌ ومذهبٌ جديدٌ، وإني أحاول هنا أن أشير إلى الفرق بين المذهبين على قدر ما تعين عليه البصيرة الضعيفة.

مِمَّا أولع به أصحاب المذهب القديم إلى يومنا هذا تكرار الكلام في غير مواطن التكرار، والإسراف في استعمال المترادفات على غير حاجة إليها ولا فائدة منها، فهم لا يأتون بكلمة إلا أتبعوها بمرادفاتها، فإذا قالوا: «تمادى الرجل في ضلاله» قالوا: «ولج في غوايته وعمه في طغيانه ومضى على غلوائه»، وإذا قالوا: «أحزنني هذا الأمر» قالوا: «وشجاني وأمضني وأرمضني وأقلقني وأقضَّ مضجعي»، وإذا قالوا: «سَرَّني أمرُ كذا» قالوا: «وأفرحني وحبرني وأبهجني وأبلجني وأثلج صدري».

وهنا أستأذن القارئ الكريم بتقديم مثل على ذلك من رسالة أمامي لكَاتِبٍ كبير قال:

يا إخواننا إن الصارخة القومية، والنعرة الجنسية، قد بدأت في الأقوام، ونشأت مع الأمَمِ، مُذ الكيان ومنذ وجِدَ الاجتماعُ البشري، وتساكن الإنسانُ مع الإنسانِ»، وقال: «مهما انتبذ لنفسه مكانًا منزويًا، وتنحى جانبًا معتزلًا»، وقال: «مهما ترامت به عن منبته الأقطارُ وتباينت بينه وبين أهله الأوطانُ والأوطارُ»، وقال: «وإنَّ هذه النعرةَ الجنسية

والحِمْيَـةَ القوميـة وإنْ عَـمَّ أمرُهـا جميـعَ الأمَـمِ، ولم يَخـلُ منهـا عَـربٌ ولا عجـمٌ، فقـد اختـصَّ منهـا العـرب بالشـقص الأوفـر والحـظ الأكمـل» فتأمـل.

وسـبب ذلـك إمَّـا قِلـة البضاعـة ونـزارة المـادة الفكريـة، وأصحـاب هـذا المذهـب يحسـبون أن اللُّغَـةَ هـي كلُّ شيء، فـإذا حمـل أحدهـم عـلى ظهـر قلبـه مقامـات الحريـري وديـوان الحماسـة والمعلقـات والمفضليـات فقـد صـار كاتبًـا نحريـرًا. أو أن يكـون ذلـك متابعـة لمـا ورد في بعـض أقـوال العـربِ مـن الـترادف لـضرورة؛ كقـول الشـاعر: «فألفـى قولهـا كذبًـا ومينًـا» أو تقليـدًا لأحمـد فـارس الشـدياق في كتابـه «السـاق عـلى السـاق»، ولكـن أحمـد فـارس لم يـأتِ بالمترادفـات لأنـه يذهـب إلى هـذا النـوع مـن الكتابـة، وإنمـا أراد أن يضـع كتابًـا في المترادفـات ككتـابِ الألفـاظ الكتابيـة لعبـد الرحمـن بـن عيـسى الهمـذاني، فبـدلًا مـن أن يـسرد المترادفـات لغـير مناسـبة أتى بهـا في سـياق كلام، عـلى اعتقـاد منـه أن ذلـك أشـوق للقـارئ ... ومهـما يكـن السـبب فـإن هـذا النـوع مـن الكتابـة غـير طبيعـي، أو غـير عـربي، أو عـلى الأقـل لا يسـتمرئه ذوق هـذا العـصر.

***

الـكلام ثلاثـة أنـواع: إمَّـا أن يكـون مسـاويًا للمعنـى المـراد لا ينقـص عنـه ولا يزيـد عليـه، وهـو المسـاواة، وإمَّـا أن ينقـص عنـه، وهـو الإيجـاز، وإمَّـا أن يزيـد عليـه، وهـو الإطنـاب. أمَّـا المسـاواة فمقبولـة مطلقًـا، وأمَّـا الإيجـاز والإطنـاب فلهـما مواطـن وشروط نـصَّ عليهـا البيانيـون، وليـس فيـما نصُّـوا عليـه مـا يُجيـز أن يكيـل الكاتـب المترادفـات كيـلًا.

وأنـت إذا تفقـدت كلامَ العـربِ في أشـعارهم وأمثالهـم وخطبهـم ورسـائلهم عَلِمـتَ أنهـم يميلـون إلى الإيجـاز، وأنهـم يكرهـون التطويـلَ المُمـل؛ بـل إن عندهـم نوعًـا مـن الحـذف يُقـال لـه «الاكتفـاء»، فبـدلًا مـن أن يقولـوا: «لا حـول ولا قـوة إلا باللـه العـلي العظيـم» قالـوا: «لا حـول ولا» ومنهـم مـن يختـصر هـذه أيضًـا فيقـول: «لا ولا» ... فـما قولـك في عـصر كادت تتغلـب فيـه لُغـةُ التلغرافـات؟! فلـو كان الكاتـبُ يدفـع ثمـنَ كل كلمـةٍ يقولهـا لمَـا سَـلك مـن طـرق الأداء إلا أخصرهـا وأوضحهـا، ولـو كان يُنقـد عـن كلِّ كلمـةٍ يقولهـا لمَـا وجـد مَـن يشـتري لـه قـولًا.

بـل نحـن في عـصرٍ تغلبـت فيـه روحُ الاقتصـاد، فـإذا لم يـراعِ الكاتـب الاقتصـاد فيـما يكتبـه — في وقتـه ووقـت القـارئ — لم يجـد مـن يقـرؤه.

بـل نحـن في عـصرٍ المعنـى فيـه الأول واللفـظ المحـل الثـاني، وبعبـارة أخـرى إذا لم يرتكـز الأدب فيـه عـلى العِلـمِ فـلا قيمـة لـه.

لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ

بينما أنا أسرِّح الطرف في صحيفة الأدبِ من «السياسة» الغرَّاء إِذْ وقَع نظري على مقالةٍ لأحدِ أدباءِ فلسطين، عنوانها: «تطورُ اللُّغَةِ فِي ألفاظِها وأساليبِها»، وهو موضوعٌ طالما نازعني إليه خاطري وشعرتُ بافتقارِ الأدبِ العربيِّ إلى بَحثٍ وافٍ بمكانه؛ إذ كان كلُّ دورٍ مِن أدوارِ اللُّغَةِ العربيةِ — سواء كان دور الجاهليةِ والمخضرمين أو العهد الأموي أو العصر العباسي أو القرون التي بعده — لا يخلو من ديباجة خاصة تظهر على ألسن خطباء ذلك الدور وأقلام كُتَّابه، وإن كان النِّصَابُ الأصلي لِلُّغة لا يزال واحدًا.

ولم ينحصر اختلافُ الأسلوبِ وتداول طائفةٍ خاصةٍ من الألفاظ بالأدوار والأعصار؛ بل إنك لتجده بين الأقاليم والأمصار، فللأندلس مَنْزَعٌ يَعرِفُه مَن أَلِفَ مُطالعة كُتب ذلك القُطرِ، ولليمن مَذهبٌ لا يَشبه مَذهبَ المنشئين في العربية مِن فارس في كثير من الأمور، ولِمِصر لهجةٌ خاصةٌ يَعرف الناقدُ البصيرُ مِنها نِسبةَ مُؤَلف الكِتابِ ولو لم يكن اسمه عليه كما ترى ذلك مِن ألفِ ليلةٍ وليلةٍ، وللشام أسلوب يختلف شيئًا عن أسلوب أهل مِصر في الكِتابة وكثيرًا في الحديث، كما أن للعراق نمطًا غيرَ نمطِ الشامِ ومِصر وهلم جرًّا، ولعلنا نُلِمُ بهذا الموضوع في وقتٍ آخر.

ولقد أمعنت النظر في مقال «تطور اللُّغَةِ في ألفاظها وأساليبها» فوجدت الكاتبَ الأديبَ صاحبها أتى بشيءٍ منه وأصاب بعضَ شواكله،

ولكنه خرج فيه أحيانًا عمَّا هو من باب تطور اللُّغَةِ باختلاف الأعصر والأمصار إلى ما ليس منه؛ كتمثيله لهذا التطور بقوله إن السوريين كانوا يجمعون لفظة «ميل» بمعنى «الهوى» على «أميال» ك «سيف وأسياف»، وقد شاع هذا الجمع في مصر وسورية دهرًا طويلًا ثم رأينا أن المصريين أخذوا يجمعونه على «ميول» ك «سيف وسيوف»، وكلا الجمعين صحيح، ولعل السوريين يعدلون مع الأيام عن «أميال» إلى «ميول» بحكم التقليد.

والحقيقة أن ليس هذا العدول عن «أميال» إلى «ميول» أثرًا من آثار التطور الذي أراده؛ بل كانت العامةُ ومَن لا يحقق في اللُّغَةِ مِن الخاصةِ يجمعون «ميلًا» بفتح الميم على «أميال» يجرونها مجرى «ميل» بكسر الميم، فجاء من قال لهم إن «فَعلًا» بفتح الفاء لا يُجمع على «أفعال»؛ بل على «فعول»، وإن كان ورد شيءٌ مِن ذلك فمَن الذي لا يقاس عليه. فعدل عِند ذلك الكُتَّابُ عن جمع «ميل» بالفتح على «أميال» إلى جمعه على «ميول» نظير «بيع وبيوع»، وقد سبق أنهم كانوا يجمعون «خصمًا» على «أخصام» وقد رأيت هذا الجمع في كلام كَاتبٍ مِصري من الأدباء الراسخين الذين نبغوا منذ نحو نصف قرن فلما نُبِّه بعضُهم إلى أن جمع «خصم» على «أخصام» غلط عدلوا إلى جمعه الصحيح على «خصوم»، فلا نجد كاتبًا الآن إلا وهو يقول «خصوم» ويتجنب «أخصام». ثم إنه قد ورد في كلام اليازجي الكبير جمع «فَعْلٍ» بفتح الفاء على «أَفْعَالٍ» وذلك في قوله: «مضى يجمع الأفضال وهي عبيده» فعابوه فيه وذكر ذلك أحمد فارس في مناقشة مع ابنه؛

فلذلك لا يجمع «فضلًا» على «أفضال» اليوم إلا العامة يقولون لا ننكر أفضالك، فأنت ترى أن السبب في ذلك التطور هو متابعة القاعدة واعتقاد تنكب الخطأ، على أنَّ الخطبَ يسير، فإن «فَعْلًا» بفتح الفاء إذا كان من الأجوف كثيرًا ما يُجمع على «أفعال» وله أمثال لا تحصى.

وكذلك «بدهي وطبعي»، أخذ المصريون يستعملونها ذهابًا إلى أن «بديهي وطبيعي» هو غلط في النسبة، مع أن السوريين يرونه غلطًا مشهورًا هو أولى من الصواب المهجور، ويرون له في «ولكن سليقي أقول فأعرب» شاهدًا مؤنسًا. فالعدول عن «أميال» إلى «ميول»، وعن «طبيعي» إلى «طبعي» كان في اعتقاد مَن فعله مجرد اتباع للقاعدة لا مجرد عدول عن اصطلاح إلى آخر إذ كلاهما صحيح. ثم وصل الكاتبُ إلى قوله: «هذا في اللُّغَةِ وأمَّا في الأساليب فهناك مذهبان؛ مذهبٌ قديمٌ ومذهبٌ جديدٌ، وإني أحاول هنا أنْ أشيرَ إلى الفرقِ بين المذهبين على قدرِ ما تُعين عليه البصيرة الضعيفة، مما أولع به أصحابُ المذهبِ القديم إلى يومنا هذا تكرار الكلام في غير مواطن التكرار (اعتراف منه هنا بأن للتكرار مواطن) والإسراف في استعمال المترادفات على غير حاجة إليها ولا فائدة منها، فهم لا يأتون بكلمة إلا أتبعوها بمرادفاتها، فإذا قالوا: «تمادى الرجلُ في ضلاله» قالوا: «ولج في غوايته وعمه في طغيانه ومضى على غلوائه»، وإذا قالوا: «أحزنني هذا الأمر» قالوا: «وشجاني وأرمضني وأقلقني وأقضَّ مضجعي»، إلى أن يقول: «بل أستأذن القارئ الكريم في تقديم مَثلٍ على ذلك من رسالة أمامي لكاتبٍ كبير قال: يا

إخواننـا، إن الصارخـة القوميـة والنعـرة الجنسـية قـد بـدأت مـع الأقـوام، ونشـأت مـع الأمـم مُـذ الكيـان ومنـذ وجـد الاجتـماع البـشري وتسـاكن الإنسـان مـع الإنسـان» وقـال: «مهـما انتبـذ لنفسـه مكانًـا منزويًـا وتنحـى جانبًـا معتـزلًا» وقـال: «ومهـما ترامـت بـه عـن منبتـهِ الأقطـارُ وتباينـت بينـه وبـين أهلـه الأوطـانُ والأوطـارُ ... إلـخ.»

ثـم قفـى عـلى ذلـك صاحـب المقالـة بقولـه: «تأمـل، وسـبب ذلـك إمَّـا قلـة البضاعـة ونـزارة المـادة الفكريـة (كـذا ولعلـه سـها عـن وضـع «إمـا» في الجملـة الثانيـة سـهوًا؛ إذْ «إمـا» هـذه لا بـد مـن تكرارهـا عنـد التخيـر كـما لا يخفـى). وأصحـاب هـذا المذهـب يحسـبون أن اللُّغَـةَ هـي كل شيء، فـإذا حمـل أحدهـم عـلى ظهـر قلبـه مقامـات الحريـري وديـوان الحماسـة والمعلقـات والمفضليـات فقـد صـار كاتبًـا نحريـرًا، أو يكـون ذلـك متابعـة لمـا ورد في بعـضِ أقـوالِ العـربِ مِـن التكـرارِ لـضرورةِ؛ كقـول الشـاعر: «فألفـى قولهـا كذبًـا وميـنًـا» أو تقليـدًا لأحمـد فـارس الشـدياق في كتابـه «السـاق عـلى السـاق»، ولكـن أحمـد فـارس لم يـأتِ بالمترادفـات لأنـه يذهـب إلى هذا النـوع مـن الكِتابـة، وإنمـا أراد أن يضـعَ كِتابًـا في المترادفـات ككتـابِ الألفـاظِ الكتابيـةِ لعبـد الرحمـن بـن عيـسى الهمـذاني» إلى أن قـال: «ومهـما يكـن السـبب فـإن هـذا النـوع مـن الكتابـة غـير طبيعـي أو غـير عـربي (كـذا) أو عـلى الأقـل لا يسـتمرئه ذوقُ هـذا العـصر» ثـم قـال: «وأنـت إذا تفقـدت كلامَ العـربِ في أشـعارِهم وأمثالِهـم وخطبِهـم ورسـائلِهم عَلِمـتَ أنهـم يميلـون إلى الإيجـاز وأنهـم يكرهـون التطويـلَ المُمِـل»، ثـم عـاد فاسـتدرك بقولـه: «إن للإطنـابِ مواطـن وشروطًـا نـصَّ عليهـا البيانيـون وليـس فيـما

نصُّوا عليه ما يجيز أن يكيلَ الكاتب المترادفات كيلًا ... إلخ.»

فظاهر أن هذا الكاتب الأديب يقصدني في تعريضه، لاستشهاده ببعضِ جُملٍ من نِداءٍ كان الوفدُ السوري وجَّهَهُ إلى الأمةِ العربيةِ قَاصِيها ودَانِيها وحاضِرها وبادِيها وخاصيها وعاميها، مُراعيًا حالةَ مَن يُخاطبهم وضرورة تمكين المعاني من نفوسهم وتحريك عواطف حميتهم مِمَّا هو في كلِّ لُغةٍ وفي كلِّ منطقٍ وفي كلِّ أدبٍ موطن التكرار الأكبر ومحل التأكيد الألزم؛ إذ كانت المناشير العامة والرسائل الموجهة إلى الجماهير دائمًا على هذا النسق، ولم تكن قاعدة «خير الكلام ما قَلَّ ودَلَّ» موضوعةً لمثلها، إلا إذا اختلت قاعدة أخرى هي أعمُّ منها، وهي: «لِكُلِّ مَقامٍ مَقَال»، والفصاحة هي المطابقة لمقتضى الحال.

وقد كُنت فكرت في أن أترك هذا الكاتب وشأنه، وأن أعرض عنه وأتجاهل انتقاده تاركًا اللُّغَة العربية ونظمها ونثرها ومتونها وأصولها وأمثلتها ترد عليه وتقنعه بخطئه، لولا أنني رأيتُه — وأرجو منه أن لا يؤاخذني على هذا القول — واضعًا نفسه موضع أستاذ اللُّغة، وشيخ الصناعة، والجهبذ الذي يقبل هذا ويزيف ذاك، والقاضي الفيصل الذي يحكم ولا معقب لحكمه، ماضيًا في غلوائه مسرورًا بآرائه راضيًا عن أنحائه، فحرصت على أن لا يتمادى في وهمه، وأشفقت من أن يتصل وهمه إلى غيره، وعولت على أن أُبين له مناهجَ اللُّغَةِ في بابِ الإيجاز والمساواةِ والإطنابِ ومقام كل منها لِيعْلَم أن مقام منشورنا المرسل إلى الأمةِ العربيةِ جمعاء في آفاق الأرض ومناكبها ومشارق الشمس ومغاربها هو مقامُ إطنابٍ، كما لا يخفى على كل من شدا شيئًا من

الأدبِ أو طالع شيئًا من آثارِ هذه الأمة.

ولكنني قبل الشروع في موضوعي أحِبُّ أن أسأله عن قوله: «وأما الأساليب فهناك مذهبان؛ مذهبٌ قديمٌ ومذهبٌ جديدٌ»، فإنني لا أعلم مذاهب جديدة إلا في العِلمِ والفنِّ، وأمَّا في الأدبِ واللُّغةِ فلا أعرف إلا مذهبًا واحدًا هو مذهبُ العرب، وهو الذي يريد أن يسميه بالمذهب القديم، وهو الذي يجتهد كلُّ كاتبٍ في العربية أن يحتذي مثاله ويقرب منه ما استطاع؛ لأنه هو المثل الأعلى والغاية القصوى، وإذا أراد الكاتب العصري أن يجول في المواضيع الحديثة والمعاني المستجدة، استنفد جميع منتهِ في إلباس هذه المعاني الجديدة حلل الأساليب العربية القديمة التي هي أصل اللُّغَةِ والطراز المنسوج على منواله. وقصارى الأديب العربي اليوم أن يتمكن من إفراغ الموضوع العصري في قالب عربي بحت لا يخرج باللُّغةِ عن أسلوبِها ولا يُهجِّن لَهجتَها ولا يجعلها لُغةً ثانيةً؛ إذ كان التباعد عن الفصاحة والحرمان من حظِّها هُمَا على مقدار التجانف عن أسلوبِ العربِ عندما كانوا عربًا لم تخامر لُغتهم العجمة ولم تفسد منهم السليقة. وإن القمة العليا من ذلك هي لُغة الجاهلية وصدر الإسلام، ثم ما يليه نوعًا عندما كانت العربية في عنجهيتها والفصاحة في إبان سورتها. فأما المذهب الجديد الذي أشار إليه في الأدب والإنشاء العربي فلا نعلمه في المذاهب ولا وصل إلينا خبرُه، فحبَّذا لو أتانا صاحبُنا بتعريفِ المذهبِ الجديدِ هذا ودَلَّنَا على أمثلةٍ منه وكُتبٍ مُؤَلَّفة فيه، وأخبرنا مَن هُم أساطين هذا المذهب وحملة أعلامه، فإننا نُقِرُّ بكوننا لا نعرف في العربي إلا

مذهبًا واحدًا كلما قرب إلى نسق الأولين كان أقرب إلى الفصاحة. وأما في العلوم والفنون فذاك موضوع آخر كلُّ يومٍ نحن منها في شيءٍ جديد، فلا يجوز أن نخلط هذا بذاك.

إن اللُّغَةَ الفرنساوية التي هي أفصح لُغات أوروبا لها أسلوب خاص ونمط قائم بها قد رَسَتْ عليه قواعدُها مُنذ نحو ثلاثِ مائة سنة، وبلغ كماله في عصر لويس الرابع عشر الذي يماثل صدر الإسلام في العربية، فكل كاتبٍ في اللُّغَةِ الفرنسوية يخالف أسلوبها الذي اصطلح عليه أدباءُ الفرنسيس يقولون له: هذا ليس بفرنساوي، ولا ينفعه عند ذلك أن يقول لهم: هذا مذهب جديد في الكِتابة، فإنهم يجاوبونه أن التجدد في الكِتابة لا بد لأجل أن يكون مقبولًا أن يتمشى على الأسلوب الفرنساوي المصطلح عليه.

إنني أريد أن أنزه حضرة الكاتب صاحب مقالة «التطور في اللُّغةِ» عن أن يكون مقصده الانتقاد لأجل الانتقاد، ولإثبات فضله وإظهار طوله على غيره. ولكنني من جِهة أخرى أعجب مِن كَوْنِ أديبٍ بارعٍ مثله متصدٍّ للفتيا في اللُّغَةِ تصدي حضرته يذهب عنه ما يليق بكلِّ أديبٍ أن يطلع عليه.

قال في صبح الأعشى في باب الإطناب: وهو الإشباع في القول وترديد الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد، وقد وقع منه الكثير في الكتاب العزيز، مثل قوله تعالى: « كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ» وقوله عزَّ وجلّ: «فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا». كرر

اللفـظ في الموضعـين؛ تأكيـدًا للأمـر وإعلامًـا أنـه كذلـك لا محالـة (تأمـل) إلى أن يقـول: وقـد وقـع التكـرار للتأكيـد في كلامِ العـربِ كثيرًا كـما في قـول الشـاعر: «أتـاك أتـاك اللاحقـون.»

ثـم ذكـر مـا قيـل في المسـاواة والإيجـاز والإطنـاب والتفاضـل بينهـا، فقـال: وذهـب قـوم إلى أن الإطنـاب أرجـح، واحتجـوا لذلـك بـأن المنطـق إنمـا هـو بيـان، والبيـان لا يحصـل إلا بإيضـاحِ العبـارةِ، وإيضـاح العبـارة لا يتهيَّـأ إلا بمرادفـةِ الألفـاظ عـلى المعنـى حتـى تُحيـط بـه إحاطـة يُؤمـن معهـا مـن اللبـس والإبهـام، وإنَّ الـكلام الوجيـز لا يُؤمـن وقـوع الإشـكال فيـه، ومـن ثـم لم يحصـل عـلى معانيـه إلا خـواص أهـلِ اللُّغَـةِ العارفـين بـدلالات الألفـاظ.

(ليتذكـر القـارئ أن منشـور الوفـد السـوري لم يكـن موجهًـا إلى خـواص أهـلِ اللُّغَـةِ فقـط؛ بـل العـوام مـن قُرَّائِـه أكـثر مـن الخـواص) بخـلاف الـكلام المشـبع الشـافي؛ فإنـه سـالم مـن الالتبـاس لتسـاوي الخـاص والعـام في جهتـه.

ويؤيـد ذلـك مـا حُـكِيَ أنـه قيـل لقيـس بـن خارجـة: «مـا عنـدك في جـمالات ذات حسـن؟» قـال: «عِنـدي قِـرى كُلِّ نَـازلٍ وَرِضَـا كُلِّ سَـاخِطٍ وخُطبـةٌ مـن لَـدُن تطلـعُ الشَّـمسُ إلى أن تغـرُبَ، آمُـر فيهـا بالتَّواصُـلِ وأنهَـى عـن التقاطُـعِ.» فقيـل لأبي يعقـوب الجرمـيِّ: هـلَّا اكتفـى بقولـه: «آمـر فيهـا بالتواصـل» عـن قولـه: «وأنهـى عـن التقاطـع»، فقـال: «أومـا علمـت أن الكنايـة والتعريـض لا تعمـل عمـل الإطنـاب والتكشـف؟ ألا تـرى أن اللـهَ تعـالى إذا خاطَـبَ العـربَ والأحـزابَ أخـرج الـكلامَ مخـرج الإشـارةِ والوحـي،

وإذا خَاطَبَ بني إسرائيل أو حكى عنهم جعل الكلام مبسوطًا، وقلما تجد قِصةً لبني إسرائيل في القرآن إلا مطولة مشروحة ومكررة في مواضع معادة لِبُعد فهمهم وتأخر معرفتهم، بخلاف الكلام المشبع الشافي فإنه سالم من الالتباس لتساوي الخاص والعام في فهمه.»

قال: وذهبت فرقةٌ إلى ترجيح مساواة اللَّفظِ المعنى واحتجوا لذلك بأن منزع الفضيلة من الوسط دون الأطراف، وإنما الحسن إنما يوجد في الشيء المعتدل» قال: قال في «مواد البيان» والذي يوجبه النظر الصحيح أن الإيجاز والإطناب والمساواة صفاتٌ موجودةٌ في الكلامِ، ولكلٍّ منها موضع لا يخلفه فيه رديفه إذا وضع فيه انتظم في سلك البلاغة ودلَّ على فضل الواضع، وإذا وضع غيره دلَّ على نقص الواضع وجهله برسوم الصناعة.

ومنه يستنتج أن منشورًا طبعت منه ألوف وألوف من النسخ ليوزع على ملايين من الأمةِ العربيةِ في المدر والوبر لو جاء يكتبه الإنسان كما يكتب رسالة إلى رجلٍّ من طبقةِ عبد القادر الجرجاني ويجتهد في إيداع أوسع المعاني أقصر الألفاظ لكان ذلك من بابِ وضع الشيءِ في غير موضعهِ ولَدَلَّ على نقصِ الواضع وجهله برسوم الصناعة.

ثم قال في صبح الأعشى: «فأما الكلام الموجز فإنه يصلح لمخاطبة الملوك وذَوي الأخطار العالية والهمم المستقيمة والشئون السنية، ومن لا يجوز أن يشغل زمانه بما همته مصروفة إلى مطالعة غيره.»

إذن ليست هناك مسألة تطويل مُمِل وإيجاز مُخِل؛ بل مسألة الإيجاز

في محـلِّ الإيجـاز، والإطنـاب في محـلِّ الإطنـاب، فـإذا خُوطـب الحكـماء والعظـماء والملـوك بالـكلام المشـبع المبسـوط المؤكـد كان ذلـك خلـلًا بأصـول الكتابـة ومنافيًـا للـذوقِ السـليم ... كـما أنـه إذا خُوطـب الجماهـير الذيـن لا تجـد فيهـم خاصيًّـا إلا كان بجانبـه ألـف عامـي، بدقائـق مـن البلاغـة وإشـارات وكنايـات تقتـضي إعـمال الفكـر، ولا يـدرك الجمهـور مغزاهـا كان ذلـك مخالفًـا لآداب الكتابـة وفـات الغـرض المقصـود مـن الخطـاب. نعـم كان العـرب يميلـون إلى الإيجـاز، ولكـن كانـوا يميلـون أكـثر مـن ذلـك إلى وضـع الـشيء في محلـه.

قـال في صبـح الأعـشى: «وأمَّـا الإطنـاب فإنـه يصلـح للمُكَاتبـات الصـادرة في الفتوحـات مِـمَّا يقـرأ في المحافِـلِ والعهـودِ السـلطانيةِ ومُخاطبـة مَـن لا يصـل المعنـى إلى فهمِـه بـأدنى إشـارة ... إلـخ.»

إلى أن قـال نقـلًا عـن «مـواد البيـان» قـال: «أمَّـا أنَّـه لَـو اسـتعمل كَاتـبٌ ترديـدَ الألفـاظِ ومُرادفتهـا عـلى المعنـى في المُكَاتَبَـةِ إلى مَلِـكٍ مَـصْرُوفِ الهِمَّـةِ إلى أُمُـورٍ كَثـيرةٍ مَتـى انـصَرَفَ مِنهـا إلى غَيرِهَـا دَخَلَهَـا الخَلَـلُ لرتـب كلامـه فِي غَـيرِ رَتْبِـهِ، وَدَلَّ عـلى جَهْلِـهِ بِالصِّنَاعَـةِ. وَكَـذَا لَـو بَنَـى عَـلى الإيجَـازِ كِتَابًـا يَكْتُبُـهُ فِي فَتحٍ جَلِيـلِ الخطـر حَسُـنَ الأَثَـرِ يُقْـرَأُ فِي المَحَافِـلِ والمَسَـاجِدِ الجَامِعَـةَ عَـلى رُءُوسِ الأَشْـهَادِ مِـنَ العَامَـةِ وَمَـنْ يُـراد مِنـهُ تَفخِيـمُ شَـأن السُّـلْطَانِ فِي نَفْسِـهِ لَأَوْقَـعَ كَلَامَـهُ فِي غَـيرِ مَوقِعِـهِ وَنَزَّلَـهُ فِي غَـيرِ مَنْزِلِـهِ؛ لَأَنَّـه لَا أَقبَـح وَلَا أَسْـمَج مِـن أَنْ يَسْـتَنْفِرَ النَّـاس لِسَـمَاعِ كِتَـابٍ قَـد وَرَدَ مِـن السُّـلْطَانِ فِي بَعْـضِ عَظَائِـمِ أُمُـورِ المَمْلَكَـةِ أَو الدِّيـنِ، فَـإِذَا حَـضَرَ النَّـاسُ كَانَ الـذي يَمُـرُّ عَـلَى أَسْـمَاعِهِم مِـن الأَلفَـاظِ وَارِدًا مَـوْرِد الإيجَـازِ والاخْتِصَـارِ لَـمْ

يحسن مَوْقِعه وَخَرَجَ مِن وَضْعِ البَلَاغَةِ ... إلخ.»

ولا أظن منتقدنا يقول إنما هذا ينطبق على الكتب الواردة من السلطان في أخبار الفتوحات، ومنشوركم هذا ليس عن السلطان ولا هو في فتح، فالجواب عند ذلك أن المنشور الذي يوجه إلى أمَّةٍ كبيرةٍ من وفد من وفودها في الاستنفار إلى تلافي خطْبٍ أو سدِّ خرقٍ أو مقصدٍ من تلك المقاصد العالية التي تتعلق بها حياةُ تلك الأمَّةِ هو أيضًا في حُكم كُتبِ الفتوحات وأجدر منها بمراعاة أصول المناشير العامة.

ولقد ورد في رسائل أبي إسحق الصابئ الذي كان رئيسَ كُتَّاب ديوان الخلافة في بغداد كثيرٌ من الكتب التي تتشابه في المعنى أسجاعها وتتوالى مترادفاتها، وقد أوضحت يومئذ في حاشية تلك الرسائل التي طبعتها أن هذا المذهبَ هو خلاف قاعدة الإيجاز، ولكنه مِمَّا يستحب في خطاب الأمة ونداء الجمهور مِمَّن لا بد للكاتب أن يعيد المعنى عليهم ويصقله مِرارًا حتى يتشربوا معناه ويشتفوا مغزاه.

بقي علينا أن نأتي بشواهد على مذهب فصحاءِ العربِ في استعمال المترادف وإبراز المعنى الواحد بصورٍ مختلفةٍ، وهذا هو أكثر من أن تحيط به المجلدات، وما على المكابر فيه إلا أن يقرأ خطب العرب ونخب رسائلهم وغرر أقوالهم ويتصفح كتابات فحول البلاغة، مثل: الجاحظ، والزمخشري، وبديع الزمان، والخوارزمي، والصاحب بن عباد، وابن العميد، وأبي إسحق الصابئ، والقاضي الفاضل، وابن خلدون، ولسان الدين ابن الخطيب وغيرهم، فيجد في كل صفحة من صفحات

كُتبهم شيئًا يحقق له كون هذا المذهب مذهبهم عندما يقتضيه المقام، ولكن لما كان المثل الحاضر أوقع في النفس توخينا أن نأتي بشيء من الأمثال مِمَّا حضرنا على طريق المصادفة، فنقول: قال أبو الهلال العسكري في «الصناعتين» وهو من أساتذة الصناعة: «فإن صاحب العربية إذا أخلَّ بطلب هذه العلوم وفرط في التماسها؛ فاتته فضيلتُها، وعلقت به رذيلة قوتها، وعفى على جميع محاسنه، وعمى سائر فضائله.»

فأنت ترى المشابهة في المعنى بين «أخلَّ» و«فرَّط» والطلب والالتماس وفوت الفضيلة وعلوق الرذيلة، وكذلك بين «عفى، وعمى، والمحاسن، والفضائل» وليس الفرق بين هذه الألفاظ ومدلولاتها أعظم من الفرق بين الصارخة القومية والنعرة الجنسية وأنها بدأت مع الأقوام ونشأت مع الأمم منذ الكيان ... إلخ، وبين مدلولاتها؛ بل كل ذلك من قبيل إشباع المعنى وتمكينه في ذهن السامع بالصور المختلفة.

وقال الشيخُ شهاب الدين محمود الحلبي صاحب حسن التوسل: وهذه العلوم وإن لم يضطر إليها ذو الذهن الثاقب، والطبع السليم، والقريحة المطاوعة، والفكرة المنقحة، والبديهة النجيبة، والروية المتصرفة، لكان العالم بها متمكن من أزمة المعاني وصناعة الكلام، يقول عن عِلم، ويتصرف عن معرفة، وينتقد بحجة ويتخير بدليل ويستحسن ببرهان ... إلخ.

فإن قيل: إلا أن هذا ليس من الترادف لوجود فروق دقيقة بين «قريحة

ورويـة، وفكـرة وبديهـة، وحجـة ودليـل وبرهـان، ويتخـير ويستحسـن»، فالجـواب أن هـذه الفـروق الدقيقـة هـي أيضًـا في الجمـل التـي عابهـا علينـا صاحـبُ مقالـة التطـور، مثـل: «الانتبـاذ»، و«التنحـي»، و«الانـزواء»، و«الاعتـزال»، و«ترامـت بـه عـن منبتـه الأقطـار»، و«تباينـت بينـه وبـين أهلـه الأوطـان والأوطـار». وإن كثيريـن مـن أئمـة اللُّغَـةِ ينكـرون وجـود مـترادف حقيقـي فيهـا، ويقولـون إن النـاس صـاروا يعـدون بعـض الـكلام مترادفًـا لجهلهـم بأصـل معنـاه وإنمـا هـو تشـابه لا غـير. ولا ينبغـي أن ننـسى أن صاحـب حسـن التوسـل لا يتكلـم عـن جمهـور أكثرهـم ليسـوا مـن أهـل الفـن بـل كلامـه موجـه إلى الخـواص دون غيرهـم، ومـع هـذا فقـد مـرَّ بـك إطنابـه.

وانظـر إلى قـول أبي طالـب حـين خطـب النبـي ﷺ خديجـة: الحمـد للـه الـذي جعلنـا مـن زرع إبرهيـم وذريـة إسـماعيل، وجعـل لنـا بيتًـا محجوجًـا وحرمًـا آمنًـا ثـم إنَّ محمـدَ بـن عبـد اللـه بـن عبـد المطلـب ابـن أخـي مـن لا يـوزن بأحـد إلا رجحـه ولا يعـدل بأحـد إلا عدلـه.

هـاك مثـلًا مِـن قـولِ عثـمان بـن عفـان — رضي اللـه عنـه: إن لـكلِّ شيءٍ آفةً، وآفـةُ هـذا الديـن وعاهـة هـذه المِلَّـةِ (تأمـل في: آفـة وعاهـة وديـن وملـة) قـومٌ عيَّابـون طعَّانـون (تأمـل أيضًـا) يظهـرون لكـم مـا تُحِبُّـون ويـسرُّون مـا تكرهـون. أمـا واللـه يـا معـشر المهاجريـن والأنصـار لقـد عِبْتُـم عَـليَّ أشـياء ونقمتـم منـي أمـورًا (تأمـل أيضًـا) قـد أقررتـم لابـن الخطـاب بمثلهـا ولكنـه وقمكـم وقـمًا ودمغكـم (انظـر إلى تقـارب: وقـم ودمـغ وكلاهـما بمعنـى: أذلَّ وقهـر) حتـى لا يجـترئ أحـد منكـم يمـلأ بـصره منـه ولا يشـير بطرفـه إلا

مسارقةً إليه (وهنا المعنى واحد أشير إليه بصورتين مختلفتين ليزداد رسوخًا في فكر السامع).

فنظن أن عثمان بن عفان كان عربيًّا، لا بل من الطبقة الذين تؤخذ عنهم لُغة العرب، وخطبته هذه معدودة من غرر الخطب التي يستشهد بها في البلاغة.

فانظر كم ثمة من الجرأة عندما يقول صاحبنا: «هذا النوع من الكتابة غير طبيعي أو غير عربي»، فإن هذا النوع الذي وصفه بكونه غير عربي هو هذه الطريقة بعينها كما مر بك وكما سيأتيك.

وإليك من كلام زياد ابن أبيه الذي ضرب المثل بفصاحته فقيل «أخطب من زياد»: فإن الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء والغي الموفي على النار ما فيه سفهاؤكم. إلى أن يقول: من تركتكم الضعيف يقهر والضعيفة المسلوبة في النهار لا تنصر والعدد غير قليل والجمع غير متفرق. إلى أن يقول: إني لو علمت أن أحدكم قتله السل من بغضي لم أكشف له قناعًا ولم أهتك له سترًا ... إلخ.

عندك هنا: الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء، والضعيف يقهر، والضعيفة لا تنصر، والكشف والهتك، والقناع والستر، فماذا يقال لهذا إن لم يكن مترادفًا؟! ولماذا هذا يجوز ويستشهد به في أنموذجات البلاغة ويعاب قولنا: «وأمَّا هذه النعرة الجنسية والحمية القومية وإنْ عَمَّ أمرُها جميع الأمم ولم يخلُ منها عربٌ ولا عجمٌ ... إلخ.»

ولعبد الملك بن مروان ومكانه من البلاغة والفصاحة مكانه: فتنزل بكم جائحة السطوات، وتجوس خلالكم بوادر النقمات، وتطأ رقابكم بثقلها العقوبة فتجعلكم همدًا رفاتًا، وتشتمل عليكم بطون الأرض أمواتًا ... إلخ. ما هو المعنى الجديد بين «جائحة السطوات» و«بوادر النقمات»، وبين «تجعلكم رفاتًا» و«تشتمل عليكم الأرض أمواتًا؟» أم تقول هذا حشو ولو صدر من عبد الملك بن مروان. كلا أيها الأديب هذا تكرار وتأكيد من سلطان يريد أن يرهب رعيته وينذر قومه حتى يستقيموا على الطاعة، وهو أبلغ وأوفى بالغرض من الكلام الذي قلَّ ودلَّ والذي ليس فيه تكرار معنى؛ بل هو أوقع في نفوس السامعين مِمَّا لو اقتصرنا على قوله: «فتنزل بكم جائحة السطوات وتطأ رقابكم العقوبة فتجعلكم رفاتًا.»

وإليك من الحجاج بن يوسف من خطبة على أهل العراق: إنني لأرى رُءوسًا قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها، والله كأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى. إلى أن يقول: لقد فررت عن ذكاء وفتشت عن تجربة وأجريت من الغاية، وإن أمير المؤمنين عبد الملك نثر كنانته بين يديه فجمع عيدانها عودًا عودًا فوجدني أمرها عودًا وأشدها مكسرًا، فوجهني إليكم ورماني بكم يا أهل الكوفة يا أهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق؛ لأنكم طالما أوجفتم في الفتنة واضطجعتم في منان الضلال وسننتم سننَ البغي، وايم الله لألحونَّكُم لَحوَ العودِ ولأقرعَنَّكُم قَرعَ المروة. والله لا أحلف إلا صدقت، ولا أعد إلا وفيت ... إلخ. ثم يقول: فاستوثِقُوا واعتدلوا ولا تميلوا واسمعوا وأطيعوا وشايعوا

وبايعـوا. ا.هـ.

تذكـر تهكـم صاحـب المقالـة بمـن تمـادى في ضلالـه ولـجَّ في غوايتـه، وقابـل ذلـك بقـول الحجـاج هنـا وتكريـره ثـلاث فقـر متتابعـة في معنـى الفتنـة والضـلال والغـي، ثـم تدبـر قـول الحجـاج: اعتدلـوا ولا تميلـوا، فـإن الاعتـدال وعـدم الميـل شيء واحـد، ثـم قولـه: اسـمعوا وأطيعـوا وشـايعوا وبايعـوا، وكل هـذا متقـارب المعنـى مـن قبيـل الشـقص الأوفـر والحـظ الأكمـل» التـي عابهـا علينـا.

وخـذ مـا قالـه أبـو بكـر الصديـق لأبي عبيـدة بـن الجـراح حينـما أرسـله إلى عـلي — رضي اللـهُ عنهـم جميعًـا — عندمـا تلـكأ عـليٌّ عـن المبايعـة وهـو مِـن جُملـة كلامٍ: «ولَـئِنْ لَـم يَنْدَمِـلْ جرحـه بِيَسَـارِكَ وَرفقـك وَلَـم تجـب حيتـه برقيتـك وَقَـعَ اليـأسُ وَأعضـل البـأسُ واحتيـج بَعـدَ ذَلِـكَ إِلى مَـا هُـو أمـرٌ مِنـه وأَعْلَـق وأَعْسَـر مِنـه وأَغْلَـق، واللـه أسـأل تمامـه بـك ونظامـه عـلى يديـك، فتـأت لـه أبـا عبيـدة وتلطـف فيـه وانصـح للـه — عـزَّ وجـلَّ — ولِرسُـولِه ﷺ غـير آل جهـدًا ولا قـال حمـدًا واللـه كالئـك وناصرك وهاديـك ومُبـصرك إن شـاء اللـهُ. امـض إلى عـليٍّ، أخْفِـضْ لـهُ جنَاحَـكَ، واغْضُـضْ عِنـده صَوتَـك، واعلـم أنَّـه سُـلالة أبي طالـب ومكانـه مِمَّـن فقدنـاه بالأمـسِ ﷺ مكانـه، وقُـلْ لَـهُ: البحـر مغرقـه والـبر مفرقـه، والجـو أكلـف والليـل أغـدف، والسـماء جلـواء، والأرض صلعـاء، والصعـود متعـذر، والهبـوط متعـسر، والحـق عطـوف رءوف، والباطـل عنـوف عسـوف، والعجـب قداحـة الـشرِّ، والضغـن رائـد البـوار، والتعريـض شـجار الفتنـة، والقحـة ثقـوب العـداوة.» إلى أن يقـول: «مـا هـذا الـذي تسـول لـك نفسـك، ويـدوي بـه قلبـك

ويلتوي عليه رأيك ويتخاوص دونه طرفك، ويسري فيه ظعنك، ويتراد معه نفسك، وتكثر عنده صعداؤك، ولا يفيض به لسانك. أعجمة بعد إفصاح، أتلبيس بعد إيضاح.» إلى أن يقول: «زمان كنت فيه في كن الصبا وخدر الغرارة وعنفوان الشبيبة.» ومثله قول الرسول ﷺ عن عليٍّ: «إني أكره لفاطمة ميعة شبابه وحداثة سنه.» فقال له أبو بكر: «متى كنفته يدك ورعته عينك حفت بهما البركة وأسبغت عليهما النعمة.» وميعة الشباب وحداثة السن ثم البركة والنعمة وكله من باب واحد. ومن جملة قول أبي بكر في تلك الرسالة إلى علي عن رسول الله ﷺ «إنه لم يدع أحدًا من أصحابه وأقاربه وسجرائه (جمع سجير وهو الخليل الصفي) إلا أبانه بفضيلة وخصه بمزية وأفرده بحالة أتظن أنه ﷺ ترك الأمة سدى بددًا عباهل مباهل (عباهل مهملة مسيبة، ومباهل من أبهل الوالي الرعية: تركهم يركبون ما شاءوا) طلاحي مفتونة بالباطل مغبونة عن الحق لا رائد ولا ذائد، ولا ضابط ولا حائط، ولا ساقي ولا واقي، ولا هادي ولا حادي. كلا ما اشتاق إلى ربه ولا سأله المصير إلى رضوانه وقربه إلا بعد أن ضرب المدى وأوضح الهدى وأبان الصوى وأمن المسالك والمطارح وسهل المبارك والمهايع، وإلا بعد أن شدخ يافوخ الشرك بإذن الله وشرم وجه النفاق لوجه الله ... إلخ.» إلى أن انتهى بقوله: «دعنا نقضي (كذا) هذه الحياة بصدور بريئة من الغل ونلقى الله بقلوب سليمة من الضغن.» هل نحن محتاجون إلى التنبيه على ما مرَّ بك من المترادفات والمعاني المبرزة في صيغ مختلفة اللفظ متحدة المآل أم تغنينا دراية القارئ عن الإيضاح؟!

ومـن كلامِ عُمـر في رسـالة إلى عـلي: «إن أكيـس الكيـس مـن منـح الشـارد تألفًـا، وقـارب البعيـد تلطفًـا، ولا خـير في عِلْـمٍ مُسـتعمل في جَهـل، ولا خـير في معرفـة مشـوبَة بنكـر.» إلى قولـه: «بـل نحـن في نـورِ نبـوةٍ وضيـاءِ رسـالةٍ، وثمـرةِ حكمـةٍ وأثـرةِ رحمـةٍ، وعنـوانِ نعمـةٍ وظـلِّ عظمـةٍ.» (تأمـل في قولـه: نـور نبـوة وضيـاء رسـالة ... إلـخ).

وكان مـن جملـة جـواب عـلي: «لمـا وقـذني بـه رسـول اللـه وأودعنـي مـن الحـزن لفقـده؛ وذلـك أننـي لم أشـهد بعـده مشـهدًا إلا جـدد عـلي حزنًـا وذكـرني شـجنًا.» (قابـل هـذه الجمـل بمـا قالـه صاحـب مقالـة التطـور في هـذا المقـال وتأمـل).

ومـا عـلى القـارئ إلا أن يأخـذ نهـجَ البلاغـة ويتصفـح مـا فيـه مـن الخطـب التـي تتقطـع مـن دونهـا الأعنـاق لِيَعلـمَ مـا فيهـا مـن هـذا النـوع الـذي يزعـم صاحبنـا أنَّـه ليـس بعـربي ... ومـن كلام عمـر: «ومـن أعجـب شـأنك قولـك: ولـولا سـالف عهـد وسـابق عقـد لشـفيت غيظـي. وهـل تـرك الديـن لأهلـه أن يشـفوا غيظهـم بيـد أو بلسـان؟! تلـك جاهليـة قـد اسـتأصل اللـه شـأفتها واقتلـع جرثومتهـا.» ا.هـ.

سـبحان اللـه بعـد أن قـال: «سـالف عهـد» فـما الحاجـة إلى «سـابق عقـد»؟ ثـم مـا هـو الفـرق بـين «اسـتأصل شـأفتها» وبـين «اقتلـع جرثومتهـا»؟ ولا أظنـه أعظـم مـن الفـرق بـين «انتبـذ مكانًـا» وبـين «تنحـى جانبًـا» أوكان عمـر غـير بصـير بالعربيـة؟!

ومِـن كلامِ أمِّ الخـير بنـت الحريـش البارقيـة يـوم صفـين في الانتصـار لعـليٍّ:

«إنَّ اللـهَ قَـد أوضَـحَ الحـقَّ، وأَبَـانَ الدليـلَ، ونـور السـبيل، ورَفَـعَ العِلْـمَ، فَلَـم يَدَعْكُـم فِي عَمْيَـاء مُبهَمَـة، ولا سَـودَاء مُدلهمـةٍ.»

ومِـن كلام الزرقـاء بنـت عـديٍّ بـن قيـس الهمدانيـة يـوم صفـين أيضًـا: «أيُّهـا النـاس، ارعـووا وارجعـوا؛ إنكـم أصبحتـم في فِتنـة، غشـتكم جلابيـبُ الظلـمِ، وجـارتْ بِكُـم عَـن قَصـدِ المحجَّـةِ، فيَـا لَهـا فِتنـة عَمْيَـاء صـمَّاء بكْـمَاء، لا تسـمع لِنَاعِقِهَـا، ولا تسـلس لِقَائِدِهـا.»

وقـال سـعيدُ بـن عثـمان بـن عفـان حـين دخـل عـلى معاويـة: «ائتمنـك أبي واصطنعـك حـين بلغـك باصطناعـه إيـاك المـدى الـذي لا يجـارى والغايـة التـي لا تسـامى ... إلـخ.» فقـال لـه معاويـة: «أمَّـا مـا ذكـرت يـا ابـن أخـي مـن تواتـر آلائكـم عـلي وتظاهـر نعمائكـم لـدي فقـد كان ذلـك ووجـب عـلي المكافـأة والمجـازاة.» ا.هـ.

فانظـر أيهـا القـارئ إلى: المـدى الـذي لا يجـارى، والغايـة التـي لا تسـامى، وإلى: تواتـر الآلاء وتظاهـر النعـماء، وإلى: المكافـأة والمجـازاة، هـل تـرى في هـذا الـترادف فرقًـا عـن: «ترامـت بـه عـن منبتـه الأقطـار وتباينـت بـه عـن ألـه الأوطـان والأوطـار» أم أسـلوب سـعيد بـن عثـمان ومعاويـة بـن أبي سـفيان غـير عـربي؟

والعـربي هـو أسـلوب الأسـتاذ صاحـب مقالـة التطـور! الـذي هـو مـع هـذا كلـه ينـسى أنـه قـال في هـذه المقالـة مـا يـأتي: وانتقـل مـن حالـة الخشـونة

والبربرية والجهل إلى حالة الظرف والأنس والمعرفة، فما هو يا ترى ذلك الفرق العظيم بين البربرية والجهل، وبين الظرف والأنس، وما هو البون بين هذه المترادفات هنا، وقوله أحزنني وأمضني وأقض مضجعي على فرض ورودها على الشكل الذي أورده.

وكُنَّا نُحبُّ أنْ نطَّلِعَ على كِتابات هذا الفاضل ونقرأ له أكثرَ من مقالةٍ واحدةٍ (كذا)؛ لننظر هل تمكَّن من جعل كلامِه كُلِّه من قبيل (كلا ولا)؟ وهل راعى شروط الاقتصاد الذي يقتضيه هذا الزَّمان؟ وهل أفرغ جميع فصوله في قالب تلغرافات؟

فليعلم أن الاقتصاد في غير موضعه هو تبذير وتفريط وهو أشبه باقتصاد من يهمل استدعاء الطبيب وشراء العلاج حُبًّا في التوفير فتطول علته ويتعطل عمله ويخسر أضعاف ما وفَّر. وكذلك لُغة التلغرافات تبقى إلى الأبد لُغة تلغرافات لا تصلح لتفصيل مجمل ولا للإحاطة بموضوع ولا لشفاء غليل من مبحث. ومن قرأ كُتب الغربيين وطالع مقالاتهم اليومية وسمع محاضراتهم المستمرة علم أنهم يذهبون مذهب التطويل أكثر منا، وأن لا وجه للمقايسة بيننا وبينهم في الإطناب والشرح.

وربما يعترض بأن تطويلهم هذا إنما هو لتوفية الجزئيات حقها وإيضاح الغوامض وتشريح الدقائق العلمية حال كون العرب إنما يعيدون المعنى فيقولون: أمضني وأرمضني وأقلقني وأقضَّ مضجعي. والجواب ماذا نقول في كتب القصص «الرومان» التي تصدر بالألوف

وليس فيها شيء من المباحث الفنية، نجد الكاتب إذا أراد أن يصف لك أقل منظر أو أدنى حادث أو أخف حالة نفسية لم يزل يعيد لك المعنى ويصقله ويقربه إلى الفهم ويبدي فيه ويعيد حتى تمر الصفحات بعد الصفحات وأنت لم تزل في ذلك المعنى نفسه. أفهذه لُغة التلغرافات؟!

ولنأتِ لك بشيءٍ من كلام الجاحظ الذي كان يعرف أن يكتب العربية ... قال في وصف الكتاب: «نعم الأنيس ساعة الوحدة، ونعم المعرفة ببلاد الغربة، الكِتابُ وعاءٌ مُلِئَ عِلمًا وظرفٌ حُشِيَ ظرفًا.» ثم يقول: «فما رأيت بُستانًا يحمل في ردن وروضة تنقل في حجر.» ثم يقول: «ولا أعلم جارًا أبر، ولا خليطًا أنصف، ولا رفيقًا أطوع، ولا معلمًا أخضع، ولا صاحبًا أظهر كفاية وعناية، ولا أقل إملالًا ولا إبرامًا، ولا أبعد عن مراء، ولا أترك لشغب، ولا أزهد في جدال، ولا شجرة أطول عمرًا ولا أطيب ثمرًا، ولا أقرب مجتنى ولا أسرع إدراكًا، ولا أوجد في كل إبان من كتاب. ولا أعلم نتاجًا في حداثة سنه وقرب ميلاده، ورخص ثمنه وإمكان وجوده، يجمع من التدابير العجيبة والعلوم الغريبة، ومن آثار العقول الصحيحة ومحمود الأذهان اللطيفة.» إلى أن يقول: «ولو لم يكن من فضله عليك وإحسانه إليك إلا منعه لك من الجلوس على بابك ونظرك إلى المارة بك ... إلخ.» إلى أن يقول: «ولولا ما رسمت لنا الأوائل في كتبها، وخلدت من عجيب حكمها، ودونت من أنواع سيرها حتى شاهدنا بها من غاب عنا وفتحنا بها كل منغلق علينا ... إلخ.»

ثم يقول في جواب شرط: «علم أن ذلك أتم وأبلغ وأكمل وأجمع.» ويقول في محل آخر: «فرأى الكتاب أبهى وأحسن وأكرم وأفخم.»

ويقـول في مـكان آخـر: «وربمـا كان الكتـاب هـو المحفـور إذا كان ذلـك تاريخًـا لأمـر جسـيم أو عهـدًا لأمـر عظيـم كـما كتبـوا عـلى قبـة غمـدان وعـلى بـاب قـيروان.» ويقـول أيضًـا: «ويضعـون الخـط في أبعـد المواضـع مـن الدثـور وأمنعهـا مـن الـدروس.»

ويقـول: «وأهـل العلـم والنظـر وأصحـاب الفكـر والعـبر والعلـماء بمخـارج الملـل وأربـاب النحـل وورثـة الأنبيـاء وأعـوان الخلفـاء يكتبـون كتـب الظرفاء والملحـاء وكتـب الملاهـي والفكاهـات وكتـب أصحـاب المـراء والخصومـات ... إلـخ.»

كان يقـدر الجاحـظ أن يقـول في الكتـاب: بسـتان يحمـل في ردن مـا رأيـت جـارًا أبـرَّ ولا رفيقًـا أطـوع ولا صاحبًـا أظهـر كفايـة ولا أقـل إبرامًـا ولا أبعـد عـن مـراء مـن كتـاب. ويختـصر كثـيرًا مِـمَّا جـاء عـلى معنـى واحـد تقريبًـا، ولكـن لم تكـن النفـس لتشـبع مـن الموضـوع شـبعها منـه بعـد هـذا التكـرار والتأكيـد.

وقـال عـلي بـن الجهـم: «إذا غشـيني النعـاسُ في غـير وقـت النـوم تناولـت كتابًـا فأجـد اهتـزازي فيـه مـن الفوائـد والأريحيـة التـي تعتـادني وتعتريني مـن سرور الانتبـاه وعـز التبيـين، وإني إذا استحسـنت كتابًـا أو اسـتجدته ... إلـخ.»

ومـن كلام بديـع الزَّمـان: «والمـوت أمـر عظـم حتـى هـان وخشـن حتـى لان ... إلـخ.» ومـن أقوالـه: «مـا وقـع مـن حـرب وحـدث مـن خطـب، وكان مـن يابـس ورطـب ... إلـخ.»

ومن كلام الخوارزمي: «ويموت سيد من آل بيت المصطفى وشريف من عترة المجتبى فلا تشهد جنازته ولا تجصص مقبرته، ويموت مسخرة لهم (أي لبني العباس) أو لاعب أو زامر أو ضارب ... إلخ.»

وأول مقدمة ابن خلدون:

الحمد لله الذي له العزَّة والجبروت، وبيده الملك والملكوت، وله الأسماء الحسنى والنعوت، القادر فلا يعزب عنه شيء في السموات والأرض ولا يفوت، العالم فلا يخفى عنه ما تظهره النجوى أو يخفيه السكوت، خلقنا من الأرض نسمًا، واستعمرنا فيها أجيالًا وأُمَمًا، ويسر لنا فيها أرزاقًا وقسمًا تكتنفنا الأرحام والبيوت، ويكفلنا الرزق والقوت، وتتداول آجالنا الأيام والوقوت، ويجري علينا ما خط علينا كتابها الموقوت، وهو الحي الذي لا يموت ... إلخ.

إنْ صحَّ رأيُ صاحبنا فما معنى: «يعزب ويفوت، وأجيالًا وأممًا، وأرزاقًا وقسمًا، ورزق وقوت، وأيام ووقوت» أفليس كل زوج منها واحدًا؟

ومن ترسل الصابئ في التهنئة بمولود: فأخذ ذلك عندي مأخذ الاغتباط ونزل عندي أعلى منازل الابتهاج، وسألت الله أن يختصه بالبقاء الطويل والعمر المديد. إلى أن يقول: ويحرس هذه السعادة من خلل يعترض اتصالها، أو فترة تخترم زمانها، أو نائبة تشوبها أو تنغصها، أو رزية تثلمها أو تنقصها إلى انتهاء الأمد الأبعد والعمر الأطول. إلى قوله: الأيام التي استشعرت نورًا من سنائه، وآنست جمالًا من بهائه، وثابت مصالحها ببركته، وتوافت خيراتها بيمنه، واعتقدت أن السعادات طالعة

عـلي بمطلعـه أسـبابها ناجمـة إلي بمنجمـه ... إلـخ.

وفي الموضـوع نفسـه لعـلي بـن حمـزة بـن طلحـة: فاسـتفزتني غبطـة اسـتحوذت عـلى جوامـع لبـي، وتملكتنـي بهجـة ثـوت في مرابـع قلبـي، وطفقـت مبتهـلًا وتضرعـت متوسـلًا أن يجمـع لـه بـين العمـر المديـد والجـد السـعيد وأن يجعـل للحيـاة أياديـه لـدى سـيدي الأمـير متضاعفـة الأعـداد مترادفـة الأمـداد ... إلـخ. إلى أن يقـول:

وأنْ يَقِيَـهُ مِـن كَيْـدِ عانـدٍ إذا عَنـد، ويَحْميـه مِـن شرِّ حاسـد إذا حسـد، وأن يؤتيـه عائـدتي العاجلـة والعقبـى ويحظيـه بسـعادتي الآخـرة والأولى ... إلـخ.

ومـاذا عـسى الإنسـان أن يستشـهد مِـمَا ليـس لـه نهايـة؟! وأرجـو الأسـتاذ المنتقـد ألا يؤاخـذني عـلى الإطنـاب؛ لأنـه ضروري لإيجـاد صـورة تامـة في الذهـن، ولإقنـاع مـن كان مكتفيًـا برأيـه، وأن يتغمـد «قلـة بضاعتـي ونـزارة مـادتي الفكريـة» بوفـرة بضاعتـه وغـزارة مادتـه، وفـوق كل ذي عِلـم عليـم.

تطور اللُّغَةِ في ألفَاظِهَا وأسَالِيبِهَا (٢)

كنت نشرت في أحد أعداد الأربعاء السابقة من جريدة السياسة الغرَّاء في صفحة الأدب منها مقالًا عنوانه «تطور اللُّغَةِ في ألفاظها وأساليبها» تكلمت في آخره عن فرق من فروق كثيرة بين المذهبين القديم والجديد في الكتابة، وهو أن أصحاب المذهب القديم أولعوا بالمترادفات يكيلونها جزافًا على غير حاجة إليها ولا فائدة منها. وقدمت على ذلك مثلًا من رسالة لكاتب كبير لم أذكر اسمه، من ذلك قوله: «أيها الإخوان إن الصارخة القومية، والنعرة الجنسية، قد بدأت مع الأقوام ونشأت مع الأمم، مذ الكيان، ومنذ الاجتماع البشري، وتساكن الإنسان مع الإنسان ... إلخ.» فالصارخة هي النعرة، والقومية هي الجنسية، وبدأت هي نشأت، والأقوام هي الأمم، ومُذ الكيان هي منذ الاجتماع البشري، ومنذ الاجتماع البشري هي منذ تساكن الإنسان مع الإنسان.

فأنت ترى أنه ما من كلمة إلا ومرادفتها معها على غير حاجة إليها ولا فائدة منها. ثم قلت إن هذا النوع من الكتابة غير طبيعي، أو غير عربي، أو على الأقل لا يستمرئه ذوق هذا العصر. فلما وصلت جريدة السياسة الغرَّاء إلى ذلك الكاتب الكبير الذي نعرف فضله — وإنْ كُنا ننكر عليه مذهبه هذا — غضب جدًّا، لا لأن انتقادي جاء في غير محله؛ بدليل أنه لم يتصدَّ أحدٌ للرد عليَّ منذ نشرت رسالتي إلى أن تفضل هو بالردِّ عليها، والفترة ليست قصيرة، وبدليل أن جريدة السياسة الغرَّاء — ومكانها في الصحافة الراقية مكانها — قد شرفتني فجعلت مقالي في صدر صفحة الأدب وهو المكان المعد لرسائل الأستاذ

طـه حسـين، ولم يكـن ذلـك منهـا إلا لأنهـا رضيـت عـن رسـالتي، ورأت أن مـا شرعـت في الـكلام عنـه مـن الفـروق بـين المذهبـين القديـم والجديـد في الكتابـة، مِـمَّا تمـس إليـه الحاجـة تعزيـزًا للمذهـب الجديـد الـذي تدعـو هـي إليـه.

نعـم إن الأمـير لم يغضـب لأن انتقـادي المذهـب القديـم جـاء مباينًـا لوجـه الصـواب، وإنمـا غضـب لأني استشـهدت بأقوالـه، ولم أستشـهد بهـا إلا لأني اخـترت أن أستشـهد بأقـوال كاتـب كبـير يوثـق بـه «أشـفقت» أن يقلـده غـيره في أسـلوبه هـذا بـلا بحـث ولا انتقـاد.

نعـم لم يغضـب لأني انتقـدت وإنمـا غضـب لأني استشـهدت بأقوالـه، فلـو تركتـه ولم أتـرك أحـدًا مـن المتقدمـين والمتأخريـن إلا انتقدتـه واستشـهدت بأقوالـه، لـكان الخطـب عنـده هينًـا، ولـكان انتقـادي حينئـذٍ في محلـه، ولكفـى نفسـه مَئُونـة هـذا الـردِّ الطويـل العريـض، الـذي أرجـو أن لا يتعجـل في الغضـب عـلي إذا قلـت إن هـذا الـردَّ مـن أولـه إلى آخـره جـاء دليـلًا جديـدًا عـلى أن الأمـير مـن أصحـاب المذهـب القديـم، وأنـه لا يـزال مولعًـا بالمترادفـات عـلى غـير حاجـة إليهـا ولا فائـدة منهـا.

وإليـك شـيئًا مـن كثـير مِـمَّا جـاء في ردِّه قـال: «كلُّ دور مـن أدوار اللُّغَـةِ العربيـةِ سـواء دور الجاهليـين أو المخضرمـين أو العهـد الأمـوي أو العـصر العبـاسي أو القـرون التـي بعـده» فالـدور والعهـد والعـصر والقـرون مترادفـات، أجمـل بقولـه كل دور مـن أدوار اللُّغَـةِ العربيـة ثـم فصـل بقولـه: سـواءٌ دور كـذا أو عهـد كـذا أو عـصر كـذا، ثـم أجمـل بقولـه: والقـرون

التـي بعـده، لا لأنـه يريـد الإجـمال فالتفصيـل فالإجـمال، ولكـن ليـأتي بمترادفاتـه وقـد كان التفصيـل عـلى قـدر مـا عنـده مـن تلـك المترادفـات. وقـال: «فللأندلـس منـزع ولليمـن مذهـب ولمـصر لهجـة وللشـام أسـلوب وللعـراق نمـط» فالمنـزع والمذهـب واللهجـة والأسـلوب والنمـط مترادفـات، ولـو بقيـت لديـه بقيـة مـن المترادفـات ولـو مـن الألفـاظ الغريبـة المهجـورة لقـال: ولفلسـطين كـذا وللسـودان كـذا ولأهـل المـدر كـذا ولأهـل الوبـر كـذا. وقـال: «في كلِّ لُغـةٍ وكلِّ منطـقٍ.» وقـال: «إذا أراد الكاتـبُ أن يَجـولَ في المواضيـع الحديثـة والمعـاني المسـتجدة.» وقـال: «إن اللُّغَـةَ الفرنسـاوية التـي هـي أفصـح لُغـات أوروبـا لهـا أسـلوب خـاص ونمـط قائـم بهـا». وقـال: «لإثبـات فضلـه وإظهـار طولـه.» إلى غـير ذلـك مِـمَّا لـو شِـئت تتبعـه لجـاء ردي مثـل رده طويـلًا عريضًـا بـل أطـول وأعـرض ... مـا قـول الأمـير — أعـزه اللـه — لـو شـئنا أن نترجـم عباراتـه هـذه إلى لُغـةٍ أجنبيـة، ولم يكـن فيهـا مـن المترادفـات مـا في اللُّغَـةِ العربيـة، أفـلا نضطـر إلى تكـرار اللفـظ بعينـه في غـير مواطـن تكـراره؟ فنقـع في عيـبٍ حـاول الأمـير أن يتجنبـه بذكـر مـرادف اللفـظ، وإن لم يكـن فـرق في الحقيقـة بـين تكـرار اللفـظ بعينـه وتكـراره بمرادفـه، ثـم مـا الفائـدة مـن تكـرار اللفـظ بلفظـه أو بمرادفـه؟ وليـس رده عـلي كلامًـا عـن سـلطان ولا هـو في فتـح إذا جـاز الإتيـان بالمترادفـات تـكال كيـلًا في الـكلام عـن سـلطان أو فتـح عـلى رأي الأمـير. أمـا كان الأولى بأدبـه وعلمـه أن يلـزم نفسـه قاعـدة «خـير الـكلام مـا قـلَّ ودلَّ؟» ولكنـه يظهـر أنـه لم يـراع هـذه القاعـدة لا في منشـوره الـذي «طبعـت منـه ألـوف وألـوف مـن النسـخ ليـوزع عـلى ملايـين وملايـين مـن الأمـة العربيـة في المـدر والوبـر» أو «الأمـة العربيـة جمعـاء في آفـاق الأرض

ومناكبها ومشارق الشمس ومغاربها» أو «الأمة العربية قاصيها ودانيها وحاضرها وباديها وخاصيها وعاميها» نعم لم يراعِ هذه القاعدة لا في منشوره ذاك، ولا في ردِّه هذا.

إذا كان لكلِّ مقامٍ مقال فما باله — أعزه الله — يجعل المقال الواحد لكل مقام؟! ولست أظن أن كاتبًا كبيرًا مثله يتعذر عليه أن يتنكب هذا الأسلوب من الكتابة لولا أنه ألفه واتخذه مذهبًا في كل ما يكتب سواء أكان منشورًا تقرؤه الأمة العربية جمعاء في المدر والوبر وفي آفاق الأرض ومناكبها ... إلخ، أم ردًّا ينشر في صفحة الأدب ولا يقرؤه إلا من يهمه أمره، وقليل ما هم. فصار إذا أمسك القلم انهالت عليه المترادفات كأنه يتناولها عن حبل ذراعه فلا يتركها حتى يجيء على آخرها. وليس هذا أسلوب الأمير، ولكنه أسلوب قديم أكل الدهرُ عليه وشرب، ولعله يتصل بعصر الكُهَّان، وليس الأمير فيه إلا مقلدًا، وإني أعرف كثيرين من أدباء عصر الأمير وخريجي مدرسته وأستاذه ينحون نحوه في الإكثار من المترادفات يكيلونها كيلًا على غير حاجة إليها ولا فائدة منها ... ولولا خوفي أن يغضبوا كما غضب الأمير لاستشهدت في هذا المقام بأقوالهم كما استشهدت في رسالتي تلك بأقوال ... ما أدراني أنهم هم أيضًا يغضبون عليَّ ولو لم أستشهد بأقوالهم، لأنهم قد يكونون حسبوا أن تعرضي لأحد زعماء مذهبهم تعريض بهم، على أني لم أكتب ما كتبت لأغضب فلانًا وفلانًا، أو كما قال الأمير — أعزَّهُ اللهُ: «لم يكن مقصدي الانتقاد لأجل الانتقاد» ولكن لأقرر مذهبًا جديدًا، فإذا لم يقبلوه فهم وشأنهم، لهم مذهبهم ولي مذهبي.

اعتمد الأمير في ردِّهِ عليَّ على أصول اقتبسها من كلام صبح الأعشى وعلى شواهد اقتبسها من أقوال من يسميهم بلغاء وفصحاء ... ويظهر أنه أجهد نفسه ونقب في تضاعيف الكتب كثيرًا. أما الأصول فليسمح لي الأمير أن أقول إنها ليست مِمَّا يصحُّ الاستشهاد به فيما نحن فيه، فهي من وادٍ ومسألتنا من وادٍ، ولولا خوفي أن أمِلَّ القارئَ الكريم، وأن أشغل من صفحة الأدب على حسابي ما لا يجوز لي أن أشغله، لحللت تلك الأقوال وأظهرت أنها لا تعني ما يريد الأمير أن تعنيه؛ لأنها لم تزد على أن للإيجاز مقامًا وللإطناب مقامًا، وقد سبقت فقلت في رسالتي تلك إن للإيجاز والإطناب مواطن وشرائط نصَّ عليها البيانيون أمسكتُ عن ذكرها؛ تأدبًا مع الأمير، ولو فرضنا أنها تعني ما يريد فأرجو أن أُنبه من الأمير غير غافل أننا نتكلم عن مذهب جديد لا مذهب قديم.

انتقدت على الأمير إكثاره من المترادفات على غير حاجة إليها ولا فائدة منها، فأحالني على المواطن التي يكرر فيها الكلام بلفظه أو بمرادفه عن حاجة إليه وفائدة منه. هذا ليس موضع الانتقاد يا سيدي، التكرار لا يكون إلا لنكتة كزيادة التوكيد؛ نحو كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ؛ ونحو: «إن بني هاشم بن المغيرة استأذنوني أن ينكحوا ابنتهم عليًّا فلا آذن ثم لا آذن ثم لا آذن.» وزيادة التوكيد هذه لا يقتضيها إلا المعاني التي يراد بيان شدتها وعظم تأثر النفس بها. فهل قولك: «إن الصارخة القومية والنعرة الجنسية نشأت مع الأمم وبدأت مع الأقوام مذ الكيان ومنذ الاجتماع البشري وتساكن

الإنسان مع الإنسان»، وقولك: «في كل لُغةٍ وكلِ منطقٍ»، وقولك: «إذا أراد الكاتب أن يجول في المواضيع الحديثة والمعاني المستجدة»، وقولك: «لِلُّغة الفرنساوية أسلوب خاص ونمط قائم بها» هل كل ذلك من المعاني التي يراد بيان شدتها وعظم تأثر النفس بها؟

انتقدت على الأمير إكثاره من المترادفات على غير حاجة إليها ولا فائدة منها، فقال إن منشوري للعامة، إن العامة يا سيدي الأمير لا تفهم منشورك، أكثرت فيه من المترادفات أم أقللت. إذا أردت أن تخاطب الجمهور فلا إخالك تنكر عليَّ أنه يجب أن تخاطبه بلغة مفهومة تتجنب فيها مثل قولك: «الشقص الأوفر» إلا إذا كان قصدك أن تنومه لا أن تفهمه. إذا أردت أن تكثر فليس الإطناب إكثارًا، كما أنه ليس الإيجاز اختصارًا، قد توجز مع الإكثار، وقد تطنب مع الاختصار، فإذا أردت أن تكثر فلا دخل للإطناب والإيجاز في إكثارك، وإنما الإكثار أن تضاعف معانيك ما شئت وشاء المقام، لا أن تضاعف ألفاظك على غير حاجة إليها ولا فائدة فيها.

انتقدت على الأمير إكثاره من المترادفات على غير حاجة إليها ولا فائدة منها فأحالني على صبح الأعشى في كلامه على التفاضل بين المساواة والإيجاز والإطناب. ليسمح لي الأمير أن أتجرأ على فضله فأقول: لا تفاضل بينها؛ لأن كلًّا منها غير الآخر ولأن لكل منها محلًّا لا يجوز أن يحل فيه غيره. وأما الكلام الوجيز الذي لا يؤمن وقوع الإشكال فيه، فهذا من الإيجاز المخِلِّ الذي أشار إليه البيانيون، ولا يجوز لعربي أن يعتمده لا مع العامة ولا مع الخاصة ...

أما الشواهد التي جاء بها على ذمة راويها دليلًا على أن أسلوبه عربي، فلست أظن أنه يجهل أني لا أعجز عن أن أورد له أضعاف أضعافها لا ترادف فيها ولا تكرار من كلام من يوثَق بعربيته.

كان الأولى بالأمير أن يقول إنه قد ورد في بعض أقوال العرب المنقولة إلينا على ذمة راويها شيء من الترادف، لا أن هذا أسلوب العرب، وإلا فكان يجب — على رأيه — إذا قبل رأس الحكمة مخافة الله، أن يقال ودليل العقل تقوى الخالق، وعنوان الفضل خشية الباري.

أعيذ اللُّغَةَ العربيةَ مِن مثل هذا.

ولِكُلِّ دولةٍ رجالٌ ...

كنا نظن أننا بعد الإتيان بنصوص علماء الأدب وشواهد فحول البلاغة، مثل الجاحظ والبديع الهمذاني وابن خلدون وأمثالهم، نأمن المناكرة والمكابرة ويقع التسليم بأن المترادف — هذا إذا كان ثمة مترادف حقيقي — مألوف في لُغةِ القوم قد يأتي في الأحايين لتمكين المعنى في نفس السامع، وأن للإطناب مقامات وللإيجاز مقامات، وأن وضع الواحد منهما موضع الآخر مخل بالفصاحة التي هي المطابقة لمقتضى الحال، إلى غير ذلك، فلم نستفد شيئًا، وإذا بصاحبنا لا يعييه شيء، ولا تقف في وجهه حجة ملزمة بل كل شيء له عنده جواب مهما كان ذلك الجواب كبيرًا عليه. وإذا وضعته بإزاء أولئك الأئمة الذين هم قدوة الناس في البيان قال لك ما محصله: ومن هم هؤلاء؟ ومن هو الجاحظ؟ ومن هو بديع الزمان؟ لا بل من هو علي؟ ومن هو عمر؟ ومن هو زياد ابن أبيه؟ ومن هو الحجاج؟ هؤلاء لهم مذهبهم في القول وأنا لي مذهبي ... صاحبنا أصبح صاحب مذهب، ولا غرو فلكل زمان أبطال ولكل دولة رجال.

يقع واحد في الخطأ ويقول ما لم يقله الناس، فإذا ردوه إلى القواعد واستظهروا عليه بالشواهد أجاب: هذا مذهب أولئك ولكنه ليس مذهبي.

لا تظن أنني مبالغ في شيء؛ بل أدين صاحبنا من نفس كلامه، قال: «لم يكن مقصدي الانتقاد لأجل الانتقاد ولكن لأقرر مذهبًا جديدًا (كذا)

إذا لم يقبلوه فهم وشأنهم لهم مذهبهم ولي مذهبي.»

وقال في موضع آخر: «ولولا خوفي أن أمل القارئ الكريم وأن أشغل من صفحة الأدب على حسابي ما لا يجوز لي أن أشغله لحللت تلك الأقوال وأظهرت أنها لا تعني ما يريد الأمير أن تعنيه لأنها لم تزد على أن للإيجاز مقامًا وللإطناب مقامًا» إلى أن يقول: «ولو فرضنا أنها تعني ما يريد فأرجو أن أنبه من الأمير غير غافل إلى أننا نتكلم عن مذهب جديد لا مذهب قديم.»

لا، بل والله كنت غافلًا عن أنك صاحب مذهب، ولم يخطر ببالي أن أسلوب الجاحظ صار قديمًا باليًا وأن مثلي ومثلك صرنا مجددين في اللُّغة. لا تحمل كلامي محمل التهكم فليس بتهكم أن يقال لك: لستَ بالجاحظ ولا علي بن أبي طالب، وإذا كان لهؤلاء مذهب فلستَ أنت بالذي يقدر أن يأتي بنقيضه ... فاربع على ظلعك ولا تركب في غير سرجك، فلسنا وإياك من تلك الطبقة. أما قوله إنه لو شاء لحلل تلك الأقوال وأظهر أنها لا تعني ما أريده ... إلخ، فليت شعري ماذا تعني تلك الأقوال؟ وقوله: «فهي في وادٍ ومسألتنا في وادٍ» فأي وادٍ نحن فيه غير هذا الوادي؟ أنكر جواز استعمال المترادف مطلقًا فأوردنا له نقطة من بحر من كلام الأئمة الذي فيه ما فيه من المترادف. زعم أن للإطناب مواطن غير المواطن التي أطلنا فيها فأوردنا له النصوص والشواهد التي هي مثل فلق الصبح على كون الإطناب مألوفًا في المناشير العامة — التي هي في موضوع منشورنا إلى الأمة العربية — فكيف تكون تلك الشواهد في وادٍ ومسألتنا في وادٍ؟ ورحم الله القائل:

وليس يصح في الأفهام شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

وقال: «اعتمد الأمير في رده على أصول اقتبسها من كلام صبح الأعشى، وعلى شواهد اقتبسها من أقوال من يسميهم بلغاء وفصحاء.»

أنا اعتمدت على أصول البيانيين التي وردت في صبح الأعشى وغير صبح الأعشى؛ لأن الأصول أصول أينما وجدت، فهل يريد أن نأتي له بنصوص أخرى من غير صبح الأعشى على أن للإطناب مقامًا وللإيجاز مقامًا، وأن التأكيد غير منكر في المناشير العامة، لا، بل الإيجاز فيما يخاطب به الجمهور مخالف لشروط الكتابة. أنا استشهدت في ردي السابق بكلام الرسول ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية وأبي عبيدة وزياد ابن أبيه والحجاج بن يوسف وعبد الملك بن مروان وسعيد بن عثمان بن عفان والزرقاء الهمدانية وأم الخير البارقية ثم الجاحظ وعلي بن الجهم وبديع الزمان والخوارزمي وابن خلدون والصابئ، وغيرهم. وهذا ما حضرني قبسة عجلان. أفهؤلاء الذين يقول صاحبنا «من يسميهم بُلَغاء وفُصحاء» أي إنني أنا أسميهم بُلَغَاء وفصحاء والحقيقة أنهم ليسوا كذلك.

نشدت الله كل قارئ منصف أليس مراد الأديب السكاكيني بقوله: «من يسميهم بلغاء وفصحاء» أنني أنا وحدي أسمي هؤلاء الرجال المار ذكرهم بلغاء وفصحاء وأنه لا يسميهم كذلك إِذْ لا يجد لهم بلاغة ولا فصاحة؟ لا جرم أن هذا هو مراده بهذه الجملة وكان الأولى

أن أمسك القلم عن مناظرته من بعد هذا ولكنني أكمل هذا الفصل ليزداد القراء بصيرة بالأمر وبعد ذلك أترك هذا العناء في مناظرة من لا يعجبه إلا رأيه. وقال: «فأحالني على صبح الأعشى في كلامه على التفاضل بين المساواة والإيجاز والإطناب. ليسمح لي الأمير أن أتجرأ على فضله فأقول لا تفاضل بينها؛ لأن كلًّا منها غير الآخر ولأن لكلٍّ محلًّا لا يجوز أن يحل فيه غيره.»

والله قد أعيتني الحيلة، ما أصنع لأقنع مناظري بالعدول عن هذا المراء الذي لا يليق بأديب مثله. أعيد ما قلته بحرفه بعد إيراد النصوص.

«إذن ليست هناك مسألة تطويل مُمِل وإيجاز مخلٍّ؛ بل مسألة الإيجاز في محلِّ الإيجاز، والإطناب في محلِّ الإطناب، فإذا خوطب الحكماء والعظماء والملوك بالكلام المشبع المبسوط المؤكد كان ذلك خللًا بأصول الكتابة، ومنافيًا للذوق السليم، كما أنه إذا خوطب الجماهير الذين لا تجد فيهم خاصيًّا إلا كان بجانبه ألف عامي بدقائق من البلاغة وإشارات وكنايات تقتضي إعمال الفكر، ولا يدرك الجمهور مغزاها كان ذلك مخالفًا لآداب الكتابة، وفات الغرضُ المقصودُ من الخطاب. نعم كان العرب يميلون إلى الإيجاز، ولكن كانوا يميلون أكثر إلى وضع الشيء في محله.»

أفرأيت كيف يذكرني مناظري بنفس الشيء الذي كنت قلته ليوهم الناس أنني مكابر فيه، ثم قال وهو مِن أغرب ما جاء في ردِّهِ:

أمَّا الشواهد التي جاء بها الأميرُ على ذِمَّةِ راويها دليلًا على أن أسلوبَه عربيٌّ، فلست أظن أنه يجهل أني لا أعجز عن أن أورد له أضعاف أضعافها لا ترادف بها ولا تكرار من كلام من يوثق بعربيته.

كلا لا تعجز عن إيراد شواهد على الكلام الموجز الذي ليس فيه مترادف ولا تأكيد وأنا مع عجزي وتسميتي تلك الطبقة بلغاء وفصحاء، واعترافي بأنني لا أصلح أن أكون من تلاميذهم لا أعجز أيضًا عن الإتيان بأضعاف الأضعاف التي وعدت بها من الشواهد أيها الأستاذ، ولكن لم أفهم معنى كلامك هذا؛ هل أنكرت أنا فضل الإيجاز وقلت لا بهاء لكلام موجز ولا مكان له عند العرب حتى تأتيني بتلك الشواهد التي تبطل دعواي؟ وهل ورد في كلامي شيءٌ يدلُ على كون المترادف هو أصلًا من أصول البلاغة لا غنى عنه جاء في محله أو في غير محله؟ متى وأين ادعيت ذلك؟

تحرير القضية أنك أنت تنكر المترادف مطلقًا، وأنا أقول: بل له مواضع، وقد جاء في كلام أهل اللسان المقتدى بهم في البيان. ولا ينشأ من ذلك كما يفهم بالبديهة أنني أنكر بدائع الإيجاز أو أوجب الإطناب في كلِّ مكان حتى تورد لي شواهد على ما لم تسبق لي دعوى بإنكاره وتتكثر هذا التكثر بدون سائق له.

أما قوله «على ذِمَّةِ راويها» فتلك مسألة أخرى، يظهر أنه لا يعجزه شيء، وقد أخذ اللُّغَةَ بالجسارةِ والقوةِ، فإذا استشهدت له بكلام أساطين العربية قال لك: أنت تراهم بلغاء، أمَّا أنا فلا، أو: مذهبي

غير مذهبهم، وإذا خاف أن ينكر عليه القراء كون الرسول ﷺ لم يصب شاكلة البلاغة عندما قال عن علي: «أكره لفاطمة ميعة شبابه وحداثة سنه»، وكون أبي بكر تكلم بعربي فصيح عندما قال: «لم يدع أحدًا من أصحابه إلا أبانه بفضيلة وخصه بمزية وأفرده بحالة» أو تذكر أن عليًّا صاحب «نهج البلاغة» لم يكن محتاجًا أدباء آخر الزمان أن يردوه إلى العربية الصحيحة عندما قال: «لولا سالف عهد وسابق عقد»، وعند قوله: «استأصل الله شأفتها واقتلع جرثومتها.» وأن معاوية أيضًا كان لا بأس به في العربية، وهو القائل: «تواتر آلائكم عليَّ وتظاهر نعمائكم لديَّ.» وأن الجاحظ كان أكتب مني ومن الأستاذ السكاكيني وأمثالنا، وهو الذي يقول: «أمنعها من الدروس وأبعدها من الدثور» عاد فقال لك: وما يدريك فلعلهم لم يقولوا ذلك وحاول جرح الرواية ولو كانت القضية قضية جملة أو جملتين أو مائة أو مائتين من هذا القبيل لكان الأمر سهلًا، ولكن هناك ما لا يُحصى ولا يُعد (لا يحصى ولا يعد) هو أيضًا من كلام العرب، وهو من باب التأكيد وإشباع المعنى؛ لأن «يعد» هو نفس «يحصى»، فماذا عسى صاحبنا يجرح من الروايات وماذا عساه يتحمل من الأجوبة على أقوال لم يختلف في روايتها اثنان.

ثم قال: «كان يجب — على رأيه — إذا قيل رأس الحكمة مخافة الله، أن يقال ودليل العقل تقوى الخالق وعنوان الفضل خشية الباري» إذا كنت استشهدت بأقوال العلماء عن مواطن الإيجاز ومواطن الإطناب وأوردت شواهد من الخطب والكتابات التي وقع فيها مترادف لنكتة مقصودة أو لمعنى قريب من معنى أو لتمكين صورة في ذهن أفتكون

نتيجة ذلك أنني أوجب أن لا يقال رأس الحكمة مخافة الله حتى يقال ودليل العقل تقوى الخالق؟ أومثلي أنا ينكر جوامع الكلم وينكر مزايا الإيجاز؟ وهل هذا هو مبلغك من الإنصاف أيها الأديب؟!

ثم قال: «أعيذ اللُّغَة العربية من مثل هذا» أي يعيذ العربية من مثل كلام الجاحظ ومن سبق ذكره ... ويظهر أنه أحس بكونه لا مخرج له من تبعة قوله أن هذا الأسلوب غير عربي، فقال: «ثم ما باله اهتم كثيرًا بقولي إن أسلوبه غير عربي ولم يهتم بقولي إنه غير طبيعي أو على الأقل لا يستمرئه ذوق هذا العصر» أي إنه قد يكون عربيًّا ولكنه غير طبيعي، فكأن العرب ينقصهم في دولة فصاحتهم هذه صفاءُ القرائحِ وتجويدُ المنطق، فجاءوا بما يخالف الطبيعة، وجاء هو يبيِّن لهم أنَّ أسلوبَهم هذا غير طبيعي، فليطبقوا أسلوبهم على الطبيعة، ثم نزل عن ذلك العموم إلى دائرة أضيق فقال: «لا يستمرئه ذوق هذا العصر» فجعل نفسه ممثلًا لذوق العصر، وظن أنه بقوله: «هذا مذهب جديد» انقطعت الحجة وارتفع النزاع، ونسي أن الطبيعة البشرية في هذا العصر وفي كلِّ عصر واحدة تميل إلى الإيجاز في محلِّ الإيجاز، وتهتف بالمترادف في محلِّ التأكيد، وأن الذي قرره من ذلك علماء الأدب هو المنطقي المعقول الملازم للبشرية الذي ليس فيه قديم وجديد؛ لأن العقل ليس فيه قديم وجديد، وأن ذوق هذا العصر أيضًا وذوق أدباء أوروبا هو الإيجاز في محلِّه والإطناب في محلِّه، وأن وضع الواحد موضع الآخر مخالف للذوق. وأما أنه لو أراد الإنسان ترجمة المترادف إلى لُغة أجنبية للزم تكرار اللفظ بعينه فليس بوارد لأن كلَّ

لُغـة لهـا روح. ولا يقـال إن هـذا الفرنسـاوي ليـس بفصيـح؛ لأننـا عندمـا ترجمنـاه إلى العـربي بنصـه لم يكـن لـه طعـم، ولا أن هـذا العـربي غـير بليـغ، أفـلا تـرى أننـا عندمـا جعلنـاه فرنسـويًّا ظهـرت فيـه كلـمات مكـررة فمـن البديهيـات أن معيـار فصاحـة اللُّغَـةِ لا يكـون إلا في نفـس اللُّغـة. خُـذْ «فِكْتُـور هُوغُـو» وترجمـه إلى العربيـة فـماذا تجـد فيـه مِـمَّا يسـتحق كل هـذا الإعجـاب؟ مـع أنـه في لُغَتِـه هـو السـنام الأعـلى.

ويقـول: «إن الأمـير لم يغضـب لأن انتقـادي جـاء مباينًـا لوجـه الصـواب، وإنمـا غضـب لأننـي استشـهدت بأقوالـه» ثـم مـا مـضى سـطران حتـى عـاد فقـال: «نعـم لم يغضـب لأننـي انتقـدت وإنمـا غضـب لأننـي استشـهدت بأقوالـه» باللـه عليـك أيهـا القـارئ اللبيـب هـل تجـد في هـذه الجملـة الثانيـة معنـى جديـدًا لم يكـن في الأولى؟ فلـماذا أجـاز هـذا التكـرار أسـتاذ المذهـب الجديـد؟ أم يحلونـه عامًـا ويحرمونـه عامًـا؟! ثـم أطـال في تبيـين سـبب غضبـي وانحصـاره في انتقـاده لكلامـي يريـد أننـي لـولا ذلـك لكنـت استحسـنت جرأتـه عـلى أربـابِ اللُّغَـةِ ومـا علمـت مـن أيـن جـاءه نبـأ هـذا السـبب؛ إذْ ليـس في جـوابي مـا يـدل عـلى شيء مِـمَّا قـال، فكيـف اطلـع عـلى سريـرتي مـن القـدس إلى لـوزان، أبمناجـاة الأرواح أم بقـراءة الأفـكار، فعلـم أننـي كنـت موافقـه عـلى مـا قالـه لـولا كونـه تعـرض لي؟! بـل واللـه مـا غضبـت لنفـسي مثلـما غضبـت لأسـاطين اللُّغَـةِ وسـلاطين البلاغـة أن يقـوم اليـوم واحـد مثـلي أو أعجـز منـي فيقـول إن بلاغتهـم صـارت قديمـة باليـة وإنـه هـو سـيغنينا عنهـم بأسـلوب جديـد.

ومـن جملـة تكراراتـه التـي يعيبهـا عـلى النـاس ويقـع فيهـا قولـه في رده

الأخير: «ليس الإطناب إكثارًا، كما أنه ليس الإيجاز اختصارًا، قد توجز مع الإكثار، وقد تطنب مع الاختصار، فلا دخل للإطناب والإيجاز في إكثارك، وإنما الإكثار أن تضاعف معانيك، وتتبسط فيها ما شئت وشاء المقام»، ما بالك تزري على الناس تكرار الجمل للتأكيد ثم تقول: «ليس الإطناب إكثارًا كما أنه ليس الإيجاز اختصارًا؟» فعلى مذهبك قد انتهى هذا المعنى هنا، وصار من الحشو أن تقول فيما بعده: «قد توجز مع الإكثار وقد تطنب مع الاختصار»، فأي معنى جديد أتيتنا به في هذه الجملة التالية؟! وأي تبسط تبسطته في المعاني هنا؟! فأنت الذي بعد هذا ينتقد قولي: «المواضيع الحديثة والمعاني المستجدة» ويهزأ بعبارتي: «إن اللُّغَة الفرنساوية التي هي أفصح لُغاتِ أوروبا لها أسلوبٌ خاص ونمطٌ قائم بها»، ثم يعيب قولي: «كلُّ دورٍ من أدوار اللُّغَةِ العربية؛ سواء دور الجاهليين أو المخضرمين أو العهد الأموي أو العصر العباسي أو القرون التي بعده»، ثم يقول: «فالدور والعهد والعصر والقرون مترادفات، أجمل بقوله: كل دور من أدوار اللُّغَةِ، ثم فصل بقوله: سواء دور كذا أو عهد كذا أو عصر كذا، ثم عاد فأجمل بقوله: والقرون التي بعده، لا لأنه يريد الإجمال ولكن ليأتي بمترادفاته.»

ثم أجملت بقولي: «كل دور من أدوار اللُّغَة العربية» ثم لزم أن أفصل هذه الأدوار وأُعَيِّنها ليُعرف أي الأدوار التي كانت لها ديباجة تعرف بها. فقلت: «دور الجاهليين أو المخضرمين أو العهد الأموي أو العصر العباسي» فما فهمت وجه الاعترض هنا أترى عنده دور الجاهليين

هـو نفـس دور المخضرمـين، والعهـد الأُمَـوي هـو العـصر العبـاسي، فـلا يكـون ازداد المعنـى بهـذا التفصيـل أم مـاذا؟! كـما أني لم أفهـم كيـف أني بقـولي: «والقـرون التـي بعـده» لم أقصـد إلا الإتيـان بمترادفـاتي، أراه ينكـر فائـدة هـذه الجملـة ويـرى القـرون التـي بعـد العـصر العبـاسي وهـي نحـو سـتمائة سـنة هـي نفـس العـصر العبـاسي؛ فلذلـك يـرى أن ليـس مـن معنـى جديـد في ذكرهـا، أعـترف أننـي عجـزت هنـا عـن حـل معمـى انتقـاده، وأنـا أسـتنجد القـراء الكـرام أن يفيـدوني محـل التكـرار بـدون فائـدة في عبـاراتي هـذه. كـما أني أسـتنهض هممهـم أن يشرحـوا لي مـا زاد الأسـتاذ مـن معـاني في قولـه: «قـد توجـز مـع الإكثـار وقـد تطنـب مـع الاختصـار» بعـد قولـه: «ليـس الإطنـاب إكثـارًا كـما أنـه ليـس الإيجـاز اختصـارًا.»

ثـم زعـم أني قلـت: «فللأندلـس منـزع ولليمـن مذهـب ولمِـصر لهجـة وللشـام أسـلوب وللعـراق نمـط.»

والحـال أن عبـارتي هـي هـذه: «فللأندلـس منـزعٌ يَعرفـه مَـن أَلِـفَ مُطالَعَـةِ كُتُـبِ ذَلـك القُطْـرِ، ولليمـن مَذْهَـبٌ لا يُشـبه مذهـبَ المنشـئين في العربيـة مِـن فـارس في كثـيرٍ مـن الأمـورِ، ولِمِـصر لهجـةٌ خاصـةٌ يَعـرف الناقـدُ البصـيرُ منهـا نسـبةَ مُؤلِّـفِ الكِتـابِ ولـو لم يكـن اسـمه عليـه كـما تـرى ذلـك مـن ألـف ليلـة وليلـة، وللشـام أسـلوب يختلـف شـيئًا عـن أسـلوبِ أهـل مِـصر في الكِتابـة وكثـيرًا في الحديـث، كـما أن للعـراق نمطًـا غـير نمـطِ أهـلِ الشـام ومِـصر وَهَلُـمَّ جَـرًّا.»

أنـا أعـرض هـذه الجمـل عـلى كلِّ مَـن شـمَّ رائحـةَ العربيـةِ وأرجـو منـه أن

يخبرني أين التكرار المُمِلُّ والحشو الزائد هنا؟ هل يا تُرى إذا قلنا: «فللأقطار العربية منازع مختلفة في الكتابة» نكون وفينا كلَّ المعنى الذي يستفاد من هذا التفصيل ولا يكون ذلك إيجازًا مُخلًّا بما نريد بيانه؟

فإن كان مثل هذا حشوًا، فماذا يكون قوله هو: «وانتقل من حالة الخشونة والبربرية والجهل إلى حالة الظرف والأنس والمعرفة» أم تكون البربرية بلا جهل، ويكون الأنس بدون معرفة؟ أو هناك فروق ودقائق لا توجد في المترادفات التي وقعت في كلامنا، وما هو المعنى الجديد المتبسط في قوله: «على غير حاجة إليها ولا فائدة منها»؛ إذ ما الفائدة مِمَّا لا حاجة إليه؟ لقد أعجبته جدًّا كلمته هذه حتى كررها مرارًا في رده الأخير.

قال في العمود الأول من ردِّه: «يكيلونها كيلًا على غير حاجة إليها ولا فائدة منها»، ثم بعد أسطر معدودات من موضعها الأول قال: «ما مِن كلمةٍ إلا ومرادفاتها معها على غير حاجةٍ إليها ولا فائدة منها» ثم بعد أسطر من هذا المكان عاد فكررها قائلًا: «دليلًا جديدًا على أن الأمير من أصحاب المذهب القديم وأنه لا يزال مولعًا بالمترادفات على غير حاجة إليها ولا فائدة منها.» ثم جاء في العمود الثاني من مقالته فقال: «أعرف كثيرين من أدباء عصر الأمير وخريجي مدرسته وأستاذه ينحون نحوه في الإكثار من المترادفات يكيلونها جزافًا من غير حاجة إليها ولا فائدة منها.» ثم قال في العمود الثالث من مقالته: «انتقدت على الأمير إكثاره من المترادفات على غير حاجة إليها ولا

فائدة منها.» ثم قال بعد ذلك بقليل في نفس العمود: «انتقدت على الأمير إكثاره من المترادفات على غير حاجة إليها ولا فائدة منها فقال منشوري للعامة.» ثم قال بعد ذلك بنحو عشرة أسطر: «لا أن تضاعف ألفاظك على غير حاجة إليها ولا فائدة منها.» ثم قال بعد هذه الجملة بسطرين لا غير أي حين لم يحن له أن يشتاق إلى هذه الجملة: «انتقدت على الأمير إكثاره من المترادفات على غير حاجة إليها ولا فائدة منها فأحالني على صبح الأعشى.»

وبالاختصار فإنه أورد جملةً هي في الحقيقة: «لا حاجة إليها ولا فائدة منها» ثماني مرات في مقالة هي ثلاثة أعمدة، ولم يكثر عليه أن يرميني بالمترادف لغير فائدة وأن ينكر أسلوب العرب الأولين أهل اللِّسانِ، وأنْ يُنَصِّبَ نفسَه إِمَامًا يجب على الناس أن يُصَلُّوا خلفه، وبهذا القدر كفاية.

***

بعد تحرير هذه المقالة اطلعت على صحيفة الأدب من «السياسة» الغرَّاء المؤرَّخة في ٢١ نوفمبر فوجدت فيها مقالتين ممتعتين إحداهما بإمضاء «صدقي» والثانية بإمضاء «علي أدهم»، كل منهما مِمَّن يتحدى الأسلوب الغربي ويُحاكي مذهبَ كُتَّابِ الإفرنجة على شرط المحافظة على ديباجةِ العربيةِ وإفراغ المعاني الجديدة والمنازع الأوروبية في القالب المتين مِمَّا هو نكتة المحيا والغاية القصوى.

فقد تصفحت هاتين المقالتين فوجدت في أولاهما ما يأتي في ذكر رسالة

الغفـران:

تطير نفسـه شعاعًا إلى نعيمها وملاذها.

يعـدد ألوان النعيم ويصف أفانـين الملاذ بأقصى قصارى مبالغاته.

ليسـت رسـمًا مسطورًا أو قصورًا جامدة لا حراك بها.

لا مندوحـة إذن عـن أن المخيلة تحدس وتفترض.

فعـلى مذهـب الأسـتاذ السـكاكيني «شـيخ الطريقـة الجديـدة» لا وجـه لذكـر ملاذهـا بعـد نعيمهـا، ولا محـل لأفانـين المـلاذ بعـد ألـوان النعيـم. وأي معنـى لقولـه: «لا حـراك بهـا» بعـد قولـه: «إنهـا جامـدة»، ومـا هـي الـضرورة لكلمـة «تفـترض» بعـد كلمـة «تحـدس»، ولا فائـدة للتأكيـد ولا حاجـة للتأثـير عـلى السـامع، ومَـن قـارن بـين الاعتراضـات التـي اعترضهـا عَـلَيَّ وبـين هـذه الجمـل عَلِـمَ أن اعتراضاتـه واقعـة عـلى هـذه أيضًـا وعـلى العربيـة مـن أصلهـا.

وجـاء في المقالـة الثانيـة مـا يـأتي في وصـف الكاتـب الـروسي الـروائي إيفـان ترجنيـف.

«زيـادة اتسـاع الإحسـاس وترامـي حـدود المعرفـة والإحاطـة»، «ظاهـرة ذات شـأن كبـير وحادثـة بعيـدة التأثـير»، «وهـو مـن كبـار مفـسري النفسـية الروسـية ومترجمـي أسرار القلـب السـلافي.» سـيقول لـك السـكاكيني أن لا محـل لترامـي الحـدود بعـد الاتسـاع، ولا لـزوم لجملـة بعيـدة التأثـير بعـد ذات شـأن كبـير، وسـينكر عليـك ترجمـة أسرار القلـب بعـد تفسـير النفسـية.

ثم ورد:

مـن العبقريـات الـثرة الفياضـة»، «وربمـا كانـت حماسـته وتأججـه أكـثر مـن فيضـه وتدفقـه وعمـق نفسـه وبُعـد قرارهـا أكـثر مـن اتسـاعها وانفـراج مـا بـين أطرافهـا»، «ويـدرس إشـارة بذاتهـا ولمحـة بعينهـا ويعـي كلَّ ذلـك في حافظتـه ويرسـمه في لـوح ذاكرتـه.» سـامحك اللـه أيهـا الكاتـب الأديـب، كيـف تجـرؤ أن تقـول: ثـرة وفياضـة؟ أليسـتا مترادفتـين؟ وكيـف تجيـز وضـع عمـق النفـس بجانـب بُعـد القـرار، أوليسـا شـيئًا واحـدًا؟ ومـا معنـى لمحـة بعينهـا مـع إشـارة بذاتهـا؟ وهـل تحتـاج أن تقـول: «يعـي كلَّ ذلـك في حافظتـه» ثـم تردفهـا بقولـك: «ويرسـمه في لـوح ذاكرتـه»؟ ولعلـك تقـول إن هـذا مـن بـاب تنويـع الصـور للمعنـى الواحـد وارتيـاد التأثـير في النفـس ولكـن هنـا مـن لا يُبيـح لـك هـذا الأسـلوب ومـن يُعيـذ العربيـة منـه ...

ثم ورد:

نفـس سرية غير مسرفة ولا مبذرة.

الدائمـة الحركـة بـلا ونيـة ولا انقطـاع السـائرة أبـدًا إلى الأمـام مبتلعـة كل شيء غـير مبقيـة عـلى شيء.

وكانـت هـذه النغمـة متأصلـة في نفسـه، عريقـة في طبعـه، فقـد كان لتأملـه قـوة الطبيعـة وهولهـا يغمـر مشـاعره الجميلـة بسـيل مـن الحـزن والأسى ويثـير في نفسـه العطـف والحـب للبـشر شركائـه في الخطـب وإخوانـه في البـلاء.

أبعث على الكآبة وأكثر إثارة للشـجن.

لا سـيما غابة الصنوبر؛ فهي متشـابهة متماثلة الشكول.

والمحيط يهدد ويتوعد.

التـي ترمقه بغير ما عطف ولا حنان.

في ذلـك الموقـف تتراجع الآمال وتنكص على الأعقاب.

هناك يشـعر الإنسـان بعزلته وقلة حوله ونفاذ حيلته.

وفي الدنيـا التـي خلفهـا يستشـعر الراحـة والطمأنينـة وفيهـا يسـتطيع أن يثـق بقدرتـه ويصـدق بقوتـه.

بادي الكآبة والحزن.

أخذتْ الظـلالُ تنمو وتتكاثف وتُخيِّمُ.

كيـف أنتفع من عَطايَاك ومِنَحك.

وهَـل أنَا هَذا الشَّيءُ الخَامدُ الهامدُ.

الصَّمْتُ المَلي بالحُزْنِ والشَّـجْوِ.

تَهْفُو بِي أَشـباحٌ خَادِعةٌ غَرَّارةٌ.

سُرعان ما تنفجر لها ينابيع السـعادة وتجيش شـآبيبها.

يَتَزَايَدُ حُزْنُكَ ويَطْغَى شَجَنُكَ.

أَرَدْتُ رَاحَةً وَنَشَدْتُ هُدُوءًا.

لا أظن القارئ البصير يحتاج إلى تبين ما في هذه الجمل البديعة من المترادفات التي تزيد المعنى توضيحًا وصبغة القول تلوينًا، والتي لولاها لا يتم التأثير المطلوب في النفس، ولكن قاعدةَ الأستاذِ السكاكيني تحظر كل هذا وتعده (غير عربي)، وإذا حاجَجْته بكلامِ السَّلَفِ الذين ورد في كلامهم مثله قال لك: «غير طبيعي، أو لا يستمرئه ذوقُ هذا العصر» وإذا قلت له إن هذا أسلوب الروائي الروسي إيفان ترجنيف ولا شك أنه أسلوب عصري أوروبي لا تقدر أن تقول فيه شيئًا، أجابك: إلا أن هذا ليس مذهبي، وجف القلم. ومن هنا تعلم أن صاحبنا ليس في القديم ولا الجديد.

تَطَوُّرُ اللُّغَةِ فِي أَلفَاظِهَا وأَسَالِيبِهَا (٣)

انتقدتُ إكثارَ الأميرِ من المترادفات بدون مسوغ، فردَّ عليَّ ردًّا طويلًا استغرق أربعة عشر عمودًا من السياسة الغرَّاء دافع به عن مذهبه وحاول أن يثبت أنه أسلوب عربي، فرددت عليه بثلاثة أعمدة قلت فيها إن التكرار لا يكون إلا لنكتة كزيادة التوكيد، نحو: «كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ» ونحو: «إن بني هاشم بن المغيرة استأذنوني أن ينكحوا ابنتهم عليًّا فلا آذن ثم لا آذن ثم لا آذن.» وإن زيادة التوكيد هذه لا يقتضيها إلا المعاني التي يُراد بيان شدتها وعظم تأثر النفس بها، وإن المناشير إلى العامة يجب أن تكون بلُغَةٍ مفهومةٍ يتجنب فيها مثل قوله: «الشقص الأوفر»، وأن لا دخل للإطناب والإيجاز في إكثاره، وإنما الإكثار أن يضاعف معانيه ويتبسط فيها ما شاء وشاء المقام لا أن يضاعف ألفاظه على غير حاجة إليها ولا فائدة منها.

وقد كنت أظن أنه لم يبق مجال للأخذ والرد، وإذا بالأمير يعود إلى الردِّ عليَّ بكلامٍ استغرق سبعةَ أعمدةٍ من السياسة الغرَّاء فقط! وإذا بنا لا نزال حيث كنا، كلامي في وادٍ وكلامه في وادٍ آخر. ومن العجب أن يلزمني كلامًا لم أقله؛ إِذْ قال: «تحرير القضية أنك أنت تنكر المترادف مطلقًا، وأنا أقول بل له مواضع»، وتحرير القضية أني قلت إن للإطناب — ومنه تكرار الكلام بلفظه أو بمرادفه — مواطن وشرائط نصَّ عليها البيانيون، وأن الأمير يكثر من المترادفات، اقتضاها المقام أم لم يقتضها، فأنت ترى أن الجدال أصبح عقيمًا.

ولكنـي قلـتُ لِأجـرِّدَ نفـسي عـن أن أكـون المعنـيَّ بـردِّ الأمـير، ولأجعـل منهـا شـخصًا ثالثًـا، ولأنظـر في ردِّه الأخـير باعتبـار أنـه كلام الأمـير لا باعتبـار أنـه ردٌّ عـليَّ، وللأمـير في أن يسـعني بحلمـه فيـما أُعلِّقُـه عـلى كلامِـه الـرأي الموفـق إن شـاء اللـه.

إن الأمـير — أعـزَّه اللـهُ — وإن تكلـف الدفـاع عـن مذهبـه في الكتابـة جهـد مـا يسـتطيعه كاتـب كبـير مثلـه، لم يسـعه إلا أن ينكـب في ردِّه هـذا الأخـير عـن مذهبـه الـذي أَلِفَـهُ وأَلِفْنَـاهُ منـه؛ إذ لم يـأتِ فيـه بالمترادفـاتِ يكيلهـا كيـلًا اقتضاهـا الحـال أم لم يقتضهـا، كـما فعـل في منشـوره إلى الأمـة العربيـة جمعـاء في آفـاق الأرض ومناكبهـا ومشـارق الشـمس ومغاربهـا ... إلـخ، وكـما فعـل في ردِّه الأول. ولا شـك أن تنكيبـه عـن مذهبـه — الـذي لم يدافـع عنـه هـذا الدفـاع الشـديد عـلى غـير طائـل إلا ليقـال إنـه لم يعجـز عـن الـرد — اعـتراف منـه أنـه مذهـب بـالٍ وأنـه ليـس طبيعيًّـا ولا عربيًّـا ولا يسـتمرئه ذوق هـذا العـصر. ولا شـك أن أصحـاب المذهـب الجديـد يرحبـون بـل يعتـزون بـه، وأنـا الضمـين لهـم ألا تحدثـه نفسـه بالعـودة إليـه، فلـن يقـول بعـد اليـوم كـما قـال قبلـه بـدون مسـوغ: «إن الصارخـة القوميـة والنعـرة الجنسـية نشـأت مـع الأمـم وبـدأت مـع الأقـوام مُـذ الكيـان ومنـذ الاجتـماع البـشري وتسـاكن الإنسـان مـع الإنسـان»، وكـما قـال: «الشـقص الأوفـر والحـظ الأكمـل»، وكـما قـال: «إذا أراد الكاتـب أن يجـول في المواضيـع الحديثـة والمعـاني المسـتجدة»، وكـما قـال: «للُّغـة الإفرنسـية أسـلوبٌ خـاص ونمـطٌ قائـم بهـا» إلى غـير ذلـك ... ولا أخـال الأمـير إلا معترفًـا لي في قلبـه أني قـد كسـبته — ولا أقـول غلبتـه — وحسـبي ذلـك فخـرًا.

إن الأمـير — أعـزَّهُ اللـهُ — اعتمـد في ردِّه الأول عـلى قواعـد اقتبسـها مـن صبـح الأعـشى، وعـلى شـواهد اقتبسـها مـن أقـوال بعـض القدمـاء عـلى ذِمـة راويهـا، فلـم تُغْنِـهِ في الدفـاع عـن مذهبـه شـيئًا، وأمَّـا في ردِّه الثـاني فقـد جعـل يستشـهد بكُتَّـابِ العـصر، ولا شـك أن هـذا دليـلٌ آخـر عـلى أنـه تجـدد.

إن الأمـير — أعـزَّهُ اللـهُ — كان في ردِّه الأول عـلى عِلْمِـهِ وفضلِـهِ مُتأبهًـا شـديدًا لا يقيـم لأحـدٍ وزنًـا، وقـد غضـب لأن يقـوم واحـدٌ مثـلي فينتقـده، وأمَّـا اليـوم فقـد ضـاق ذرعًـا وجعـل يتظلـم ويسـتنجد القـراء ويسـتنهض هِمَمَهُـم وينشـدهم اللـه ويرجوهـم، وإليـك الدليـل عـلى ذلـك مـن كلامِـه، قـال: «واللـه قـد أعيتنـي الحيلـة، مـاذا أصنـع لأقنـع مناظـري بالعـدول عـن هـذا المـراء» وقـال: «وأنـا مـع عجـزي واعـترافي بأننـي لا أصلـح أن أكـون مـن تلاميذهـم» أي مـن تلاميـذ الفصحـاء والبلغـاء القدمـاء الذيـن استشـهد بقولهـم، وقـال: «هـل هـذا مبلغـك مـن الإنصـاف أيهـا الأديـب»، وقـال: «نشـدت اللـه كل قـارئ منصـف»، وقـال: «أنـا أعـرض هـذه الجمـل عـلى كلِّ مَـن شـمَّ رائحـةَ العربيـةِ وأرجـو منـه أن يخـبرني»، وقـال: «أسـتنجد القـرَّاءَ الكـرام، أسـتنهض هممهـم، باللـه عليـك أيهـا القـارئ الكريـم» ... إلى غـير ذلـك؛ بـل قـد تواضـع كثـيرًا فذكـر اسـم مناظـره ووصفـه بالأديـب والأسـتاذ، وإن لم يخـلُ ردُّه مـن غمـزات؛ كقولـه: «صاحبنـا أصبـح صاحـب مذهـب، ولا غـرو؛ فلـكل زمـان أبطـال ولـكل دولـة رجـال.»

لسـت يـا سـيدي الأمـير صاحـب هـذا المذهـب الجديـد في الكتابـة ولكننـي مـن دعاتـه، فـإذا كان لـك شيءٌ فدونـك المذهـب ففنـده ولا شـأن لـك مـع

أصحابه ودعاته، إلا إذا كنت أرستقراطي المذهب في الكتابة كما أنك أرستقراطي المذهب في الاجتماع، فلا يجوز في عرفك أن يكون الكتاب من غير الأمراء؛ وكقوله: «فاربع على ظلعك، ولا تركب في غير سرجك»، وكأنه أحس بشدَّةِ هذه الغمزة — وإنه لإحساس عالٍ أشكره عليه كثيرًا — فاستدرك وقال: «فلسنا وإياك من تلك الطبقة»؛ وكقوله: «والله ما غضبت لنفسي مثلما غضبت لأساطين اللُّغَةِ وسلاطين البلاغة أن يقوم اليوم واحد مثلي أو أعجز مني فيقول إن بلاغتهم صارت قديمة بالية»، ولا شك أنه يعنيني بقوله: «أعجز مني»، إني لأعجز كاتب أيها الأمير، أما وقد تشرفت أن أكون مناظرك فإذا نسبت إليَّ العجزَ في معرض الدفاع عن نفسك لا عن أساطين اللُّغَةِ وسلاطين البلاغة فتلك كلمةٌ أنت أدرى بما يُفهم منها في هذا المقام ... ثم ألا يجوز أن يقال إنك لم تعظم من شأن القدماء فقلت إنهم أساطين اللُّغَةِ وسلاطين البلاغة إلا تعظيمًا لشأنك؛ لأنك تكتب كما يكتبون، فكأنك قلت عن نفسك إنك من أساطين اللُّغَةِ وسلاطين البلاغة، وليس قولك في آخر العبارة: «أن يقوم واحدٌ مثلي أو أعجزُ مني فينتقدهم» إلا من قبيل التمدح في معرض التواضع؛ لأنك لم تنتقدهم، ولقد ذكرني تمدحك هذا في معرض التواضع بذلك الرجل الذي سُئِلَ: مَن كان في مجلس كذا؟ فقال: كان الأميرُ فلان والوزير فلان والكبير فلان والعبد الفقير، يعني نفسه على سبيل التواضع؛ وكقوله: «أدباء آخر زمان» كأنه يعني أنه خاتمة الأدباء فلا يجوز أن يتجرأ أحدٌ بعده أن يمسك قلمًا. على أنه قد يفهم من ذكر اسمي بعد أن قال: «أنا استشهدت في ردِّي السابق بكلامِ الرسولِ ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية وأبي عبيدة

... إلى أربعةَ عشرَ اسمًا» وقد جاء بهم قبسة عجلان أنه لم يذكره لا ليُغري الكُتَّاب والقرَّاء وليعرفوا على من يصبون نقمتهم، فكأنه قال لهم هذا هو الذي يتنقص فضل السلف الصالح فارجموه.

يقول الأمير — أعزَّهُ اللهُ: «إذا كان لهؤلاء مذهب — أي للجاحظ وعلي بن أبي طالب، فاستعمل «هؤلاء» للمثنى — فلست أنت الذي يأتي بنقيضه.» إذن يجوز أن ينقض ولكن على يد أميرٍ مثله لا على يد صعلوك مثلي. ثم ما باله يصرف النقد عنه إلى الجاحظ وعلي بن أبي طالب وغيرهما؟ أنا لم أتعرض لأحدٍ من هؤلاء، أم لعله يريد أن يحتمي بهم كما احتمى بأديبين من أدباء العصر.

مع إقلاع الأمير عن مذهبه كما ترى من مقابلة ردِّه الأخير بمنشوره إلى العامة وردِّه السابق، ومع تواضعه في انتحال المذهب الجديد لم يسعه في ردِّه عليَّ إلا أن يظهر بمظهر المحافظين، فقال: «إن الطبيعة البشرية في هذا العصر وفي كلِّ عصرٍ واحدةٍ، وإن الذي قرَّره علماءُ الأدبِ هو المنطقي المعقول الملازم للبشرية، الذي ليس فيه قديم وجديد؛ لأن العقل ليس فيه قديم وجديد. إذا كان هذا مذهبك أيها الأمير — ولا أخال أحدًا يقرك عليه — فقد انقطع الجدال وكفى الله المؤمنين القتال، وصار يحق لي الآن أن أقول: «لك مذهبك ولي مذهبي»، وإنهما لمختلفان جدًّا، ومن المستحيل أن أقنعك، ومن المستحيل أن تقنعني، وما أحراني أن أقف هنا وأترك بقية تعليقاتي على ردِّك.

العَـرَبِي شَرط لازم في القديم والجديد

قـرأتُ في جريـدةِ «السياسـة» فصـلًا عنوانـه: «القديـم والجديـد» لأديـب لم أعـرف اسـمه؛ لأنـه لم يضـع إمضـاءَه تحـت مـا كتبـه، ولا أعلـم هـل يقصـد مـن إبقائـه رسـالته غفـلًا هكـذا أنـه يتكلـم بلسـان «السياسـة»، وكل مـا يـرد فيهـا بـدون إمضـاء يُعتـبر منسـوبًا إليهـا أم هنـاك وجـه آخـر؟

أنـا لم أقـل في وقـت مـن الأوقـات إنـه لا يوجـد أسـلوب جديـد، وإنـه يحـرم عـلى النـاس التجـدد، وإنـه إن جـاز في شيء فـلا يجـوز في البيـان، وإنمـا قلـت إن لِـكلِّ لُغَـةٍ أسـلوبًا أصليًّـا أو نصابًـا معروفًـا لا بـد مـن المحافظـة عليـه، وليـس هـذا خاصًّـا بالعـرب وحدهـم. وإن اللُّغَـةَ العربيـةِ يمكنهـا أن تَسَـعَ مِـن المعـاني الجديـدة ومـن المواضيـع العصريـة كُلَّ مـا يعـن للكاتـب ويتوخـاه المؤلـفُ مـع مراعـاة ديباجتهـا الأصليـة التـي إن خـرج البيـان عنهـا كان عنـد العـرب مسـتهجنًا.

وقلـت في موضـوع التجـدد: إن العقـل البـشري هـو بنفسـه لا يتغـير؛ بـل المعلومـات هـي التـي تتغـير، فأمَّـا الميـزان الـذي هـو الراجـع إليـه الحكـم بـأن هـذا صحيـح وهـذا فاسـد، وأن هـذا أصـحُّ مـن هـذا، فـإذا كان قابـلًا للتغيـير فقـد بطلـت جميـع الأحـكام. وإن رقـم ٢ مـع رقـم ٢ مجموعهـما أربعـة، كان ذلـك منـذ عـشرة آلاف سـنة، وهـو الآن كذلـك وسـيبقى إلى مـا شـاء اللـه، ولـو مضـت مائـةُ ألـف سـنةٍ لا تصـير الاثنـان والاثنـان خمسـة.

وإن تناسـب الأعضـاء أو الأقسـام هـو الجـمال أو الطـلاوة استحسـنهما النـاس مـن زمـان نـوح كـما استحسـنهما النـاس اليـوم، ولا يمكـن أن يصـير الحلـو

مـرًّا والمـرُّ حلـوًا بسـبب تغيـير الأيـام وتجـدد الأزمـان؛ فالخَلـق اسـتحلوا العسـلَ مـن زمـانِ سـيدنا آدم، واسـتمروا الصـاب، ولا يزالـون يسـتحلون هـذا ويسـتمرون هـذا إلى هـذه السـاعة، ولا يجـوز أن يغمـزوا مـن أجـل ذلـك بالجمـود والنفـور مـن كلِّ شيءٍ جديـد؛ وذلـك أن هنـاك ذوقًـا خُلِـقَ في فِطـرةِ الإنسـان لا يـزول إلا بـزوال هـذه الفطـرة أو اسـتئناف فطـرة ثانيـة مباينـة لـلأولى. وليـس المـراد مـن ذلـك حظـر التجـدد في الطـرق والأسـاليب والزيـادة والنقصـان، ومراعـاة المـكان والزَّمـان والتلـون بصبغـة الألـوان المختلفـة، كلَّا، إن التجـدد في هـذه العـوارض هـو مِـمَّا لم يخـلُ منـه زمـان ولا قـال بمنعـه عاقـل، كـما أن هـذا لا يمنـع القـول بوجـود مبـادئ ثابتـة راهنـة لا تقبـل التغيـير ولا التبديـل.

إذن لسـت مِمَّـن يعترضـون عـلى أولئـك الذيـن يريـدون «أن يأخـذوا بحظهـم مـن الحيـاة ويريـدون أن يفهمـوا النـاس ويفهمهـم النـاس ويعيشـون مـع الجيـل الـذي هـم فيـه دون أن يقطعـوا الصِّلـة بينهـم وبـين الأجيـال الماضيـة»، كلَّا لأني مـن هـؤلاء القـوم أنفسـهم لي مـاضٍ يشـهد لي بذلـك، و٣٨ سـنةً في عَـالم المطبوعـات؛ مـن أهـرام، ومؤيـد، ومقتطـف، ومقتبـس، وجرائـد ومجـلات عديـدة عِشـت فيهـا مـع الجيـلِ الـذي أنـا فيـه، واجتهـدت أنْ أفهـم النـاسَ وأنْ يفهمنـي النـاسُ، وجُلْـتُ في أكـثر المواضيـع العصريـة، وطالمـا ألبسـت يـدي عنـد الكتابـة قفـازًا. ولكننـي حرصـت عـلى أن يبقـى أسـلوبي عربيًّا، وأن أقتـدي بنغمـةِ السَّـلفِ في دولـةِ فصاحتِهِـم، وأن لا أقطـع علاقتـي مـع الأجيـال الماضيـة كـما يـوصي الأديـبُ الـذي يكتـب في «السياسـة»، ولـو أردت أن أعيـد نـشر مـا سـبق لي في معنـى

حضارة المعاني في بداوة الألفاظ لظهرت لكل قارئ صحة دعواي هذه.

ولست بمن يُنكر أن لكلَّ عصرٍ من الأعصر أسلوبًا يمتاز عن غيره متلونًا بلون ذلك العصر، ولا بمَن يجحد أنه لو تُلي الكلامُ المترجم في زمانِ بني العباس على أعرابي في الفلاة أو على من يَألف هاتيك الألفاظ والاصطلاحات الجديدة لَمَا فَقِهَ مِنه شيئًا. إلا أنني أقول إن ذلك النسق لم يفارق نصاب اللُّغة، وأن للنزوع إلى الجديد حدًّا ينبغي أن يقف عنده، وهو الحدُّ الذي لا يخرج به عن روح العربية ولا عن طريقة القوم أفصح وأبلغ ما كانوا.

وأما كون كل قديم في الأصل جديدًا، وكل جديد سيعود قديمًا، فقد سبق إلى هذا الشاعر القائل:

إن هذا القديم كان جديدًا

وسيبقى هذا الجديد قديمَا

ليس في ذلك مرية.

ولما كان اللهُ قد مَنَّ عليَّ بمعرفة بعض اللُّغات الأوروبية ومطالعة آدابها والبحث في كثير مِمَّا يبحث فيه الأدباءُ الذين منهم صاحبُ مقالة القديم والجديد في «السياسة» كان لي الحق بأن أقول: ليست لُغة من هذه اللُّغات فوضى يركب الكاتبُ فيها رأسه كما يشاء، ويغير ويبدل في آدابها وأساليب التعبير فيها ما يشاء بحُجة التجديد والمعاصرة؛ بل ثَمَّة قواعد وضوابط لا يمكن الكاتب عندهم أن يتعداها،

وإن تعداها قيل لذلك «بربرية»، وإن شئنا أوردنا الشواهد. وأختم أسطري هذه بالاعتراض على جملة جاءت في مقالة كاتب السياسة، وهي: «إن شكيب أرسلان يرى الإطناب خصلة من خصال اللُّغَةِ العربيةِ قد عمد إليها أكبر الكتاب وأرفعهم قدرًا منذ كان النثر العربي إلى الآن، فمن الحق أن نتبع طريقهم في ذلك. ويرى الآخر — أي الأديب السكاكيني — أن الإطناب خصلة من خصال اللُّغَة العربية ولكن له مقامه.»

فليسمح لي الأديب في القول إن هذا تحريف للكلم عن مواضعه، وإن هذا غير جائز؛ خصوصًا لمَن أراد أن يحرر هذا الخلاف ويقف فيه موقفَ مَنْ يضبط الواقعة؛ إذ إن شكيب أرسلان لم يقلْ أصلًا ولا في موضع من المواضع إن الإطناب خصلةٌ من خِصالِ اللُّغَة العربيةِ مُلازِمَةٌ لها ولا بد منها، لا؛ بل شكيب أرسلان كرر عِدَّة مرَّات مِن قبل ومِن بعد أن كلًّا من الإطناب والإيجاز والمساواة له مقام إنْ عُدل به إلى غيره أخلَّ ذلك بالفصاحة، فمن أين جاز لصاحب مقالةِ السياسةِ أن يعزو إليَّ ما لم أقله؟! ويجعل غيري هو القائل لِمَا قُلته وأكدته؟ إن كان ذلك صَدَرَ مِنه بدون تثبُّتٍ ولا إمعانٍ فليس بجائز الحُكم قَبل مطالعة نصِّ كلٍّ من الفريقين، وإن كان بعد المطالعة والتدقيق فتكون المسألة أعظم، على كلِّ حالٍ فلم أفهم سببَ هذا الافتئات عليَّ ولا أنا مِمَّن يفتأت بالسهولة عليهم.

نُتْفَةٌ مِن الشَّـواهِدِ على المُتَرَادِفِ

إن هـذا ليـس بالـشيء الـذي لا يحـصى حتـى يُجهـد الإنسـانُ نفسَـه في إحصائِـه؛ بـل قلَّـما أخـذتْ يَـدُكَ كتابًـا عربيًّـا إلا وجـدت هـذا المذهـب فيـه مسـتفيضًا يحـاول فيـه فصحـاء العـرب تمكـين المعنـى في نفـس السـامع، والتأثـير عـلى المخاطـب بإبـراز المُـرادِ في صـور متعـددةٍ، وليـس هـذا هـو مـن قبيـل: لا آذن ثـم لا آذن ثـم لا آذن؛ بـل هـو مـن قبيـل: لا آذن ولا أسـمح ولا أرخـص، إذا كان المقصـود شِـدَّة النهـي والمبالغـة في المنـع.

وإنمـا نأخـذ عـلى وجـهِ المصادفـةِ بعـضَ الشـواهِدِ مـن الأولـين والمحدثـين ليـزداد القـارئ بصـيرة.

قال الزمخشريُّ في مقدمة الكشـاف:

وما هي إلا صفات مُبتدئ مُبتدع، وسـمات مُنشـئ مُخترع.

أنشأ كتابًا سـاطعًا تبيانه قاطعًا برهانه.

أفحـم بـه مَـن طُولِـبَ بمعارضتـهِ مِـن العـربِ العربـاءِ، وأبكـم بـه مـن تحـدى بـه مـن مصاقـع الخطبـاء، فلـم يتصـد للإتيـان بمـا يوازيـه أو يدانيـه واحـد مـن فصحائهـم، ولم ينهـض لمقـدار أقـصر صـورة منـه ناهـض مـن بلغائهـم عـلى أنهـم كانـوا أكـثر مَـن حـصى البطحـاء، وأوفـر عـددًا مـن رمـال الدهنـاء، إن أتاهـم أحـدٌ بمفخـرةٍ أتـوه بمفاخـر، وإن رماهـم بمأثـرةٍ رمـوه بمآثـر.

المثبت بالعصمة، المؤيد بالحكمة، الشادخ الغرة، الواضح التحجيل، النبي الأمي المكتوب في التوراة والإنجيل.

اعلم أن مَتنَ كُلِّ عِلْمٍ، وعمود كل صناعة.

طبقات العلماء فيه متدانية متدانية، وأقدام الصُّنَّاعِ فيه متقاربة أو متساوية، إن سبق العَالِمُ العَالِمَ لم يسبقه إلا بخطًى يسيرة، أو تقدم الصَّانِعُ الصَّانِعَ لم يتقدمه إلا بمسافة قصيرة.

ما في العلوم والصناعات من محاسن النكت والفقر، ومن لطائف معان تدق فيها مباحث الفكر، ومن غوامض أسرار محجبة وراء أستار لا يكشفه عنها من الخاصة إلا أوحدهم وأخصهم.

ثم إن إملاء العلوم بما يغمر القرائح وإنهاضها بما يُبهر الألباب القوارح كثير المطالعات طويل المراجعات.

مسترسل الطبيعة منقادها مشتعل القريحة وقادها.

تمهل في ارتيادهما آونة وتعب في التنقير عنهما أزمنة.

يقظان النفس دراكًا لِلَّمْحَة، وإن لطفَ شأنها، منتبهًا على الرمزة، وإن خفي مكانها، لا كَزًّا جاسيًا ولا غليظًا جافيًا.

قد علم كيف يرتب الكلامَ ويؤلِّف، وكيف ينظم ويرصف.

كثير السؤال والجواب، طويل الذيول والأذناب.

فهز ما رأيت من عطفي، وحرك الساكن من نشاطي.

مع تزاحم ما هو فيه من المشادة بقطع الفيافي وطي المهامه، ووفق الله وسدد. انتهى.

هذا ما قبسناه من كلامِ الإمام جاد الله الزمخشريِّ في مُقدمة الكشَّاف التي لا تزيد على خمس أو ستٍّ صحائف، وهذا ما يقول عنه الأديبُ السكاكيني «غير عربي» أو «غير طبيعي»، ومتى أعيته الحيلة في إبطال عروبيته أو تهجين أسلوبه التجأ إلى كلمة «لا يستمرئه ذوقُ هذا العصر.»

إن كان جاد الله الزمخشري لا يعرف أسلوب العرب في الكتابة فمِن العبثِ أن نُنشد هذه الضالةِ عند آخر وإن كان مِمَّن أسميهم أنا وحدي بلغاء وفصحاء ولا يسلم لهم الأستاذُ السكاكيني بالفصاحة والبلاغة فيا ضيعة العرب والعربية؛ لأن الناس سلَّموا للزمخشريِّ بأنه من أقطاب العربية ومثلها العليا.

فانظر كيف لا يجوز لي أنا أن أقول في منشور للجمهور أكثر قرائه من العوام أو مِمَّن شدا شيئًا من العربية «مُنذ وجِدَ الكيانُ وتساكن الإنسانُ مع الإنسانِ» ويجوز للإمامِ الزمخشريِّ أن يقول للخواص الذين يقرءون تفسيرًا مثل الكشاف «مسترسل الطبيعة منقادها مشتعل القريحة وقادها.»

وانظر كيف يسمج قولي «الحظ الأكمل والشقص الأوفر»، ويُستحسن قول الحُجَّة القدوة الزمخشري: «قطع الفيافي وطي المهامه.» وتأمل

أي كبيرة ارتكبتُ في قولي: «لها أسلوبٌ خاص ونمطٌ قائم بها»، ومثل الزمخشري مَن يقول: «يرتب ويؤلف وينظم ويرصف» ولا يرى ذلك علماء البيان من الكبائر، وهَلُمَّ جرًّا.

ثم أثناء ما وقع نظري على الكشاف فأخذت منه هذه الجمل عثرت على تاريخ ابن الأثير فأخذت عن مقدمته الجمل الآتية: وليس ابن الأثير مِمَّن يُعد في طبقة الزمخشريِّ ولكنه من علماء العربية، وبكل الأحوال أعلى طبقة من السكاكيني ولو رأى نفسه غير ما يراه غيره.

فأتت متناسقة متتابعة آخذًا بعضها برقاب بعض.

لم أصلح ما فيها من غلطٍ وسهوٍ ولا أسقطت منها ما يحتاج إلى إسقاطٍ ومحوٍ.

والعزم على إتمامه فاتر والعجز ظاهر للاشتغال بما لا بد منه لعدم المعين والمظاهر ولهموم توالت ونوائب تتابعت.

طاعته فرض واجب واتباع أمره حُكمٌ لازبٌ.

مَن أحيا المكارمَ وكانت أمواتًا، وأعادها خلقًا جديدًا بعد أن كانت رفاتًا، من عمَّ رعيتَهُ عدلُه ونوالُه، وشملهم إحسانُه وأفضالُه.

أخبار الماضين وحوادث المتقدمين، فإذا طالعها فكأنه عاصرهم، وإذا علمها فكأنه حاضرهم.

ومنه ما يتجمل به الإنسان في المجالس والمحافل من ذكر شيء من

معارفهـا، ونقـل طريفـة مـن طرائفهـا.

يصيبـه مـا أصابهم وينوبه ما نابهم ... إلخ.

ويناسـب المقـام أن نـأتي بنبـذة ثانيـة مـن كلام الكتـاب العصريـين راجـين مـن حـضرة مناظرنـا أن لا يقـول إننـا احتمينـا بهـم لأنـه ليـس كل مـن استشـهد بـكلام أحـدٍ فقـد احتمـى بـه كـما لا يخفـى، ومـا أنـا بأرفـع مـن أن ألجـأ إلى أحـدٍ مـن ذَوي الفضـل، لكننـي لا أرى نفـسي محتاجًـا إلى عضـدِ أحـدٍ في مناظرتـه فأسـتعدي عليـه النـاس ليرجمـوه كـما زعـم، فأقـول: لاحـتْ لي مقالـةٌ في مقطـم ٦ ديسـمبر المـاضي للعلامـة الأسـتاذ أحمـد زكي باشـا — الـذي نظـن أنـه قـرأ كثـيرًا ونقـب كثـيرًا — فرأيـت فيهـا مـا يـأتي:

يراجعون أضابيرهم وطواميرهم.

الرجوع إلى المصـدر الحقيقي والينبوع الأصلي.

هذا الدرب كان عند تخطيطه وإنشـائه.

مِـمَّا يدعو إلى الاختباط والاختلاط.

وهو الإمام الحُجَّةُ الثقةُ ابن سـعيد الأندلسي.

فالمعنـى الحتم والمدلول الجزم.

نجتـزئ مـن كلام العامـة المشـار إليـه بهـذا القـدر عـن أن نتتبـع هـذا النمـط في سـائر مقالاتـه.

وهـاك مـا أخذنـاه مـن كلام الأسـتاذ طـه أفنـدي حسـين في بعـض مقالاتـه الأخـيرة في «السياسـة»، فمنهـا مـا جـاء في مقالـة في ١٦ ربيـع الآخـر:

أشرف وأنبل من أن تخدعه عن نفسـها.

يصيح بلعنِ المرأةِ واسـتنزال سخطه عليها.

تكـره أن تخضع لهذه المراقبة الدنيئة وهذا التجسـس المرذول.

وزوجة تستعطفه وتترضاه.

أمَّا صاحبه فيشـبعه لومًا وتأنيبًا.

وتسـألها عفوها ومغفرتها.

وإذا أختـه فرحة مبتهجة.

إنها لذيذة ممتعة.

ثم من كلامِ الأسـتاذ طه حسـين أيضًا في مقالة بتاريخ ١١ جمادى الأولى:

يضطربـان ويترددان في ملعب التمثيل فيسـتأثران بهواك ويخلبان لُبَّكَ:

وسـتحب هذا الأمر وترغب فيه.

لذتنـا بهذه الآية واغتباطنا بها.

إلى الحزنِ والكآبةِ.

في غـير هُدنـة ولا مُهلة وفي غير تَكلُّفٍ ولا تَصنُّعٍ.

مـن الابتهاج والسرور إلى الابتئاس والعبوس.

ويُتمِّمُـون الليـلَ في لَهْوٍ ولعبٍ (وهذا كما في آية كريمة).

سـمح طلق سهل القياد.

فيعترف بفقره وإفلاسه.

وهـي فرحـة مبتهجة وهو تعس حزين ... إلخ.

ولـه مـن مقالة عن وزارة المعارف في ٢٣ جمادى الأولى:

وكما يناقشون ويجادلون.

ولكن في أناة ومهلٍ وعن بصيرةٍ ورشـدٍ.

مُفيـد حقًّـا نافع حقًّـا لا يتغير ولا يزول بمجرد أن يتغير الوزير.

ومعنـى هذا واضح جلي ... إلخ.

ومـن كلامِ الأديـبِ العـصريِّ «صدقـي» الـذي كتـب عـلى رسـالة الغفـران مـا يـأتي بتاريـخ ٢١ ربيـع الثـاني مـن «السياسـة»:

وفيه منادح لصرفه على غير السـخرية والاستهزاء.

مِمَّا نتقارع فيه الحُجَج ونتسـاجل البينات.

أمثلة يتفاقم خطرها وتستفحل شدتها.

ويطير الطاووس الذي أكله واحتوته معدته.

استمتاع ملك أيديهم وطوع تصرفهم.

الخيالات التي تقلق ضمائرنا وتروع منهم أحلامنا.

ولم يستحدث أهل الجفوة والبداوة رقة المنعمين المترفين.

لا على مشيئة المؤلف وهواه.

أبقى على كل منهما شيمته موفورة بادية الميسم معروفة الشارة.

فعلى مذهبِ الأدبِ السكاكيني لا يكون محل لقول طه أفندي حسين: «وستحب هذا الأمر وترغب فيه»؛ بل كان عليه أن يقول: «ستحب هذا الأمر» ولا يتخطى هذه الجملة في هذا المعنى. وبعد أن ذكر الحزن فلا يجوز إردافه بالكآبة، وكذلك فأي ضرورة للتصنُّعِ بعد قوله «التكلف»، وما هو السائق لقوله «السرور» بعد قوله «الابتهاج»؟ وما هي زيادة المعنى في «سمح طلق سهل القياد»؟ أو في «فرحة» بعد «مبتهجة»؟ ثم لماذا يقول الكاتب العصري صدقي «السخرية» ويردفها بـ «الاستهزاء»؟ وكيف يؤكل الطاووس ولا تحتويه المعدة؟ ولماذا يقول «المترفين» بعد قوله «المنعمين»؟ وهلم جرًّا.

ومِمَّن يَصِحُّ الاستشهاد به البيان الصادر عن الوفد الفلسطيني، وأغلب الظن أنه بقلم الأستاذ المعترض نفسه؛ لأنه كاتبُ سرِّ اللجنة التنفيذية،

وقد اطلعت عليه في جريدة «الحقيقة» بتاريخ ٢٩ جمادى الآخرة.

فقد جاء فيه: ذلك الماضي الفخم الضخم الذي كانت فيه الأمة العربية ... إلخ.

وفي اللُّغة: فخم الشيء فخامة: ضخم، فما هو الداعي إلى إرداف «فخم» بـ «ضخم» إذن؟

ثم قال:

مختلفة الأهواء والأمزجة.

في سبيل شهواته وأغراضه.

الخمول أو الانحطاط أو الهرم.

مُمتلئة الجسم مُكتنزة العضل.

يضعف وغيره يَقوى، يذل وغيره يَعتز، ويَنحط وغيره يَرقى.

وتعلن تعلقها به وإخلاصها له.

الحصن الحصين والملجأ المنيع الأمين.

فنحن في غنى عن إيضاح ما في هذه العبارات من الترادف بدون نكتة جديدة سوى تقوية المعنى في نفس القارئ. ومن سوءِ الحظِّ أننا لم نطلع على شيء من نثر الكاتب المعترض لنحاكمه إلى نفسه من نفس كلامه، وكلُّ ما وقع لدينا من فصوله ومقالاته من بعد أن تعرض

لانتقادنا وانتقاد فحول العربية الذين لا نصلح أن نكون من تلاميذهم على استعمال المترادف هو سطور معدودة تجنب فيها جهد الطاقة استعمال المترادف، ولكن الأسلوب العربي غلبه كما مرَّ بك من كلامه؛ إذ ليس قوله الملجأ المنيع بعد قوله الحصن الحصين إلا من الترادف الصرف، والذي يضعف ويذل والذي يذل ينحط والتعلق والإخلاص مترادفان ... إلخ. فقد اتبع المذهب الذي أنكره وأعاذ العربية منه. وزعم الأستاذُ في أول مقالةٍ تصدى فيها لهذا البحث أن بعضَ الكُتَّابِ يكيلون المترادف جزافًا ظانين أنهم بذلك يحتذون على مثال أحمد فارس في الساق على الساق مع أن مذهب أحمد فارس في هذا الكتاب هو الإتيان بالمترادف عمدًا لتعليم الألفاظ التي هي في معنى واحد وليس ذلك بأسلوبه في الكتابة إذا لم يقصد هذا الغرض.

فنحن إن شاء المعترضُ نأتي له بمترادف يتراكم منه كتاب مستقل من كلام أحمد فارس في كشف المخبأ وسر الليال والجاسوس على القاموس ومجاميع الجوائب في المواضع التي لا يقصد بها ذلك الغرض لنفسه؛ بل يكتب على عادته ويكفي أن نسرد له المقالة التي أولها: من الناس مَن تخالج صدره من فنون الاقتراح خوالج، وتعالج فكره من شجون الاجتراح لواعج ... إلخ.

ومسرور الأستاذ السكاكيني أنَّه بفضلِ إرشادِه قد مصح ما بي من مرض وصرت أتجافى عنه كما ظهر من مقالاتي الأخيرة، ولا عجب أن يقوم الأستاذ أسلة قلمي بعد أن تجاوزت الخمسين لا الأربعين وأن أصير عنده تلميذًا ناجحًا ... فقد ورد: اطلب العِلْمَ من المهدِ إلى

اللَّحدِ، ولكنه إن كان الله قد تداركني بالتوبة قبل الرحيل فلا أستطيع إلا أن أحزن على أولئك الأعلام من جاهليين ومخضرمين وإسلاميين ومولدين ومتأخرين، ومن خلفاء وصحابة وتابعين، وعلماء وكُتَّابِ وخُطباء ومُصنِّفين كيف جاءوا في فترة لم يقيض الله لهم فيها من يهديهم طريق العربية الصحيحة وماتوا وهم على أغلاطهم.

ولم يقتصر الأستاذ — جزاه اللهُ عني خيرًا — على تثقيف ملكتي في الإنشاء بل تجاوز ذلك إلى النحو، ووقفني على دقائق من هذا الفنِّ لم أكن أعرفها، أفلا تراه كيف نبهني إلى الخطأ الذي أخطأته في إشارتي إلى عليِّ بن أبي طالب — رضي اللهُ عنه — والجاحظ بكلمةِ «هؤلاء» مع أن «هؤلاء» هي للجمع لا للمثنى، فمَن يعرف هذه الدقيقة الجليلة غيره ... وفوق كل ذي عِلْمٍ عليم.

تطور اللُّغَة في ألفاظها وأساليبها (٤)

مَرَّ زمنٌ غير قصير على اللُّغَةِ العربية انصرفت عناية الكثيرين من أدبائها وعلمائها فيه إلى الصناعة اللفظية، من ذلك أنهم كانوا يطنبون حيث لا يجوز إطناب، ويكثرون من المترادفات اقتضاها المقام أم لم يقتضها. وقد اشتدت وطأة هذا المرض في زمن الإمامِ الزمخشريِّ صاحب «الكشَّاف» و«أطواق الذهب»، وابن الأثير صاحب الكامل في التاريخ، والطنطراني صاحب القصيدة الترجيعية المشهورة، وعماد الدين الأصبهاني صاحب الفتح القدسي وقد كان عمدة المنشئين في ذلك العصر، وغيرهم ... وقد سرت عدوى هذا المرض إلى عصرنا هذا فلم يسلم منها أحدٌ مِن أكبر كاتب مثل الأمير شكيب أرسلان إلى كاتب هذه السطور، ولم تخف وطأة هذا المرض إلا من عهد قريب والحمد لله، فأخذ كثيرون من الكُتَّاب أصحاب المذهب الجديد يميلون إلى الإيجاز ولا يطنبون إلا إذا اقتضى المقام الإطناب ...

وإذا كان لكلِّ لُغةٍ أسلوبٌ أصليٌّ أو نِصَابٌ معروفٌ لا بد من المحافظة عليه كما يقول الأمير شكيب في ردِّه الأخير عليَّ، فالمذهب القديم خروج عن ذلك النصاب المعروف والمذهب الجديد رجوع إليه، والخلاف بيني وبين الأمير ليس على هذا «النصاب المعروف» ولكن على أسلوبه، فهو يقول إن أسلوبه ينطبق على النصاب المعروف في اللُّغة، وأنا أنكر عليه ذلك، وقد طال الجدال بيني وبينه.

قال إن الإكثار من المترادفات يقتضيه مثل منشوره ذاك إلى الأمة العربية جمعاء.

إذا صحَّ ذلك فما له يُكثر من المترادفات في كلِّ ما يكتب؛ سواءٌ كان منشورًا إلى العامة أم رسالة في الأدب.

قال إن الإكثار من المترادفات يقتضيه بعض الأحوال لتقوية المعنى، ولكن ما له يكثر من هذه المترادفات في كل حال. فلما رأى ورأى العارفون أن أسلوبه لا ينطبق على الأصول التي نصَّ عليها البيانيون، ترك الأصول ولجأ إلى النقل، فهو يقول في ردِّه الأخير: إذا جاز للإمام الحُجَّة القدوة الزمخشري أن يقول: «وما هي إلا صفات مبتدئ مبتدع وسمات منشئ مخترع»، وأن يقول: «قطع الفيافي وطي المهامه» إلى آخر ما أورد من أقواله. وإذا جاز لابن الأثير وقد قال عنه «إنه ليس مِمَّن يُعَد في طبقة الزمخشري ولكنه من عِلماء العربية، وبكل الأحوال أعلى طبقة من السكاكيني ولو رأى نفسه — أي السكاكيني — غير ما يراه غيره» مِمَّا ترى منه أنه لا يزال متألمًا غاضبًا. يقول: إذا جاز لابن الأثير هذا أن يقول: «طاعته فرض واجب واتباع أمره حُكمٌ لازب»، وأن يقول: «من أحيا المكارم وكانت أمواتًا، وأعادها خلقًا جديدًا بعد أن كانت رفاتًا، مَن عمَّ رعيتَه عدلُه ونوالُه، وشملهم إحسانُه وأفضالُه» إلى آخر ما أورد من أقواله؛ بل قال: إذا جاز للأستاذ طه حسين وللعلامة الأستاذ أحمد زكي باشا وللأديب العصري صدقي وللمعترض نفسه أن يقولوا كذا وكذا، فلماذا لا يجوز لي أن أقول: «إن الصارخة القومية والنعرة الجنسية نشأت مع الأقوام وبدأت مع الأمم مُذ الكيان ومُنذ

الاجتماع البشري، وتساكن الإنسان مع الإنسان؟» إلى غير ذلك مِمَّا جاء في منشوره وفي ورُودِهِ.

من العجب أن تقول للمريض: أنت مريض، فيقول لك: وأنت مريض وكل الناس مرضى، كأن مرض غيره يعزيه أو ينفي المرض عنه!

لا يا سيدي، لا يجوز لك ولا للزمخشري ولا لابن الأثير ولا للجاحظ ولا لابن المقفع ولا للحريري ولا لأحد أن يكثر من المترادفات في غير مواطن تكرار الكلام بلفظه أو بمرادفه، وغلطي وغلط غيري لا يشفع في غلطك، ولا يفيد العربية أن تحزن على مَن مات على مذهبك في الكتابة من العلماء الأعلام، وإنما يفيدها أن تراعي أصولها وأنت سيد العارفين.

والآن اسمح لي أن أنتقل إلى الكلام عن بقية الفروق بين المذهبين القديم والجديد، ويا حبَّذا لو تتفضل عليَّ بإعلان رأيك فيها فأكون لك من الشاكرين.

قلت في إحدى رسائلي السابقة التي كانت منشأ هذا الخلاف بيني وبين الأمير، إن أصحاب المذهب القديم يكثرون من المترادفات في غير مواطن تكرار الكلام بلفظه أو بمرادفه، وإن أصحاب المذهب الجديد لا يكررون الكلام بلفظه أو بمرادفه إلا في المواطن التي نصَّ عليها البيانيون تفاديًا من الحشو وذهابًا إلى الإيجاز، ولكن لا بُدَّ لي قبل أن أتكلم عن بقية الفروق أن أشير هنا إلى موضع آخر للإيجاز تتمة للحديث هناك.

في الاستعارة قد يكنى عن المستعار إما بجزءٍ منه كقولهم: فلان على

جناح السفر، إذا كان متأهبًا له تشبيهًا للسفر بالطائر في سرعة المزايلة، فإنهم لم يذكروا الطائر ولكنهم كنوا عنه بجزءٍ منه وهو الجناح. وأما بلازم معنوي نحو: نطقت الحال بكذا، أي دلَّت عليه تشبيهًا للحال بالخطيب وللدلالة بالنطق في الإبانة، فإنهم لم يذكروا الخطيب ولكنهم كنوا عنه بالنطق وهو من لوازمه، وقد يُصرَّح بذكر الجزء مع ذكر اللازم المعنوي، فيقال: نطقَ لسانُ الحالِ بكذا، وقد يُصَرَّح بالذاتِ رأسًا، فيقال: نطق خطيب الحال.

ومع أن استعارة الجزء أو التصريح بالذات رأسًا أبلغ من استعارة اللازم المعنوي كما يستفاد من أقوال البيانيين، يتراءى لي أن أصحاب المذهب الجديد يميلون إلى استعارة اللازم المعنوي دون استعارة الجزء أو التصريح بالذات، فيقولون: نطقت الحالُ بكذا مثلًا، لا نطق لسان الحال أو خطيب الحال، أي إذا كانت الجملة الواحدة بليغة ولكنها موجزة والثانية أبلغ ولكنها أطول، آثروا الأولى على الثانية، وعلى ذلك فإنهم يقولون: «شَحَذَ فُلانٌ رأيَه وأَرْهَفَ ذهنَه» بدلًا من: «شَحَذَ غِرَارَ رَأيِهِ وغِرَارَ ذِهْنِهِ أو سيفيهما»، و«ركب الباطل» بدلًا من «ركب متنه أو مطيته»، و«طوى الحديث» بدلًا من «طوى بساطه»، و«أضرم الشر أو أطفأه» بدلًا من «أضرم ناره أو أطفأها»، و«زرع الأحقاد أو فثأها» بدلًا من «زرع بذورها وفثأ قدورها»، و«استصبح بعلم فلان» بدلًا من «استصبح بنبراس علمه»، و«انبتَّ الشمل» بدلًا من «انبتَّ حبله» إلى غير ذلك وهو كثير؛ بل هم يستعملون هذه الألفاظ في مثل هذه التراكيب لا على سبيل الاستعارة ولكن على سبيل الترادف، فركب

الباطـل عندهـم مرادفـة لقولهـم أصرَّ عليـه، وطـوى الحديـث مرادفـة لقولهـم تركـه أو أجلـه وإلا فإنهـم لـو قصـدوا الاسـتعارة لاسـتعاروا مـا يناسـب الحـال ويلائـم الحيـاة؛ لأن قولهـم طـوى فـلان بسـاط الحديـث كان يـوم كان المتحادثـون يجلسـون عـلى البسـاط، وأمـا اليـوم فـإن المتحادثـين يجلسـون حـول موائـد حمـراء أو خـضراء مسـتديرة أو مسـتطيلة، فـإذا أردنـا الاسـتعارة فـالأولى أن نقـول: رفعـت مائـدة الحديـث لا طـوي بسـاطه ... وإن قولهـم «ركـب فـلان مـتن الباطـن أو مطيتـه» كان يـوم كان ركـوب المطايـا مألوفًـا، وأمَّـا اليـوم فـإن وسـائط النقـل كثـيرة، وأقلهـا اسـتعمالًا المطايـا، فـإذا أردنـا الاسـتعارة فـالأولى أن نقـول: تسـلق فـلان سـيارة باطلـه أو دراجتـه لا ركـب متنـه أو مطيتـه ... بـل يخيـل إليَّ أن أصحـاب المذهـب الجديـد يميلـون إلى الإقـلال مـن الاسـتعارات وقـد يفـضي بهـم الأمـرُ إمَّـا إلى العـدول عنهـا بتاتًـا وإمَّـا إلى اسـتعمالها في الشـعر دون غـيره، فيكـون للشـعر لُغـةٌ ولغـيره لُغـة أخـرى.

أكـثر العـرب مـن الاسـتعارات يـوم كانـوا أهـل خيـال وأحـلام، فكانـت لُغتهـم شـعرية لا يسـتعملونها إلا في بيـان تأثراتهـم فكانـوا يتلاعبـون بالألفـاظ للمبالغـة في بيـان تلـك التأثـرات، وأمَّـا اليـوم وهـم يحاولـون أن يجعلوهـا لُغـة العِلْـمِ والفلسـفةِ والسياسـةِ والاجتـماعِ، فـلا بـد أن تتطـور فتراعـى النسـبة بـين اللفـظ والمعنـى، وبعبـارة أخـرى؛ لا بـد أن يقصـد بهـا تقريـر حقائـق بألفـاظ محـدودة موضوعـة لا تقبـل الزيـادة أو النقصـان، ولا بـد أن تتغلـب هـذه اللُّغَـةُ عـلى لُغـةِ الشِّـعرِ؛ لأنهـا أعـمُّ وَلُغَـةُ الشِّـعرِ أخـصُّ، هـذا إذا لم تتغـير حـدود الشـعر.

القديم والجديد

أستأذن القارئ الكريم في العودة إلى هذا الموضوع، فقد بقيت فروق بين المذهبين القديم والجديد لا بد من الإشارة إليها استيفاءً للحديث.

التطور ناموس عام، فما من عنصر من عناصر الحياة إلا خاضع له رضينا أم كرهنا، ومَن لا يؤمن بهذا الناموس فقد جهل كثيرًا.

وإذا كنت قد اطلعت على ما كتبه أكابر كتاب مصر الأعلام في المدة الأخيرة حول المذهبين القديم والجديد في الكتابة، فلا بد أن تكون قد رأيت أن اللُّغَةَ خاضعة لهذا الناموس، وأنه ما من سبيل لإخراجها عن حُكمه، إلا أنهم لم يشيروا إلى آثار هذا التطور في اللُّغَةِ إلا عرضًا.

فما هي هذه الآثار؟

من تلك الآثار أن الناس كانوا يميلون إلى الإكثار في الكلام ولو خرجوا إلى الثرثرة لاعتبارات اقتضتها عقليتهم، فصاروا يميلون في هذا العصر الأخير — الذي انتشرت فيه روح الاقتصاد — إلى الإيجاز، كما رأيت فيما دار بيني وبين الأمير شكيب أرسلان من الجِدَال وليس العهد به ببعيد.

ومن تلك الآثار أن الناس كانوا يميلون إلى التكلف في الكتابة فصاروا يميلون إلى الأساليب الطبيعية فيها، كما كانوا يتكلفون في كلِّ شيء فصاروا طبيعيين في كلِّ شيء.

كان القـرَّاءُ قبـل اليـوم يُجـوِّدون تجويـدًا، أو يسـتعملون لهجـةَ الوعـظِ يقلـدون بهـا خطبـاء المسـاجد أو رؤسـاء الكنائـس الأجانـب، أو يلزمـون نغمـة واحـدة لا يـكادون يسـفلون فيهـا أو يعلـون. وأمَّـا اليـوم فإنهـم يمثلـون المعنـى تمثيـلًا، وبعبـارة أخـرى صـاروا يقـرءُون كـما يتحدثـون.

كان المغنـون قبـل اليـوم يلزمـون في كل حـال نغمـة واحـدة سـواء كان الموقـف موقـفَ حـبٍّ أم حماسـةٍ أم بـكاءٍ، وأمَّـا اليـوم فـإن لـكلِّ موقـفٍ نغمـة تناسـبه.

يقـال إن عبـده الحمـولي الموسـيقي المشـهور طـاف ليلـة مـع بعـض أصدقائـه عـلى مجالـس الطـرب، فـما كان يجلـس قليـلًا في أحـد تلـك المجالـس إلا قـال لأصدقائـه: «قومـوا بنـا فـإن هـذا فقهـي» أي إن المغنـين في ذلـك العـصر كانـوا يُجـوِّدُون لا يغنـون.

كان الخطبـاء قبـل اليـوم يقلـد بعضهـم بعضًـا في إشـاراتهم، وكانـوا فيهـا متكلفـين، يشـير الخطيـبُ بيـدِهِ إلى الأمَـام أو إلى الـوراء وليـس في كلامـه مـا يقتـضي تلـك الإشـارة، وأمَّـا اليـوم فـإن الإشـارات جـزءٌ مـن اللُّغَـةِ تُقـوِّي المعنـى أو توضحـه أو تسـتدعي الانتبـاه إليـه.

كان الرقـص قبـل اليـوم تفـككًا، فـكل حركـة فيـه كانـت رقصًـا، وأمَّـا اليـوم فـإن الرقـص لُغـة أخـرى تمثـل معـاني النفـس تمثيـلًا، وقـد يمثلـون بالرقـص مـا لا يمثلـه كلام. قـد يكـون في الرقـص خشـوع، وقـد يكـون فيـه حماسـة، وقـد يكـون فيـه حـب، وقـد يكـون فيـه بـكاء، وقـد يكـون فيـه وعـظ.

فأنت ترى من هذا كله أن الناس صاروا يميلون في كلِّ مظاهر الحياة إلى الأساليب الطبيعية، وليس شيء أثقل على الروح في هذا العصر من التكلف.

فالأسلوب الطبيعي للكتابة أن يكتب الإنسان كما يفكر وكما يتحدث، فمَن حاول أن يكتب ما لا يُفكر فيه أو يتحدث به هو أو غيره، وما لا يلائم الحياة في شيء فقد تكلف، قد يكون تفكيره أو حديثه شيئًا وما يكتبه شيئًا آخر، قد يترجم حديثه نفسه وأما كتابته فلا.

إذا أراد الكاتبُ من أصحاب المذهب القديم أن يكتب فلا يستوحي عقله أو قلبه، ولا يستعمل من الألفاظ ما يؤدي مراده ويناسب المقام ويفهمه الناس، ولكنه يستوحي القدماء، يفتش عَمَّا قالوه في موضوعه في كلِّ مظنة فيستعير معانيهم وألفاظهم ويدَّعيها لنفسه. لا تقرأ شيئًا لهؤلاء الكتَّابِ إلا أحسست أن كلَّ لفظةٍ فيه ليست لهم.

كان القدماء يستحسنون «التضمين» وهو أن يأخذ الشاعر أو الكاتب شطرًا من شعر غيره بلفظه ومعناه، و«الاستعانة» وهي أن يأخذ بيتًا كاملًا، و«الإيداع» وهو أن يصرف معنى ما يأخذه من أقوال غيره عن مراد صاحبه، كما فعل الشيخ صلاح الدين الصفدي والشيخ جمال الدين بن نباتة بإعجاز معلقة امرئ القيس متعاتبين، فقال الأول في أول قصيدته:

أفي كل يوم منك عتب يسوءني كجلمود صخر حطه السيل من عل

فأجابه الثاني بقصيدة قال في أولها:

فطمت ولائي ثم أقبلت عاتبًا أفاطم مهلًا بعض هذا التدلل

و«الاقتباس» وهو أن يضمن الكاتبُ أو الشاعرُ كلامَه شيئًا من القرآن والحديث.

و«التلميح» وهو أن يشار في الكلام إلى قصةٍ معلومةٍ أو بيتٍ مشهورٍ أو مَثلٍ سائر.

و«العقد» وهو أن يأخذ الشاعرُ كلامًا منثورًا فينظمه بأن يزيد عليه أو يُنقص منه حتى ينطبق على وزن الشعر.

وأما اليوم فإن أصحاب المذهب الجديد لا يميلون إلى شيء من هذا، فإنك لا تجد فيما يكتبونه آية أو حديثًا أو مثلًا أو شطرًا أو جملة من بيت؛ بل لا تجد كلمة ليست لهم أو لا يعنونها.

إذا لم يكن بدٌّ للكاتب أو الشاعر أن يستعير معاني غيره ويستعين بألفاظه فعلى ألا يُسرِف في ذلك، وإلا كان كلامه صدى مرددًا، هذا إذا لم نعده مسروقًا، وعلى أن يكون ما يستعيره من المعاني وما يستعين به من الألفاظ مِمَّا يعنيه، ويقتضيه الحال الذي هو فيه، وإلا فقد يكون ما يعنيه أو ما يقتضيه الحال شيئًا وما يكتبه شيئًا آخر وهذا هو التكلف، بل الجمود، بل النفاق.

إذا قـرأ التلميـذُ اليـوم فتصنـع في لهجتـه فـإن الأسـتاذ يكلفـه أن يطـوي كتابـه وأن يتحـدث بمـا قـرأ، والغالـب أنـه إذا تحـدث يرجـع إلى لهجتـه الطبيعيـة، ثـم يكلفـه أن يقـرأ باللهجـة التـي تحـدث بهـا.

ومـا أحـرى الكاتـب اليـوم إذا خـشي أن تغلـب عليـه الكلفـة أن يتحـدث بمـا يكتـب لنفسـه أو لغـيره أولًا ثـم أن يكتـب كـما تحـدث.

ومَـن أحـبَّ أن يـرى كيـف تكـون الكتابـة حديثًـا عـلى سـوقه الطبيعـي فليقـرأ مـا يكتبـه الدكتـور منصـور فهمـي، والدكتـور طـه حسـين، والأسـتاذ مصطفـى عبـد الـرازق، والأسـتاذ سـلامة مـوسى، فـإذا قرأهـم فكأنـه سـمعهم يتحدثـون.

بـل إن أصحـاب المذهـب القديـم أنفسـهم عـلى ولوعهـم بالتكلـف إذا ردوا عـلى منتقديهـم كانـت كتابتهـم أبعـد عـن الكلفـة وأقـرب إلى الطبـع، كأن الغضـب يخرجهـم عـن الكلفـة ويردهـم إلى حالتهـم الطبيعيـة.

كان يجـب — عـلى رأي هـؤلاء المتكلفـين — أن يكـون هنـاك كتـاب في كلِّ مـا يُعـرض للإنسـانِ مـن الشـئون ومـا يتمثـل لـه مـن الخواطـر، عـلى حـدِّ تلـك الكتـب الموضوعـة في الرسـائل التـي تبـدأ كلُّ رسـالة فيهـا بقولهـم: «غـب سـؤال شريـف خاطركـم والاسـتفحاص عـن غـالي سـلامتكم»، فـإذا احتـاج الكاتـبُ منهـم أن يشـكر أو يُهنـئ أو يُعـزي أو يَعتـب أو يَبـث شـوقه مثـلًا، فـما عليـه إلا أن ينسـخ مـا يريـد مـن ذلـك الكتـاب بلفظـه ومعنـاه ويوقعـه باسـمه.

وأرجو القارئ الكريم ألا يكلفني أن أستشهد بأقوال أحدٍ؛ فإني لا أحبَّ أن أفتح عليَّ باب الخصومة.

***

ومن آثار هذا التطور أنَّ أصحاب المذهب القديم ينزعون إلى الأرستوقراطية في هذا الزَّمان الذي انتشرت فيه الديموقراطية، فصار الكُتَّابُ فيه يكتبون لا للخاصة، ولا لتسلية الأمراء والكبراء أو التملق لهم أو السخر منهم، ولا للتفصُّح أو التمدُّح؛ بل لعامةِ الناس فيما ينفعهم في هذه الحياة.

من تلك الأرستوقراطية أن الكاتب منهم لا يقول فيما يكتب «أنا قلت» «أنا رأيت» بصيغة المفرد؛ بل «نحن قلنا» «نحن رأينا» بصيغة الجمع؛ تعظيمًا لشأنه، ولولا شيء من الحياة لابتدءوا كلامَهُم بالثناءِ على أنفسهم والإشادة بفضلهم، وختموه بقولهم: «مَن يستطيع أن يأتي بمثل هذا؟» على الطريقة البحترية، تعزيزًا لمكانتهم عند العامة، وما أدرانا أنهم يكلفون غيرهم أن يقرظوهم ويعظموهم.

ومنها أنهم يبالغون في التأنق وتخير الألفاظ ولو خرجوا إلى الكلفة بل السخافة، وقد قسموا الكلام إلى رصين ومبتذل أو سمين وهزيل، وما الرصين السمين في عرفهم إلا الغريب المهجور، وما المبتذل الهزيل إلا المفهوم المأنوس. ولا تشيع لفظةٌ على ألسنةِ الناسِ إلا أصبحت عندهم مبتذلة هزيلة لا يليق بأمثالهم أن يتسفلوا إلى استعمالها، وربما امتنعوا عن الكتابة بتاتًا إذا اضطروا أن يكتبوا بلُغةِ الناس.

لا ننكـر التأنـق؛ فإنـه فطـرة في بعـض النـاس، فقـد تـرى زيـدًا عـلى غنـاه ووجاهتـه يخـرج مـن بيتـه في الصبـاح بـدون أن يغسـل وجهـه، عـلى حـين تـرى جـاره — عـلى فقـره وخمولـه — لا يخـرج مـن بيتـه إلا نظيـف الجسـم والثـوب حسـن الهنـدام مـسرح الشـعر. والتأنـق دليـلُ علـوٍّ في النفـس وسـلامة في الـذوق، وهـو مدعـاة إلى الرقـي، ولكـن عـلى ألا يظهـر المتأنـق أنـه متأنـق، وبعبـارة أخـرى أن لا يتأنـق لأجـل التأنـق، وإلا كان دليـلًا عـلى سـخافة العقـل وفسـاد الـذوق، وكان مدعـاة إلى التـدني.

كـما لا ننكـر الابتـذال، ولكـن الابتـذال يكـون في الجملـة لا في اللفظـة، فقولهـم: «فـلان يصطـاد في المـاء العكـر» مـن الجمـل المبتذلـة التـي لاكتهـا الأفـواه ومَلَّتهـا الأسـماعُ. وأمَّـا كلُّ لفظـةٍ في هـذه الجملـة فـلا ابتـذال فيهـا، وإلا فـكل ألفـاظ اللُّغَـةِ المسـتعملة مبتذلـة.

يقـول هـؤلاء الكتَّـابُ الأرسـتوقراطيون إنهـم يكتبـون للخاصـة لا للعامـة، ومنهـم مـن يبالـغ في أرسـتوقراطيته فـلا تفهمـه العامـة ولا الخاصـة.

وقـف خطيـبٌ في حفلـةٍ أقيمـت لتكريـم شـاعرٍ كبـير، وبعـد أن قـرأ كلمتـه «المحـبرة»، وقـد جـاء فيهـا بالغريـب وغريـب الغريـب، التفـت إلى الشـاعر — وكان جالسًـا إلى جانبـه — وقـال لـه: «أظـن أنـه لم يفهـم كلامـي إلا أنـت وأنـا»، فقـال لـه الشـاعر: «ولا أنـا يـا سـيدي.»

وتراهـم إذا كتبـوا اضطـروا إلى تفسـير ألفاظهـم في ذيـل كلِّ صفحـةٍ، وقـد يكـون التفسـير أطـول مـن المـتن وأغمـض.

إذا كنتم — أيها السادة الأجلاء — إنما تكتبون للخاصة، فلا حاجة إلى هذا التفسير؛ بل لا حاجة إلى كل ما تكتبون. وإذا كنتم تكتبون للعامة فكلِّفُوا خاطركم غير مأمورين واكتبوا بِلُغةِ الناسِ ولكم الأجر.

نفهم أن الكاتبَ قد يضطر إلى كلمة غريبة لا يجد لها مرادفًا في اللُّغَةِ المألوفة فيفسرها، أمَّا أن يترك الكاتبُ الألفاظ المأنوسة والتراكيب السلسة إلى ألفاظ مهجورة بالية وتراكيب معقدة غامضة على غير اضطرار؛ ليدهش الناس ويحملهم على الإعجاب به واستعظام قدره والثناء عليه، فتلك سخافة ليس بعدها سخافة.

ثم لو فرضنا أن هذه الألفاظ الغريبة التي يسميها الأرستوقراطيون «جزلة فخمة»، وأن تلك التراكيب التي يسمونها «أنيقة الديباجة» أصبحت شائعة فماذا يعملون؟ هل يخترعون ألفاظًا وتراكيبَ جديدةً، أم يغضبون كما غضب الصاحب بن عباد على صاحب كتاب الألفاظ فقال: «لو أدركت عبد الرحمن بن عيسى مُصنِّف كِتَابِ الألفاظ لأمرت بقطع يده»، فسئل عن السبب، فقال: «جمع شذور العربية الجزلة في أوراق يسيرة فأضاعها في أفواه صبيان المكاتب، ورفع عن المتأدبين تعب الدرس والحفظ الكثير والمطالعة الكثيرة الدائمة.»

لم تغضب أيها الصاحب بن عباد على عبد الرحمن بن عيسى لأنه رفع عن المتأدبين تعب الدرس والحفظ الكثير والمطالعة الكثيرة الدائمة، وإنما غضبت لأنه حاول أن يجعل من صبيان المكاتب وعامة المتأدبين أرستوقراطيين مثلك، وليس شيء أثقل وأشد على الأرستوقراطي من أن

يدانيه أحدٌ من العامة.

لقد أحسن عبد الرحمن بن عيسى في تقريب منال اللُّغَةِ من المتأدبين، فهو يستحق على ذلك الشكر الجزيل، ولكنه أساء من حيث لا يدري؛ إذ قيَّدَ أقلامَ الكُتَّابِ بعده بتلك الألفاظ التي جمعها، فلم يحيدوا عنها، وإذا استعمل أحدٌ غير ألفاظه قالوا هذا ليس عربيًّا، فكان كتابه هذا أول عهدِ اللُّغَةِ العربيةِ بالجمودِ والتكلُّفِ.

ذيل

جاء في [آخر البحث الثاني: في مقابلة الحروف العربية بغيرها]: يقال إنهم في بعض مدن أوروبا في الأجيال الوسطى بنوا كنيسة على طراز شرقي ... إلخ.

وقد اطلع على قولي هذا صديقي الأستاذ عادل أفندي جبر فتفضل بالكلمة الآتية:

إن دار البطريركية اللاتينية في مدينة الجزائر لا تزال فيها كتابات ونقوش إسلامية كثيرة تزين جدران قاعاتها الفسيحة، مثل: محمد، أبو بكر، عمر، عثمان، علي ... إلخ، و«توكلت على الله» المنقوشة بالجصِّ مكررة على أعلى تلك الجدران.

وكذا كنيسة (مارتورانا Martorana) في مدينة (بلرمه) عاصمة صقلية، فإن أعمدتها زُيِّنتْ بالنقوشِ العربيةِ والآياتِ القرآنية، فضلًا عن الكنائس المتعددة التي بنيت في إسبانيا بعد إجلاء المسلمين عنها، فإن جُلَّها شُيِّدَ وزُيِّنَ على مثالِ المساجدِ والجوامعِ بالنقوشِ والكتاباتِ العربيةِ.

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة
عماد عبدالله حمدان